الامـام الصـادق
والمـذاهب الاربعـة

الجزء الثالث

أسد حيــدر

(إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ ا لإِسْلام)

(آل عمران: ١٩)

وَهُوَ فِي الأخِرَةِ مِنَ ا لْخَاسِرِينَ)

(آل عمران: ٨٥)

مِن دُونِه أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ)

(الأعراف: ٣)

فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ ا لْغَالِبُونَ)

(المائدة: ٥٦)

عَـرض و تمـهيد

عَرض و تمهید

نوعية البحث

هذا هو الجزء الثالث من كتابنا الإمام الصادق والمذاهب الأربعة، أضعه بين يدي القرّاء.

وقد نهجت فيه منهجي الذي سرت عليه في الجزئين: الأوّل والثاني، مبتدئاً بذكر الإمام الصادق (عليه السلام)في بيان موجز عن تاريخ حياته، ونشاط مدرسته، وبعض تعاليمه . ولم أتوسّع في البحث ـ كما يتطلّبه الموضوع ـ إذ لا يمكن إعطاء شخصيّته حقَّها من الإحاطة والبيان، فإنّ ذلك أمر يشقّ على الباحث حصوله مهما أنفق من جهد في هذا السبيل، وفي أيّ ناحية يسلك ليفرغ منها فراغاً تامّاً يجد نفسه في البداية لا في النهاية; لأنّ شمول البحث لجميع جوانب شخصيّة الإمام الصادق (عليه السلام) ومزاياه التي اتّصف بها، وأعماله التي قام بها، لإعلاء كلمة الإسلام وتوحيد صفوفها، هو من الصعوبة بمكان. ولهذا التجأت إلى إفراد البحث في ذلك بجزء خاص به، كما أنّ الفترة التاريخية التي عاشها الإمام (عليه السلام)كانت مليئة بأحداث تأثّر بها مجتمعه الذي كان يتصل به، ويرتبط بواقعه، فكان يعالج تلك المشاكل بحنكة وتدبّر، عن بصيرة ومعرفة بعاقبة الأمور.

وكانت الظروف تقضي على رجال أهل البيت (عليهم السلام) أن يكونوا محور آمال الأُمّة; لأنّ الثورة قامت باسمهم، وقد ارتفعت هتافات الثوار بالدعوة لهم، وإسناد الحكم إليهم، وكان هو (عليه السلام) زعيم أهل البيت(عليهم السلام)وسيّدهم في عصره، وهو أعلم الناس بتلك الأمور، وما يؤول إليه الأمر بين العباسيين والعلويين، كما أنّه درس تلك الأوضاع وعاش مع أحداث مختلفة، ومشاكل متراكمة. فكان موقفه (عليه السلام)أحرج موقف يقفه زعيم ديني يحمل رسالة الإسلام، ويريد تطبيق نظامه في عصر هبّت فيه زوبعة الأهواء، واختلفت الآراء، وذهب الناس فيه مذاهب شتّى، وسلكوا طرقاً متباينة، فالموقف إذاً يحتاج إلى قيادة حكيمة، وسياسة إسلامية مركّزة، فكان موقفه (عليه السلام) موقف القائد المحنّك، الذي يسير على هدى من دينه، وبصيرة من أمره، ولقد ظلم التاريخ مواقفه، وألجم عن التصريح بأعماله وآثاره، ولو أفصح التاريخ عن جميع مآثره وجليل أعماله ـ ولم يكن محظوراً عليه ذلك ـ لاتّسعت دائرة البحث عن إدراك جوانب تاريخ حياته.

ومن الحقّ هنا الاعتراف بالقصور عن إدراك شخصيّته ومكانتها في تاريخ الإسلام، وما لها من الأثر العظيم في التشريع الإسلامي. وليس ذلك لغموض يكتنف جوانب عظمته، أو وجود زوائد في دراسة حياته، أو اندفاع وراء العاطفة لرفع مكانته وعلوّ مقامه بدون حقّ، كلّ ذلك لم يكن، وإنّما اتساع دائرة معارفه، وتعدّد نواحي شخصيّته، وعظيم أثره في بعث الفكر الإسلامي، وتدفّق ينبوع آرائه، وجهاده المتواصل في سبيل توجيه الأمة بآثاره الخالدة وتعاليمه القيّمة، هو السبب في قصور الباحث عن إدراك الغاية المطلوبة بسهولة.

والتزمت أن أذكر في كلّ جزء إماماً واحداً من الأئمة الأربعة. فذكرت في الجزء الأول: الإمام أبا حنيفة، وفي الثاني: الإمام مالكاً، وفي هذا الجزء الإمام الشافعي، مقتصراً على ذكر أنسابهم ومناقبهم ونشأتهم ونبوغهم، وذكر شيوخهم وتلامذتهم، دون استقصاء لآرائهم وفقههم. وفي الجزء الرابع يأتي ذكر الإمام أحمد بن حنبل. وفي بقية الأجزاء سنعرض إلى الموازنة والمقارنة بين المذاهب الإسلامية.

تفاوت المذاهب في الانتشار

تكلّمت فيما مضى عن أسباب نشأة المذاهب وانتشارها وكثرة عددها، وقد اقتصرت على ذكر البعض منها، مع بيان موجز عن حياة رؤسائها ومنزلتهم العلميّة. وأشرت إلى أسباب اندراس تلك المذاهب وبقاء الأربعة منها: الحنفي، والمالكي، والشافعي، والحنبلي. وقد اتّضح لنا أنّ للحكومات دخلاً في نصرة المذاهب وانتشارها ،فإذا كانت الحكومة قويّة وأيّدت مذهباً من المذاهب، تبعه الناس بالتقليد، وظلّ سائداً إلى أن تزول الدولة.

وانتشار المذاهب وعظيم الاقبال عليها لا يدلّ على قوّتها الروحية، وعواملها الذاتية. فقد رأينا أنّ قوّة الدعاة وتدخّل السلطة أقوى عامل لنشر المذهب، فأيّ مذهب كان أصحابه مشهورين، وأسند إليهم القضاء والإفتاء، واشتهرت تصانيفهم في الناس، ودرسوا درساً ظاهراً، انتشر في أقطار الأرض، ولم يزل ينشر كلّ حين. وأيّ مذهب كان أصحابه خاملين، ولم يولّوا القضاء والإفتاء، ولم يرغب فيهم الناس اندرس بعد حين[1].

والمذاهب الأربعة نفسها كانت تختلف بالقوّة والانتشار، فقد رأينا المذهب الحنفي هو أكثر المذاهب انتشاراً، واعظمها إقبالاً، لقوّة انصاره وكثرة دعاته في البداية

(١) حجة الله البالغة للدهلوي ج١ ص١٥١.

والنهاية، إذ كانت نواة شهرته من غرس أبي يوسف قاضي قضاة الدولة العباسية، فهو ناشر المذهب أو مؤسسه ـ إن صحّ لنا أن نقول ذلك ـ وقد كان أبويوسف وجيهاً في الدولة، مقبولاً عند الخلفاء، له منزلة لا يشاركه فيها أيّ أحد. فكان لا يولّي قاضياً إلاّ من انتسب لمدرسة أبي حنيفة.

واستمر القضاة في نشر المذهب في جميع الأقطار. مستمدّين قوّتهم من السلطة التنفيذية، حتى أصبح مذهب أبي حنيفة هو المذهب الرسمي للدولة.

ولمّا اعتنق الأتراك مذهب أبي حنيفة أثّر ذلك في قوته وانتشاره في العصور المتأخرة، وناهيك بما للأتراك من قوة في الدولة، وقسوة في الحكم، واستبداد في الأمر، وقد ناصروه بكلّ حول وقوة، وكان انتصارهم لطمعهم في الخلافة. فإنّ السلطان سليماً طمع في الخلافة الإسلامية، وهي لا تكون إلاّ في قريش باتفاق المذاهب الاّ الحنفي فإنّه جوّز أن يتولّى الخلافة غير قرشي، فحمل الناس على اعتناق هذا المذهب.

وقد رأينا انتصار العباسيين لمالك بن أنس ـ بعد غضبهم عليه ـ فقد أمروا بقصر الفتوى عليه، وأعلن ذلك بأمر الدولة. ونودي ـ غير مرة علناً ـ ألاّ يفتي الناس إلا مالك[٢] وأمروا عمّالهم باستشارته في الأمر، وعدم القطع دونه، فهذا المنصور يقول لمالك: إن رأيت ريبة من عامل المدينة أو عامل مكة، أو أحد عمال الحجاز في ذاتك أو ذات غيرك أو سوء سيرة في الرعية، فاكتب إليّ بذلك أنزل بهم مايستحقون. وقد أكتب إلى عمالي بها أن يسمعوا منك ويطيعوك في كلّ ماتعهد إليهم، فانههم عن المنكر وأمرهم بالمعروف توجر على ذلك. وأنت خليق أن تطاع ويسمع منك[٣].

وكان مالك يأمر الحرس ليأخذو شخصاً إلى السجن، ويأمر بإطلاقه حين يرى ذلك. ويجلس مالك عند الوالي فيعرض عليه السجن فيقول له: اقطع هذا واضرب هذا مائة وهذا مائتين واصلب هذا إلخ [٤].

وعلى أيّ حال فإن مالك بن أنس قد لحظته الدولة وقرّبته، إذ وجدت منه عوناً ومؤازرة، فقربوه وأحسنوا إليه، ورفعوا مجلسه، ونشروا علمه، وأجزلوا له العطاء، وأصاب منهم ثروة طائلة، ومع هذا فهم مدينون لمالك فى مؤازرتهم ومعاونتهم والركون إليهم.

---

(٢) تذكرة الحفاظ ج١ ص٢٠٦ .

(٣) مالك بن أنس للخولي ص٣١٨.

(٤) مالك للخولي ص٣١٩ نقلاً عن القاضي عياض في الترتيب ج١ ص٢٧.

وكان انتشار مذهبه في الأندلس يرجع لفضل القضاة، وقوّة السلطة، إذ حملوا الناس على اعتناق مذهبه بالسيف كما مرّ بيانه.

أمّا المذهب الشافعي فقد تعرّضنا لذكره وعوامل انتشاره، وستأتي زيادة بيان في ترجمته، كما تعرّضنا لانتشار مذهب الإمام أحمد، وقد رأينا الإعراض عنه محسوساً. ولم يكن كغيره من المذاهب شهرة، بل اقتصر انتشاره في بغداد، أما في سائر الأقطار فكان قليلاً جداً، حتى أنّ بعضهم لم يعدّه من المذاهب المعمول بها، وذكر مكانه مذهب الظاهري .

ولما امتدّ سلطان العثمانيين أصاب المذهب الحنبلي ضربة قاضية، وأخذ المذهب يتضاءل شيئاً فشيئاً. أما في مصر فلم تكن له أيّ شهرة هناك، فقد كان في العصور المتأخرة عدد شيوخ الأزهر (٣١٢) شيخاً من جميع المذاهب، وعدد طلابه (٩٠٦٩)، وكان من بينهم (٢٨) طالباً من الحنابلة، و ٣ شيوخ منهم فقط، ولكنّه ظهر في القرن الثامن عشر ميلادي في صورة قوية جديدة، بظهور الوهابيين الذين يتبيّن في مذهبهم أثر تعاليم ابن تيمية. وقد تطرفوا في ذلك إلى حدّ بعيد، وسيأتي الكلام على ظهورهم وتعاليمهم عند كلامنا في مذهب أحمد بن حنبل.

نظرة في التعصّب المذهبي

وقد رأينا كيف تغلّبت روح التعصب المذهبي الشديد، كما تغلّبت الفكرة القائلة بتحريم تقليد غير المذاهب الأربعة. وتطوّرت الدعوة إلى ذلك بصورة واسعة وأخذ نشاطها يزداد حتى جعل من قلّد غير هذه المذاهب خارجاً عن الدين. فكان هناك نزاع واحتدام وتعصّب حتى بين معتنقيها، أدّى إلى معارك دامية، واتّهام البعض للبعض الآخر وتكفير قوم لآخرين، حتى قال قائل الحنفية: لو كان لي الأمر لأخذت الجزية من الشافعية(٥).

وأصبح كلٌ يحتكر الإيمان بالله والتصديق بنبيّه لأبناء مذهبه. وأنّ الجنّة وقف عليهم ولا نصيب لأحد فيها معهم، خلافاً لما جاء به النبي(صلى الله عليه وآله) وخروجاً على تعاليم الإسلام حتى قال أحد الحنابلة: إنّه من لم يكن حنبلياً فليس بمسلم.

وقد اندفع المتطرفون من معتنقي المذاهب الأربعة لبذل جهدهم في جعل رئيس مذهبهم هو المؤسس لعلوم الإسلام، والمرجع الأعلى للتشريع، وأنّ العلم مقصور عليه، والاجتهاد لا يليق إلاّ به. وقد استنفدوا كلّ امكانياتهم في تصويره بصورة لا

(٥) مرآة الزمان: القسم الأول ج٨ ص٤٤ .

تشبهها صورة فهو ملك بصورة البشر[٦]، وتمسّكوا بأقوال أئمّتهم تمسّكاً جعلهم يقدّمونها على كتاب الله وسنّة رسوله [٧] ، فكان يقال لهم: قال رسول الله فيقولون: قال فلان [٨] - أي رئيس المذهب - ويأنفون أن تنسب إلى أحد من العلماء فضيلة دون إمامهم[٩].

وعلى أيّ حال فإنّ تلك الاتجاهات التي سار عليها المتعصبّون للمذاهب، قد استولت على كثير من أتباعها، وقد يكون ذلك نتيجة للظروف التي مرّت بها الأمة الإسلامية، من تدخّل عناصر خارجة عن الإسلام، لتشويه سمعة المسلمين والإساءة إلى المجتمع، من بثّ روح الفرقة وإثارة الشغب، ومن المؤسف أن نجد البعض قدّمهم على الأنبياء عند تعارض كلامهم - أي أئمّة المذاهب ـ مع الحديث الصحيح، فإنّهم يردّون كلام النبيّ المعصوم - مع اعتقاد صحة سنده - لقول نقل عن إمامهم، ويتعلّلون باحتمالات ضعيفة[١٠].

كما وقد دفعهم التعصّب إلى أنّهم إذا وقفوا على آية محكمة، أو سُنّة قائمة، أو فريضة عادلة تخالف مذهبهم، صاروا يؤولونها على غير تأويلها، ويصرفونها عن ظاهرها إلى ما تقرّر عندهم من المذاهب والمشارب، وطفقوا يطعنون على من عمل بفحواها الظاهر ومبناها الباهر، كأنّ الدين - عندهم - هو ما جاء عن آبائهم وأسلافهم دون ما جاء عن الله في كتابه، أو عن رسوله صلى الله عليه وسلم[١١].

ومهما يكن من الأمر فإنّ تلك الاتجاهات كانت من تدخل عناصر دخيلة في الإسلام، بعيدة عن مبادئه، والاّ كيف يصحّ أن يَقدِم مسلم تشبعت فيه روح الإسلام إلى هذه الأمور المخالفة للحقّ، والتي يتبرأ منها الإسلام، كما أنّ أئمة المذاهب هم أنفسهم لا يعرفون ذلك في أنفسهم.

ولو استنطقنا تاريخ حياة أولئك الأئمة، لأجاب بالإنكار على ما يرتكبه المتعصّبون من مخالفة الواقع، وقد ألّفوا كتباً تختصّ بمناقبهم، وجمعوا فيها ما لا يقبله العقل، ولا يرتضيه الذوق، من أمور لا صلة لها بالواقع. كما قد تساهلوا في نقل كلّ ما سمعوا، وأثبتوا كلّ ما وجدوا، من دون التفات إلى المؤاخذات.

---

(٦) أبو حنيفة للسيد عفيفي المحامي ص٦ .
(٧) همم ذوي الأبصار ص٥١.
(٨) توالي التأسيس للحافظ ابن حجر ص٧٦.
(٩) الاعتصام للشاطبي ج٣ ص٢٥٩ .
(١٠) الوحدة الإسلامية للسيد رشيد رضا ص٤٥.
(١١) الدين الخالص للسيد محمد صديق حسن ج٣ ص٢٦٣ .

ويجب علينا ـ إن أردنا دراسة شخصية أحد من أئمة المذاهب، أو اعطاء صورة عنها ـ أن لا نقتصر على اقتفاء ما نقلته ألسنة المعجبين به. فإنّ العقل يشهد بوضع أكثرها، وعدم ارتباطها بالحقيقة، ولهذا كان البحث عن المذاهب أمراً شاقاً مجهداً، لما يكتنف الموضوع من غموض وتعقيد، ويحتاج إلى تأمّل واستفراغ واسع، لإعطاء النتيجة عند الوصول إلى الغرض المطلوب. وربّما يبدو للبعض سهولة البحث في الموضوع. ولكنّ الحقيقة غير هذا، بل هو موضوع شائك يحتاج الى جهد وعناء.

والخلاصة أنّ مشكلة التعصّب للمذاهب الأربعة هي أعظم مشكلة حلّت في المجتمع الإسلامي، أدّت إلى اختلاف في الآراء، وتشتّت في الأهواء، واضطراب حبل المودة، وتكدير صفو الأُخوّة. وكان من وراء ذلك خطر عظيم، وانحطاط فظيع، وقد تنبّه المسلمون لدفع ذلك الخطر، في اتخاذ الطرق الناجحة لإصلاح الوضع وجمع الكلمة، وقد تجاوبت أصوات المصلحين بالدعوة إلى الوحدة، ولكن ذهبت صرختهم في واد ونفختهم في رماد!! لأنّ المتعصّبين للمذاهب قد سيطرت عليهم عوامل العاطفة، فحالت بينهم وبين التفكير بسوء عاقبة ذلك الانقسام الذي أوجده المتعصبون، وقد مرّ المجتمع الإسلامي ـ على أثر ذلك ـ بفترات مائجة بالفتن والفوضى والحوادث الدامية، حتى تصدع كيان المجتمع الإسلامي، وطغى تيار التعصّب، واستفحل خطر الانقسام وتلبّدت سحب الفرقة في سماء المسلمين، والتقوا على صعيد الحقد والخصومة، وتحللوا من رابطة المودة والإخاء فكانت حوادث مؤسفة، من إراقة دماء، ونهب أموال، وحرق دور، وإعلان مسبّة البعض للبعض الآخر أو تكفير فرقة لأُخرى، وجعلوا الدين وسيلة للتغلب، وطريقاً لنجاح الخصومة فوضعوا أحاديث، واختلقوا أحاديث، واختلقوا مناقب ووضعوا بذلك كتباً مليئة بأوهام وخرافات تتعلق بنصرة المذاهب وإعلاء كلمته. وكان كبار الأُمة وصلحاؤها يقفون موقف المناوأة والمعارضة لهذه الأوضاع، ولكن السواد تغلبت عليه دعاية العناصر المتدخلة، بمعاونة السياسة العمياء.

وعلى تطاول الأيام وامتداد التاريخ لا نعدم من مشاهدة تلك الخلافات، ولا زال دعاة الفرقة، وأعوان الاستبداد يسايرون ركب الإسلام عبر التاريخ لتحقيق أهدافهم، ولكن جولة الباطل ساعة وجولة الحقّ إلى قيام الساعة.

الإمام الصادق (عليه السلام)
المدرسة والمذهب والشيعة

الإمام الصادق(عليه السلام) **المدرسة والمذهب والشيعة**

مدرسته وطابعها

كانت الفترة التي عاشها الإمام الصادق(عليه السلام)، فترة محنة تمرّ بها الأمة، فقد كان الحكم الأموي حكماً جائراً; إذ ابتعدت السلطة عن أحكام الإسلام، فكانت نهاية الحكم الأموي مثل بداية قيامه; إذ صبغت بالدم نهايته كما كانت بدايته.

وقامت دولة بني العباس، وهي تلبس لباس الدين، وترفع شعار الدعوة لمناصرة آل محمد (صلى الله عليه وآله)، والانتقام من أعدائهم، وهي تحاول أن تكسب ودّ المسلمين.

وبعد أن تكشفت سياسة بني العباس، وزال القناع عن وجه حكمهم، اعتبر الناس عهدهم امتداداً لحكم بني أمية الجائر.

فأصبح المسلمون في معترك عصيب.. تحرّكت في جوانحهم الثورة وتاقت نفوسهم لتحقيق الإصلاح، وكان البيت العلوي هو محطّ آمال الأمة، فساندهم رجال الدين، وانضوى بعض الفقهاء تحت رايتهم.

وفي ذلك المعترك الرهيب برزت شخصية الإمام الصادق (عليه السلام) وهو يحمل للأمة مبادئ الإسلام، وينشر تعاليمه، ويرفع صوت الإنكار على الظلم، ويدعو للإصلاح بكلّ جهد، وشارك الأمة في محنتها إذ امتزجت مشاعره بمشاعر الأفراد، وتوجّهت إليه الأنظار، وانضمّ إليه رجال الفكر ودعاة الإصلاح; لأنّه (عليه السلام)يعرف كيف يبدأ الدعوة، وكيف يداوي النفوس من الأمراض الاجتماعية، فكانت دعوته سلمية، تهدف لتنوير الرأي العام، والحضّ على التمسّك بأحكام القرآن، وقد توسّعت آفاق دعوته، كما انتشر دعاته من تلامذته في كلّ مكان، فأصبحت مدرسته منهلاً لرجال الأمة ومصدراً لعلوم الإسلام.

وكان طابع مدرسة الإمام الصادق (عليه السلام) الذي طبعت عليه، ومنهجها الذي اختصّت به ـ من بين المدارس الإسلامية ـ هو استقلالها الروحيّ، وعدم خضوعها لنظام السلطة، ولم تفسح المجال لولاة الأمر، بأن يتدخّلوا في شؤونها، أو تكون لهم يد في توجيهها وتطبيق نظامها، لذلك لم يتسنّ لذوي السلطة استخدامها في مصالحهم الخاصة، أو تتعاون معهم في شؤون الدولة. ومن المستحيل ذلك ـ وإن بذلوا جهدهم في تحقيقه ـ فهي لا تزال منذ نشأتها الأولى تحارب الظالمين، ولا تركن إليهم، كما لا

تربطها وإيّاهم روابط الألفة، ولم يحصل بينها وبينهم انسجام. وبهذا النهج الذي سارت عليه، والطابع الذي اختصّت به، أصبحت عرضة للخطر. فكان النزاع بينها وبين الدولة يشتدّ والعداء يتضخّم ، فلا الدولة تستطيع التنازل لمنهج المدرسة فتكسب ودّها وتسعد بمعاونتها، ولا المدرسة في إمكانها أن تتنازل لإرادة الدولة، فتؤازرها وتسير بخدمتها وتتعاون معها، وكيف يكون ذلك؟! وهي منذ نشأتها الأولى ترتبط بالثقلين: كتاب الله وعترة رسوله (صلى الله عليه وآله)، وهما متلازمان متكاتفان، لن يفترقا في أداء واجبهما لإرشاد الأمة وهدايتها. فالقرآن ينهى عن معاونة الظالمين والركون إليهم (**وَلاَتَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَالَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لاَتُنصَرُونَ**)[١٢].

مواقفه من ساسة عصره

ومن الواضح أنّ مبدأ العدالة ـ وهو من أعظم مبادئ الشريعة الإسلامية ـ أصبح في عهد أولئك الولاة لا يعمل به. فهم جبابرة ظلمة، لا يصلحون لمركز الولاية على المسلمين، وليس لهم كفاءة على التحلّي بصفات الخلافة، ولا قدرة لهم على تنفيذ أحكام الإسلام، فهم لا يصلحون للولاية ولا تجب طاعتهم بحال. وإنّ في مؤازرتهم والمعاونة معهم خروجاً عن أمر الله، ومخالفة لكتابه. وبذلك لا تكون ملازمة بين العترة وبين الكتاب إن داهنوا الظلمة أو ركنوا إليهم.

فسياسة أهل البيت(عليهم السلام)تقضي بحرمة معاونة الظالمين، وعدم الركون إليهم. ومنهجهم في توجيه الأمة لا يتعدّى حدود ما أمر الله به، فهم والقرآن يسيرون جنباً إلى جنب في أداء الرسالة ومهمّة التبليغ، وهم أئمّة للعدل وحماة للدين، ودعاة للصلاح. وقد برهنوا على أعمالهم بما كانوا يتحلّون به من مكارم الأخلاق، وجميل الصفات، وشدّة محافظتهم على نواميس الشرع. وقد اتّضح لنا من سيرتهم ما لا حاجة إلى إطالة البحث فيه.

وقد روى الحسن بن علي بن شعبة: أنّ سائلاً سأل الإمام الصادق(عليه السلام) عن وجوه المعاش فكان من جوابه(عليه السلام): «**وأمّا وجه الحرام من الولاية فولاية الجائر وولاية ولاته، فالعمل لهم والكسب معهم بجهة الولاية لهم محرم معذب فاعل ذلك على قليل من فعله أو كثير**».

---

(١٢) هود : ١١٣ .

وصحّ عن الإمام الصادق(عليه السلام) أنّه قال لأصحابه: «**ما أحبّ أن أعقد لهم** - أي الظلمة - **عقدة أو وكيت وكاء، ولا مدة بقلم. إنّ الظلمة وأعوان الظلمة يوم القيامة في سرادق من نار حتى يحكم الله بين العباد**»(١٣).

وكان ينهى عن المرافعة إلى حكامهم، ولا يرى لزوم ما يقضون به، لأنّ حكمهم غير نافذ، كما كان يشتدّ على العلماء الذين يسيرون في ركاب الدولة، ويأمر بالابتعاد عنهم حيث يقول: «**الفقهاء أمناء الرسل، فإذا رأيتم الفقهاء قد ركبوا إلى السلاطين فاتّهموهم**»(١٤).

وقد حاول المنصور أن يستميل الإمام الصادق (عليه السلام) في عدّة مرات، ولكنّها محاولة فاشلة فلم يزل يبتعد عنه، ويعلن غضبه عليه، ولا تأخذه في الحقّ لومة لائم. كما أعلن مقاطعته له فكتب المنصور إليه: لِمَ لا تغشانا كما تغشانا سائر الناس. فأجابه الإمام (عليه السلام): **ما عندنا من الدنيا ما نخافك عليه، ولا عندك من الآخرة ما نرجوك له، ولا أنت في نعمة فنهنيك عليها، ولا تعدها نقمة فنعزيك بها فلِمَ نغشاك؟!!**

فكتب إليه المنصور ثانية: تصحبنا لتنصحنا. فأجابه الإمام: **من أراد الدنيا فلا ينصحك ومن أراد الآخرة فلا يصحبك** (١٥).

وبهذا يتجلّى موقف الإمام الصادق (عليه السلام) من حكام عصره، وابتعاده عنهم، وهو النهج الذي أمر أتباعه أن ينهجوه، وقد أبدى ذلك في كثير من مواقفه وأعلن للأمة وجوب مقاطعة الظالمين وحرمة معاونتهم ليحدّ من نشاطهم في هضم حقوق الناس، واستيلائهم على مقدراتهم، واستبدادهم بالأمور وجورهم في الحكم.

وكانت محاولة المنصور لجذب شخصية الإمام إليه وطلب الاتصال به لغرض تضييق دائرة المقاطعة التي أعلنها الإمام الصادق (عليه السلام)، والتي سار عليها كثير من الناس.

وسيأتي مزيد بيان لمواقفه مع المنصور وإعلان غضبه عليه، وقد عرف المنصور بالشدّة والقسوة وعدم مبالاته في إراقة الدماء، وكان يقتل على الظنّة والتّهمة ويحاسب من يتّهمه بالإنكار عليه أشدّ المحاسبة، ولا يلين في شيء من ذلك، كما لا يتورّع في ارتكاب ما حرّمه الله تعالى.

---

(١٣) الكافي ج٥ ص١٠٧ ح ٧.
(١٤) حلية الاولياء، للحافظ أبي نعيم ج٣ ص١٩٤.
(١٥) بحار الأنوار ج٤٧ ص١٨٤ ح ٢٩.

والمنصور على ما فيه من الظلم وسوء المعاملة للرعية كان يتمنّى أن يكون في دولته مثل الحجاج بن يوسف، ذلك السفاح المستهتر، فكان يقول: والله لوددت أنّي وجدت مثل الحجاج بن يوسف، حتى استكفيه أمري وأنزله أحد الحرمين[١٦].

ومعنى ذلك أنّه كان يتمنّى أن يقضي على أهم مصدر للتشريع الإسلامي، فيضع السيف في حملة الحديث ورجال العلم،الذين يحتفّون بالإمام الصادق ويتفقهون عليه، ويملأ السجون من الصلحاء، ويصبغ وجه الأرض من دماء الأبرياء. وقد أشرنا إلى طرف من أعمال المنصور وسوء سيرته، وما كان يلقى الإمام الصادق منه في سبيل الدعوة إلى الله تعالى[١٧] .

الصراع بين المدرسة والدولة

وكانت مدرسة االإمام الصادق (عليه السلام) بعيدة عن التأثّر بآراء الحكام، الذين يفرضون إرادتهم على العلم والعلماء، ويحاولون أن تكون لهم السلطة الدينية الى جانب السلطة التنفيذية، ممّا يؤدي إلى الفوضى الكاملة في الحكم عندما يستغلون الدّين، ويتخذون من رجاله وسيلة لاشتغال الناس عن مؤاخذتهم، ويدينون لهم بالطاعة الكاملة ويحلّ الإيمان بتقديسهم محلّ الإيمان بالله!!

أمّا مدرسة الإمام الصادق (عليه السلام) فإنّ الصراع بينها وبين الدولة كان على أشدّه، والعداء بالغاً نهايته، الأمر الذي جعل المدرسة عرضة للخطر، ولكنّها رغم ذلك صمدت لتلك الهجمات التي توجّهها الدولة لتمحوها من صفحة الوجود. وقد تحمّلت بطش الجبارين، وعسف الظالمين، فأدّت رسالتها على أكمل وجه. وكان منها النتاج الصالح، الذي يفيض على الأمة خيراً وبركة، ويطفح بالعلم والحكمة والعرفان، وخرّجت عدداً وافراً من رجال العلم، وحملة الحديث. ولم تكن كلّ تلك المعارضات من قبل ولاة الجور لتعوقها عن مواصلة كفاحهافي الدعوة الى الحقّ، والخير والعدل والمساواة والأخوّة الإسلامية العامّة، والمدنية الصحيحة والحضارة الراقية، ومحاربة أهل الأهواء، والبدع والضّلالات، ويتّضح ذلك من تعاليم العترة الطاهرة - زعماء هذه المدرسة - وسيرتهم العادلة وشدّة اهتمامهم بتوجيه الأمة نحو دينهم الذي يتكفل لهم بالسعادة، ويدعوهم إلى الاهداف الكريمة، والغايات السامية، والأغراض الشريفة، والمُثل العليا، بتطبيق نظامه على جميع الطبقات.

---

(١٦) تاريخ الطبري ج٩ ص٢٩٨.

(١٧) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ج ٢ ص١٨٢.

نواة المدرسة وتاريخ نشأتها

إنّ تاريخ نشأة مدرسة الإمام الصادق (عليه السلام)، هو أسبق من جميع المدارس الإسلامية، إذ لم يكن الإمام الصادق (عليه السلام) هو الواضع لحجرها الأساسي، والغارس لبذرتها الاولى، بل كان الواضع لحجرها والغارس لبذرتها هو الرسول الأعظم(صلى الله عليه وآله). فقد وضع منهاجها ونظامها، وحثّ الناس على الانتهاء إليها، إذ قرن العترة بكتاب الله العزيز بقوله (صلى الله عليه وآله) : «**إني مخلف فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً.**» الحديث[١٨] كما صرّح في كثير من تعاليمه بلزوم اتّباع أهل بيته والأخذ عنهم وأنّهم كسفينة نوح من ركبها نجا، ومن تخلّف عنها غرق[١٩]، كما أشار النبيّ الأعظم (صلى الله عليه وآله) إلى لزوم اتّباعهم في كثير من أحاديثه.

فالمدرسة كانت نشأتها في عهد صاحب الرسالة (صلى الله عليه وآله)، وكان رئيسها الأول هو الإمام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وهو أقضى الأمة وأعلمهم، وهو نفس محمد (صلى الله عليه وآله)، وكان ملازماً له في جميع أوقاته، يأخذ عنه العلم، ويتلقّى التشريع العملي، فهو صاحبه في سفره وحضره، وحربه وسلمه يقيم أنّى أقام، ويرحل أنّى ارتحل. ورسول الله (صلى الله عليه وآله) هو معلم عليّ ومتولّي تربيته ونشأته، فكان(عليه السلام)باب علم مدينة الرسول وأمينه على سره[٢٠].

فكان له من الكفاءة والاستعداد ما جعله مرجعاً لأحكام الأمة، وإماماً هادياً. وقد عوّل النبيّ عليه في جيمع شؤونه لاتصافه بصفات الإمامة، وانكار ذلك مكابرة ومغالطة، ولا حاجة بنا إلى اطالة البحث ورحم الله المتنبي إذ قال:

وتركت مدحيَ للوصيّ تعمّداً *** إذ كان نوراً مستطيلاً كاملا

وإذا استطال الشيء قام بنفسه *** وصفات ضوءالشمس تذهب باطلا[٢١]

ولمّا انتقل علي (عليه السلام) الى جوار ربّه تزعّم الحركة العلمية وترأس المدرسة الإمام الحسن (عليه السلام)، سبط الرسول (صلى الله عليه وآله)وريحانته، فكان (عليه السلام) محطّاً لآمال الأمة، ومرجعاً لأحكامها. ولكنّ الظروف القاسية والحوادث المتتابعة

---

(١٨) إنّ هذا الحديث الشريف لجدير ببسط القول في ما جمعه من مقاصد جليلة، وأمور يجب على كلّ مسلم أن يتدبّرها، وقد ألّف علماؤنا في بيان مقاصده رسائل عديدة.

(١٩) فضائل الصحابة ج٢ ص٧٨٥ ح ١٤٠٢ .

(٢٠) ذخائر العقبى ص٨٧.

(٢١) ديوان المتنبي: ١٩١.

في عهد معاوية لم تسمح للمدرسة أن تتقدّم على الوجه المطلوب، وسارت بخطى ثقيلة، لأنّها قابلت جور معاوية بكلّ ما لديها من قوّة في اعلان الغضب عليه، وقد قابلها بسياسة لا تعرف الرحمة، وشدّة لا تعرف الهوادة، حتى أُريقت دماء بعض المنتمين إليها، وهُدّمت دورهم. كلّ ذلك في سبيل الدعوة الى الاصلاح.

وجاء دور الحسين بن علي (عليه السلام) وهو أعظم الأدوار وأهمّها. ومعاوية قد عظمت شوكته وامتدّ سلطانه، وكثر بطشه وفتكه، وتلاعب بالأحكام وحرّف الكلم عن مواضعه، وأخذ يتتبع رجال الفكر وخيار الأمة، ويقتلهم تحت كلّ حجر ومدر. ومهّد الأمر لابنه يزيد - وهو الفاسق الذي لا يختلف اثنان على حقّ في إجرامه وكفره - فأصبح خليفة للمسلمين، وإماماً يتربّع على عرش الخلافة الإسلامية، وهو الفاسق المستهتر الذي أباح الخمر والزّنا، وحطّ بكرامة الخلافة إلى مجالسة الغانيات، وعقد حلقات الشرب في مجلس الحكم، وألبس الكلاب والقرود جلاجل من ذهب، ومئات من المسلمين صرعى الجوع والحرمان [٢٢].

وأصبحت الأمة الإسلامية في حالة سيئة، لم يسهّل احتمالها على نفوسهم. فعمّ التأثر جميع البلاد، حتى لم يجد الحسين (عليه السلام) طريقاً للسكوت. فنهض منتصراً للحقّ، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، حتى أُريق في ذلك دمه، واستبيح حرمه، فكانت نهضته صرخة داوية تردّدها الأجيال من بعده، وتلقي عليهم دروس التضحية والتفاني في سبيل انقاذ الأمة من براثن الظّلمة، وكانت منهجاً لثورات اصلاحية مرّت عليها الأجيال من بعده، اقتداءً به، وعملاً بدروسه القيّمة. فسلام عليه يوم وُلِد وَيوم استُشهد ويوم يُبعث حيّاً[٢٣].

ومن بعده انتقلت رئاسة المدرسة لولده زين العابدين الإمام عليّ بن الحسين (عليه السلام)، وهو أورع أهل زمانه وأتقاهم، وأعلم الأمة. وقد اشتدّت الرقابة عليه من قبل الأمويين بصورة لا مجال لأحد أن يتظاهر بالانتماء لتلك المدرسة، إلاّ من طريق المخاطرة والمغامرة. ومع هذه الشدّة وتلك الرقابة فقد كان سيرها محسوساً وكفاحها متواصلاً وخرّجت عدداً وافراً من علماء الأمة، الذين أصبحوا مرجعاً للأحكام ومصدراً للأحاديث.

---

(٢٢) الثائر الأول في الإسلام لمحمد عبد الباقي ص٧٩.

(٢٣) من وحي ذكرى الطف ومواسم إحياء الثورة الحسينية كتبنا «مع الحسين في نهضته» الذي هيأناه بإضافات وتنقيحات لطبعته الثانية إن شاء الله.

وعلى عهد الإمام زين العابدين وتحت وطأة السياسة الوحشية والجور الأموي بدأت مرحلة جديدة، إذ كان الإمام علي بن الحسين أمام أمرين: إمّا أن يبقي نفسه لمواصلة الرسالة والاضطلاع بأعباء الولاية الشرعية، وإمّا أن ينجرّ لما تعمل من أجله أمية للقضاء على آل محمد وقتله بعد إذ نجّاه الله بآية باهرة وحكمة بالغة ، والله أعلم حيث يجعل رسالته.

وهكذا كان عهد ولده الإمام الباقر (عليه السلام)من بعده في أول الأمر، ولكن ما أن دبّ الضعف في جسم الدولة الأموية، حتى بعث النشاط في مدرسة أهل البيت (عليهم السلام)، فقام الإمام الباقر (عليه السلام) بواجبه، ونشر معالم الإسلام وأحيا مآثر السنّة، فكانت حلقة درسه في مسجد النبي (صلى الله عليه وآله)ومسجد مكة «ابن ماحل» هي أعظم حلقات الدروس. ولمّا جاء عصر الإمام الصادق (عليه السلام) وكان أزهر العصور، اتّسع فيه نطاق الحركة العلمية ونشأت المدارس الإسلامية، وكان في كلّ بلد عالم يرجع إليه، وكانت مدرسة الإمام الصادق (عليه السلام) في المدينة جامعة إسلامية كبرى، تشدّ إليها الرحال، وترسل إليها البعثات من سائر الاقطار الإسلامية لانتهال العلم، إذ وجدوا عنده ضالّتهم المنشودة وغايتهم المطلوبة، ولم يذكر التاريخ لنا أنّه سئل عن شيء فاجاب: بلا أدري، أو أنّ مناظراً قطعه، بل كان هو المتفوّق في كلّ علم، والمحلّق في كلّ مناظرة، واشتهر عنه أنّه كان يقول: **سلوني قبل أن تفقدوني فإنّه لا يحدّثكم أحد بمثل حديثي**[٢٤].

وكيف لا يكون كذلك؟ وهو وارث علم جدّه أمير المؤمنين (عليه السلام) الذي اشتهر عنه هذا القول، ولم يستطع أحد أن يقول ذلك إلا أُفحم، وعليّ هو باب مدينة علم الرسول لقوله (صلى الله عليه وآله): **أنا مدينة العلم وعلي بابها**[٢٥].

فالإمام الصادق يروي عن أبيه الباقر، عن أبيه زين العابدين، عن الحسين بن علي، عن علي بن أبي طالب(عليهم السلام). وهذا الإسناد هو المعروف بالسلسلة الذهبية. وهو أصحّ الاسانيد وأقواها[٢٦].

صمود مذهبه أمام الحكّام

---

(٢٤) تذكرة الحفاظ ج٢ ص١٥٧.
(٢٥) ذخائر العقبى ص٨٧ .
(٢٦) معرفة علوم الحديث، للحاكم النيسابوري ص٥٥.

ومهما يكن من أمر، فإنّ ما يبدو لنا بوضوح: أنَّ ذلك الانفصال وعدم التأثر بآراء الحكّام هو الذي أوجد تلك المرونة في المذهب الجعفري، لأنّه يستقي من ينبوع لم يكدر صفوه التعليم الاستعماري بما فرضه على العلم والعلماء، ولمّا كان غلق باب الاجتهاد هو من مقترحات الدولة وتشريع السياسة، فلم يلتزم المذهب الجعفري به، ولم يخضع لذلك النظام الجائر الذي يفضي مؤدّاه الى الجمود الفكري وتحجير العقل، ورد نعمة أنعم الله بها على هذه الأمة(٢٧).

ومن الواضح أنّ عدم الالتزام بما تفرضه الدولة، هو خروج عن الطاعة، وعمل يستوجب العقاب والمقاومة. وقد عُرف معتنقو مذهب أهل البيت(عليهم السلام)بأنّهم لا يرون لزوم طاعة أولئك الحكّام الذين تربّعوا على عرش الخلافة بدون حقّ، فلم يؤازروهم، ولم يتعاونوا معهم اقتداءً بأئمّتهم واتّباعاً لأوامر الرسول(صلى الله عليه وآله)، في مقاطعة الظلمة، وحرمة المعاونة لهم، لأن ليس في نظام الملوك الذي أوجده الأمويون والعباسيون قواعد الخلافة ومبادئ الحكم الإسلامي إلاّ ما اقتضته مصالحهم الشخصية، وهو نظام زمني يقوم على المظاهر والأشخاص، وليس نظاماً دينياً يقوم على الإيمان والعقيدة.

كانت الطبقة الحاكمة تعدّ من لا يؤازرها ويتعاون معها خصماً يجب القضاء عليه، لأنّ عدم التعاون مع الدولة هو عدم الاعتراف بأهليّتها للحكم، وانتقاد لسياستها وسيرة رجالها.

لذلك اتّجهت قوة الدولة لمعارضة مذهب أهل البيت(عليهم السلام)واتّهام منتحليه بسوء العقيدة، والخروج عن الإسلام، فسلكوا في تحقيق ذلك تلك الطرق الخداعة، وأسندوا الى الشيعة ما ليس من عقائدهم، وأوعزوا الى الوعّاظ في المساجد، والقصاص في الطرقات، وإلى العلماء المرتزقة الذين يطلبون ودّ السلطان طلباً لمنفعة، واستدراراً لنعمة، وحيازة لصلة الملوك ليقوموا بكلّ ما يأمرونهم من مخالفة الحقّ، باتهام الشيعة بانّهم يكفّرون جميع الصحابة ـ والعياذ بالله ـ وأنّهم لا يعملون بالقرآن.. وألزموهم بأن يذكروا ذلك محفوفاً بشواهد يتقبلها السدّج وعوام الناس، حتى تمكنت في نفوسهم، ولهجت بها ألسنتهم، كأنّها حقيقة لا تقبل أيّ جدل ونقاش، وبدون تفكير وتدبّر انتشرت في ذلك المجتمع السائر في ركاب الدولة فكرة بغض الشيعة، وأنّى لذلك

(٢٧) سيأتي الكلام حول الاجتهاد والتقليد، وقد تقدم في الجزء الأول نقل آراء بعض العلماء ورؤساء المذاهب في لزوم فتح باب الاجتهاد.

المجتمع بأن يظفر بالتفكير الحرّ وتحكيم العقل، وقد فرضت السلطة عليهم تلك الافتعالات بقوّة قاهرة، لا يستطيعون لها دفعاً ولا يجدون عن الاذعان لها سبيلاً، والناس مع القوّة عند ضعف الإيمان، ولكنّ الحقّ لابدّ أن يظهر مهما طال الزمن وادلهمّت الخطوب.

وعلى أيّ حال فليس من العسير أن يقف المتتبّع على بواعث تلك الافتعالات التي أوجدتها عوامل السياسة، وقوّة الارهاب، وسلطة الاستبداد، التي شوّهت الحقيقة، وغيّرت مجرى الواقع، وأنّ الوقوف أمام ذلك التيار أمر لا يتحمّله إلا رجال الفكر وحاملو ثقل العقيدة الإسلامية.

وصفوة القول أنّ المذهب الجعفري قد انتشر على وجه البسيطة، ولم تقف أمامه تلك المحاولات التي بذلها رجال السلطة وأعوانهم في محوه والوقوف أمام انتشاره، ولم تقض عليه كما قضت على بقيّة المذاهب التي لايروقها انتشارها، كما لم تقف أمامه تلك المجازر والفظائع السود التي يقوم بها خصومه.

وقد أشرنا فيما سبق من أجزاء الكتاب الى عوامل إنشاء المذاهب واختيار رؤسائها، ولذا لزم أن ننبّه هنا الى أنّ تسمية «المذهب الجعفري» لم تكن على منوال التسميات الأخرى التي تتعلّق بإرادة السلطان، وإنّما كانت هذه التسمية نتيجة لنشاط مدرسة الإمام الصادق وصورة لرعايته لطلاّبه ومنتسبي مدرسته. فكما أشرنا سابقاً أنّه(عليه السلام) كان يتحرّى قابلياتهم ويتولى توجيههم ورعايتهم وحثّهم على العمل والعلم فيسمعهم أرق عبارات الود وأعذب ألفاظ الاحترام، وكان يسمّيهم «أصحاب جعفر بن محمد» ويسعى الى ذيوع تميّزهم في الفقه واستقلال أقوالهم، وكان(عليه السلام) يصرّح بسروره إذا اشتهر أصحابه بالورع وحسن الخلق، وأن يوصف واحدهم بـ (الجعفري) وسنأتي على تفصيل ذلك.

وما دمنا بصدد البحث عن مدرسة الإمام الصادق (عليه السلام) ، فلابدّ لنا من التنبيه على أُمور ثلاثة :

التنبيه الأول: التابعون والإمام الصادق (عليه السلام)

قد يبدو للبعض أنّ الإمام الصادق (عليه السلام) حضر عند أحد من التابعين، أو روى عنه، ومنشأ هذا أنّ بعض من ترجم للإمام الصادق (عليه السلام) ذكر أنّه روى عن نافع وعطاء وعروة بن الزبير والزهري[٢٨].

وهذا القول لايثبته التتبّع، وهو بعيد عن الصواب، بل هي كلمات يلوكها من يرسل القول على عواهنه، ويعطي الآراء جزافاً، وينقل الأقوال بدون تثبّت وتمحيص، فإنّنا لم نجد في حديثه أنّه اسند عن أيّ واحد من الناس سوى آبائه الطاهرين(عليهم السلام) ،فإذا أراد أن يسند، فسلسلة حديثه هكذا: حدثني أبي الباقر، قال: حدثني أبي زين العابدين، قال: حدثني أبي الحسين، قال: حدثني أبي علي بن أبي طالب، قال: حدّثني رسول الله (صلى الله عليه وآله). وهو أصحّ الأسانيد عند علماء الحديث كما تقدّم، وهو الترياق المجرّب كما سمّاه بعض العلماء. وربما أرسل حديثه بدون اسناد، ولكنّه أعطى قاعدة مشهورة بقوله: حديثي حديث أبي وحديث أبي حديث جدي وحديث جدي حديث أبيه وحديث أبيه حديث علي بن أبي طالب وحديث علي حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله) [٢٩] .

كما أنّنا بعد البحث والتتبع لم نجد في كتب الرجال من يذكره في عداد من حضر على هؤلاء، نعم إلاّ الخزرجي ذكره في من أخذ عن عطاء، وهو كما قلنا بعيد عن الصواب، على أنّ بعض هؤلاء قد كان يحضر عند الإمام الباقر كمحمد ابن المنكدر، والزهري، فلا يتصوّر أن الصادق (عليه السلام) كان يحضر على أحد في عهد أبيه الباقر (عليه السلام)، إذ لم يكن هناك نقص فيحاول اكماله على أيدي هؤلاء، وبعد وفاة أبيه، فقد استقلّ بالفتوى وتزعّم المدرسة، وانتشر ذكره، وأصبح هو المتفرّد بالزعامة.

وأما قولهم: أنّه حضر عند عروة بن الزبير المتوفى سنة (٩٢ هـ) وسمع منه، فهذا من الغرابة بمكان، لأنّ عروة لا تخفى حاله على الإمام الصادق (عليه السلام) وما كان يتصف به من الشذوذ، وعدم الاستقامة بتقرّبه الى الأمويين، وهو من الوضّاع الذين اتّخذهم معاوية أعواناً يستعين بهم على مهمّاته في وضع الأحاديث الكاذبة، والذين أطلقنا عليهم أعضاء (لجان الوضع).

---

(٢٨) تهذيب الكمال ج٥ ص٧٤ ح٩٥٠ .
(٢٩) الكافي ج١ ص٥٣ ح ١٤.

قال أبو جعفر الإسكافي المعتزلي: إنّ معاوية وضع قوماً من الصحابة وقوماً من التابعين، على رواية أخبار قبيحة في علي (عليه السلام) تقتضي الطعن فيه والبراءة منه، وجعل لهم على ذلك جعلاً يرغب في مثله، فاختلقوا ما أرضاه. منهم أبو هريرة، وعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة ومن التابعين عروة بن الزبير[٣٠].

فمن كانت هذه حاله كيف يصحّ أن ينسب الى الصادق (عليه السلام) الرواية عنه؟ وكذا الزهري فقد كان من اعوان الأمويين والمتصلين بخدمتهم والمؤازرين لهم، وكان قطب رحى أداروا به مظالمهم، وجسراً يعبرون عليه الى بلاياهم، وسلّماً الى ضلالهم، داعياً إلى غيّهم، سالكاً سبيلهم، يدخلون الشك به على العلماء، ويقتادون به قلوب الجهال. كما جاء في رسالة الإمام زين العابدين (عليه السلام)إليه يرشده بها لطريق الحق والصواب[٣١]. وقد انقطعت صلته بالإمام زين العابدين(عليه السلام) بعد أن نهل من علمه وتعلم منه حتى جرّه الأمويون الى قصورهم وأغروه بخدمتهم وتنفيذ أغراضهم.

ومن كانت هذه صفته، فهو مسلوب العدالة، ولا يوثق بحديثه، فكيف يكون مصدراً لحديث أهل البيت؟ ولعلّ الذي أوقع صاحب هذا القول - وهو رواية الصادق (عليه السلام) عن الزهري - إنّه اشتبه عندما رأى في عداد تلامذة الزهري رجلاً يسمّى بجعفر، فتوهّم انّه الصادق كما سبق مثل هذا الاشتباه لكثير من المؤرخين، اذ نسبوا الشهرة بالزجر، والفال، والتنجيم، لجعفر بن محمد الصادق. ولم يفرّقوا بينه وبين جعفر بن محمد الفلكي، المعروف بأبي معشر البلخي، فإنّه كان مشهوراً في الزجر، والفال، والتنجيم، وكان عصره مقارباً لعصر الإمام الصادق، ونقل الناس أخباره في ذلك، ولا يستبعد أنّ أعداء جعفر ابن محمد اشاعوا ذلك، للحطّ من كرامته وبخس حقّه من العلم، والنيل من مكانته الرفعية، وقد ردد هذا القول كثير من الكتّاب بدون وقوف على حقيقة الأمر.

---

(٣٠) شرح النهج ج١ ص١٥٨.
(٣١) بحار الأنوار ج٤٦ ص١٣٢ ح٢٢ .

قال ابن كثير: إنّ الذي نسب الى جعفر بن محمد الصادق من علم الزجر، والطرف، واختلاج الأعضاء، إنما هو منسوب إلى جعفر بن محمد أبي معشر الفلكي، وليس بالصادق، وإنّما يغلطون[٣٢].

قلت بل أكثرهم كان يتعمّد ذلك، ولا شيء هناك إلاّ عوامل السياسة، ولا أذهب بك بعيداً في الاستدلال على ذلك، أو ارجع بك الى تلك العصور التي سيطرت عوامل السياسة على عقول أبنائها، فأعمتها عن الحقّ، وأبعدتها عن الصواب، ولكني اسلك بك اقرب الطرق في أقرب العصور - عصر النور أو القرن العشرين - هذا الدكتور أحمد أمين يقع في هذا الغلط، أو يتغافل عن الحقيقة! يقول في فجر الإسلام: في هذا العصر كان العلم - ولا سيّما الديني - يدرّس في المساجد، يجلس الأستاذ في المسجد، وحوله الآخذون عنه، على شكل حلقة، وتكبر الحلقة وتصغر تبعاً لقدر الأستاذ. الى أن يقول: وكذلك كان يفعل جعفر الصادق في المدينة - أي انّه يجلس ويجلس الآخذون حوله حلقة - قالوا: وكان يشتغل بالكيمياء والزجر والفال[٣٣].

ولا يخفى على القارئ اللبيب سرعة انتقال الأستاذ أحمد أمين لنقل ذلك القول وإيراد ذلك الغلط، وما يقصده في ذلك، كما لا تخفى نزعته العدائية للشيعة; فلا يروقه أن يذكر حلقة درس رئيس مذهبهم في المسجد، واعطاء ما يلزم لها من النقل التاريخي، إن كان مؤرّخاً منصفاً، ولكنّه يثقل عليه ذلك.

وخلاصة القول: أنّ الإمام الصادق (عليه السلام) لم يرو عن أحد من التابعين، ولم يحضر حلقة درس أيّ واحد منهم، أمّا في حياة أبيه، فقد كان في غنىً عن ذلك، وأما من بعده فإنّه أصبح المبرّز في كلّ فنّ، والمرجع الاعلى في الأحكام، وكانت حلقة درسه تضمّ رجال العلم من رؤساء المذاهب وغيرهم، كسفيان الثوري، وشعبة بن الحجاج، وسفيان بن عيينة، ومالك بن أنس، وأبي حنيفة، ويحيى بن سعيد القطان، وأيوب السجستاني، وعبد الملك بن جريح وغيرهم. فليس من المعقول أن يكون - رئيس مدرسة تضمّ امثال هؤلاء - يحضر درس من هو أقل درجة منه، بل أقلّ درجة من كثير من تلامذته. وأنّ أمثال هذه الأقوال إنما تقال لمجرد المبالغة في التقدير

---

(٣٢) البداية والنهاية ج١١ ص٥١ .
(٣٣) فجر الإسلام ص١٦٥.

والتوثيق في حقّ من يريدون رفع مقامه، وليس بمستطاع لأيّ أحد أن يأتينا برواية للإمام الصادق (عليه السلام) في سندها أحد أولئك القوم.

التنبيه الثاني: تلامذة الإمام ومركزية الكوفة

إذا أردنا ان نرسل نظرة احصاء لتلامذة الإمام الصادق (عليه السلام) من حيث البلدان النائية التي ينتسبون إليها فسنجد الكوفيين أكثرهم عدداً، وعلى وجه التقريب، يكون عددهم قد يتجاوز الألف. وعكسها الشام فإنّ عدد تلامذته المنتسبين اليها لا يتجاوز العشرة، وأسباب ذلك ربما تعود للنزعة التي يتصف بها كلّ من البلدين. فالكوفة كانت تناصر أهل البيت(عليهم السلام)وتتشيع لهم، والشام على عكس ذلك. وبهذا أصبحت الكوفة محلّ اهتمام الخلفاء الذين يجعلون من أهل البيت(عليهم السلام)خصوماً ويعتقدون بأن لا يستقر أمر الخلافة ما لم يتخذوا لها التدابير للقضاء على نشاطهم العلمي والسياسي. لذلك نجد الدولة الأموية تهتم بأمر الكوفة وتحاول اخضاعها بالقوة عندما تعيّن ولاة لا رحمة في قلوبهم، ولا وازع دين يردعهم عن الفتك وإراقة الدماء كالحجاج، وزياد، وعبيد الله بن زياد، وخالد القسري. وكذا العباسيون اتخذوها مركزاً للخلافة، لتكون تحت مراقبة الخليفة مباشرة.. هذا من جهة.

ومن جهة أُخرى: إنّ الكوفة كانت مركزاً تجارياً وصناعياً ملحوظاً في حياة المجتمع الإسلامي في القرن الأول الهجري، وازدهرت فيها صناعة المنسوجات الحريرية، وهي ما سمّوها عمل الوشي والخز. وكانت هذه المصنوعات تلقى رواجاً في الأقطار الإسلامية[٣٤] ، وكانت محاطة بقرى كثيرة وفيها من غير المسلمين عدد كبير، كالنصرانية في الحيرة وغيرها، ووفد عليها أربعة آلاف من رعايا الفرس عُرفوا بحمراء الديلم[٣٥].

وقد كثرت الهجرة الى الكوفة من ذوي العقائد المتباينة، واختلطوا بمجتمع الكوفة، وكان أكثر هؤلاء يترقبون الفرص للفتك بالمسلمين، انتصاراً لدياناتهم التي قضى عليها الإسلام.

ثم زخرت الكوفة بالموالي، فكان لهم أثر محسوس في تطور الحياة الاجتماعية؛ وبهذا أصبحت الكوفة تموج بعناصر مختلفة، لاتتّحد في الرأي، ولاتتّفق في الاتّجاه، وهذا الاختلاط يوجد اضطراباً، وعدم الاستقامة في الأمور، وكان له أثر واضح في اخلاق أهل الكوفة، قد لحظه حذيفة بن اليمان من قبل فبيّنه في خطاب له قائلاً: «يا

---

(٣٤) الأغاني ج٢ ص١٧٣.

(٣٥) فتوح البلدان للبلاذري ص٢٨٩ .

معشر أهل الكوفة، إنّكم، أول ما مررتم بنا كنتم خيار الناس، فغيّرتم بذلك زمان عمر وعثمان، ثم تغيّرتم وفشت فيكم خلال أربع: بخل، وخبّ [٣٦]، وغدر، وضيق، لم تكن فيكم واحدة منهن، فنظرت في ذلك فإذا ذلك في مولديكم، فعلمت من أين يأتي، فإذا الخبّ من قبل النمط، والبخل من قبل فارس، والغدر من قبل خراسان، والضيق من قبل الأهواز»[٣٧].

وحين اتّسع نطاق الحركة العلمية كانت الكوفة مركزاً هاماً لمختلف العلوم، وقد ظهر علم الكلام، وكثر الجدل حول العقائد، وأهمّها البحث عن الأمانة. وقد ازداد نشاط ذوي العقائد الفاسدة، والآراء الشاذة، فأظهروها على سبيل النقاش العلمي، فكانت تلك الآراء تأخذ مفعولها في المجتمع، ويتناقلها الناس ومصدرها الكوفة، وهي شيعية فتنسب تلك المقالة الى الشيعة. وكانت السياسة تؤيد ذلك بغضاً للشيعة ووسيلة للقضاء عليهم، وقد اتّبع المؤرخون للفرق تلك الخطّة، فنسبوا للشيعة فرقاً كثيرة من ذوي المقالات الفاسدة بدون انصاف أو تعقّل، وما ساقهم الى ذلك إلاّ الجهل بعقائد الشيعة، أو البغض لهم اتباعاً لأسيادهم ومجاراة للظروف.

ولا أطيل الحديث - والحديث ذو شجون - حول تلك الدعاية الكاذبة في نشر الآراء الشاذة، والعقائد الفاسدة، التي يبثّها أعداء الإسلام ليتقبّلها ضعفاء النفوس، والمصابون في تفكيرهم، فينسبوها للشيعة ولا ربط لها بعقائد الشيعة، إلاّ أنّ الكوفة كانت مصدراً لها والكوفة شيعية، وقد تعمّد أولئك النفر أن يعلنوا سبّ الصحابة ليكون ذلك طريقاً لمؤاخذة شيعة آل محمد (صلى الله عليه وآله)، الذين تأدبوا بآدابهم واتّبعوا أوامرهم، كما أنّ موجة الغلو قد ظهرت في الكوفة دون غيرها من البلدان، وكان القصد من ذلك ما قلناه وهو: أنّ أعداء آل محمد(صلى الله عليه وآله)أرادوا الوقيعة في أتباعهم فأشاعوا الغلوّ في بلد يعرف أهله بالتشيّع لهم والانتساب إليهم.

وقد عالج أهل البيت(عليهم السلام)تلك المشكلة الخطيرة. وعرفوا تلك الدوافع التي دعت هؤلاء إلى الالتحاق بصفوف الشيعة، واتّضحت لهم غايات خصومهم، الذين يريدون أن يوقعوا بهم المكروه، فأعلنوا البراءة منهم، وجاهروا في لعنهم، وأمروا شيعتهم بالابتعاد عنهم، واليك بعض النصوص في ذلك :

روى هشام بن الحكم: أنّه سمع أبا عبد الله الصادق (عليه السلام) يقول: **كان المغيرة يتعمّد الكذب على أبي، ويأخذ كتب أصحابه ويدسّ فيها الكفر والزندقة، ويسندها إلى أبي ثم يدفعها إلى**

---

(٣٦) الخب بفتح الخاء المعجمة: الغدر والخداع والغش.

(٣٧) حركات الشيعة المتطرفين نقلا عن ابن مسكويه تجارب الأمم ص٤٣٥ ط ليدن .

أصحابه، ويأمرهم أن يبثّوها في الشيعة، فكل ما كان في كتب أبي من الغلوّ فذلك مما دسّه المغيرة بن سعيد في كتبهم[٣٨].

يظهر لنا أن حركة المغيرة كانت حركة يهودية ضد الإسلام، كما أشار الإمام الصادق (عليه السلام) في قوله :

«لعن الله المغيرة بن سعيد، ولعن الله يهودية كان يختلف إليها يتعلّم منها السحر والشعبذة، إن المغيرة كذب على أبي» الخ [٣٩].

التنبيه الثالث : مدرسة الإمام ومعنى التشيع

إنّنا إذ نُعبر عن المدرسة، فإنّما المقصود بذلك هو تعاليم المذهب وانتشاره، لأنّ مذهب أهل البيت(عليهم السلام)ينسب للإمام جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام) لمّا اشتهر به من العلم وكثرة التعاليم في تلك الفترة، وهي بين شيخوخة الدولة الأموية وطفولة الدولة العباسية، وإلاّ فمذهب الشيعة هو مذهب أهل البيت (عليهم السلام) ، وعنهم يأخذون الأحكام، لأنّهم أصدق الناس في الحديث، وأشدّهم محافظة على أداء رسالة التبليغ، واتّباعاً لأمر النبي (صلى الله عليه وآله)، إذ قرنهم بالكتاب العزيز الدال بكلّ صراحة على وجوب اتباع أهل البيت والتمسك بهم، فإنّه نجاة من الضلالة. وهذا هو التشيّع بمعناه الجلي، ولهذا أخذنا عنوان الكتاب لأن ظروف نشأة المذاهب لا تشمل المذهب الشيعي ولم يخضع لأي طرف منها، كيف وهو في جذوره يمتد الى زمن الرسالة، ولم يكن في وجوده أثر لمصلحة إلاّ مصلحة الدين أو سبب إلاّ سبب العقيدة وبرز اسم الإمام الصادق في تلك المرحلة التي ظهرت فيها دوافع إيجاد المذاهب، فكان أولى أن يطلق اسمه على المذهب تمييزاً لا مساواة وبدواعي تلك الفترة وبإشارة من الإمام(عليه السلام) الذي كان يوجه أصحابه ويعيّن مهامهم الدينية والاجتماعية، وما ينبغي لهم القيام به في ظلّ تلك المرحلة التي ماجت بالأفكار المختلفة والأصول والمنابع وجعل الإمام لكلّ واحد من أصحابه دوراً مخصوصاً في تلك المرحلة. وراح يعدّهم لتحمل المسؤوليات الدينية بأعلى درجة من التفقه والتقوى . فكان الإمام الصادق ينظر الى أن يُقال في أصحابه «رحم الله جعفر بن محمد ما أحسن ما أدّب به أصحابه» وهذا هو التشيع في إحدى مراحله المهمة وعلى أيّ حال فإنّ محور التشيّع وركيزته الأساس اطاعة صاحب الرسالة والتمسك بأهل بيته والاقتداء بتعاليمهم وموالاتهم. ونصّ أهل اللغة بمعناه.

يقول الحافظ الأزهري: الشيعة قوم يهوون هوى عترة النبي ويوالونهم[٤٠].

---

(٣٨) رجال الكشي ص٢٢٤ ح ٤٠١.
(٣٩) منهج المقال ص٣٤٠.

وقال في القاموس: وشيعة الرجل بالكسر أتباعه وأنصاره، وقد غلب هذا الاسم على كلّ من يتولّى عليّاً وأهل بيته حتى صار اسماً خاصاً لهم[٤١].

وقال في التاج: إذا قيل فلان من الشيعة عرف أنّه منهم، وفي مذهب الشيعة كذا أي عندهم وأصل ذلك من المشايعة والمطاوعة[٤٢].

وقال الجوهري: شيعة الرجل أتباعه وأنصاره، يقال: شايعه ويقال والاه [٤٣].

ويقول ابن منظور الأفريقي: وأصل الشيعة الفرقة من الناس ويقع على الواحد والاثنين والجمع والمذكر والمؤنث بلفظ واحد ومعنى واحد، وقد غلب هذا الاسم على من يتولى عليّاً واهل بيته «رضوان الله عليهم اجمعين» حتى صار اسماً خاصاً، فإذا قيل فلان من الشيعة عرف أنّه منهم [٤٤].

وبهذا القول نفسه قال ابن الأثير في النهاية ج٢ ص٢٤٦.

وكذا في صبح الأعشى : ج ١٣ ص ٢٣٦.

ومجمع البحرين في مادة شيع وغيرها من معاجم اللغة.

وقال أبو حاتم الرازي: «إنّ أول اسم ظهر في الإسلام هو الشيعة، وكان هذا لقب أربعة من الصحابة هم: أبو ذر، وسلمان، وعمار، والمقداد، حتى آن أوان صفّين فاشتهر بين موالي علي (رضي الله عنه)[٤٥].

وقال ابن النديم: لما خالف طلحة والزبير على عليّ(عليه السلام) وأبيا إلاّ الطلب بدم عثمان، وقصدهما علي (عليه السلام) ليقاتلهما حتى يفيئا إلى أمر الله جلّ اسمه، سمّى من اتبّعه على ذلك، الشيعة، فكان يقول: شيعي...

ولسنا الآن بصدد الإحاطة بتعريف الشيعة، أو تعيين الزمن الذي نشأت به، ولا نريد ان نطيل الكلام في نقل الاختلاف في سبق هذا الاسم أو تأخّره، إذ من الثابت أنّ هذا الاسم كان على عهد النبيّ (صلى الله عليه وآله).

لكن ما يؤسف له أنّ بعض ذوي الفهم المعكوس قد حملوا اسم الشيعة على غير معناه، وشرّقوا في ذلك وغرّبوا، وقد اضطربت أقوالهم وخرجوا عن منطق العلم في تجاوز الحدّ، وارتكبوا أموراً لا تليق بمن يتزيا بالعلم، إذ هي تدلّ على نقص في الادراك، وخلل في التفكير! وقد ساهم المستشرقون في هذه الافتعالات ووسّعوا دائرة

---

(٤٠) لسان العرب ج١٠ ص٥٥ .
(٤١) القاموس ج٣ ص٤٧.
(٤٢) تاج العروس ج٥ ص٤٠٥.
(٤٣) الصحاح ج١ ص٦٣.
(٤٤) لسان العرب ج١٠ ص٥٥.
(٤٥) روضات الجنان ص٨٨.

الطعن على الشيعة، وتبعهم بعض كتّاب العصر[٤٦]الحاضر، بدون التفات إلى نوايا أولئك القوم الذين يحاولون تشويه تاريخ الإسلام.

وممّا تجدر الإشارة إليه: هو أنّ البعض يتعمّد استعمال هذا الاسم على عمومه وحيث كان اسم التشيع يدلّ على الاتباع، فقد أطلق المؤرّخون اسم الشيعة على أنصار العباسيين وأتباعهم، فيقولون: شيعة المنصور أو شيعة الرشيد مثلاً، ويذكرون لهم كثيراً من الحوادث وأهمّ هذه الفرقة هم الشيعة الراوندية وهم شيعة المنصور الدوانيقي الذين غلوا في حبّه بل عبدوه من دون الله.

ولابدّ من الإنتباه إلى ما في بعض نصوص المصادر من ذكر تسمية «الشيعة» وملاحظة السياق وطبيعة الأحداث، فقد جرى بعض المؤرخين على هذا الإطلاق وهم يعنون به أنصار العباسيين ورجالهم أو حتى ملوكهم.

ومن الغريب أنّ بعض كتّاب العصر الحاضر عندما ذكر فرق الشيعة وبيّن عقائدهم التي خبط فيها خبط عشواء جعل الراوندية من شيعة آل محمد (صلى الله عليه وآله)وهذا نص قوله :

الراوندية فرقة من غلاة الشيعة ناهضت العلويين في أيام العباسيين، وذهبت الى أن أحقّ الناس بالإمامة هو العباس بن عبد المطلب لأنّه عمّ النبي(صلى الله عليه وآله)، ثم يأتي من بعد العباس أبناؤه إلى أن يقول : وقد غلت الراوندية أو فريق منهم بل كلّهم، فعبدوا أبا جعفر المنصور وطاروا قائلين: أنت أنت أي أنت الله[٤٧].

ولا ندري كيف يتفق هذا مع عقائد الإمامية (سبحانك اللهم هذا بهتان عظيم) .

وليس من الصعب الوقوف على كثير من شذوذ الكتّاب الذين دوّنوا أسماء الفرق وألحقوا بفرق الشيعة من ليس منهم عندما نعرف عقائد الشيعة الإمامية، ولكنّ الأغراض والأهواء قد انحرفت بكثير ممن كتب عن الشيعة، وقد ساعد على ذلك خوض بعض الكتاب المعاصرين في بحوث تقصر هممهم عن الإيفاء بشروطها و تعجز قدراتهم عن الإحاطة بظروفها، ولكن بعضها قد بحث بما فيه بيان الحقّ وليس فيه ما يسبب لمن لم يتزود بالاطلاع الكافي ارتباكاً أو خطأً، فإنّ قضية استغلال العباسيين لمشاعر النقمة الكبرى التي اعتملت بها النفوس تجاوباً وتعاطفاً مع أهل البيت الأطهار هي من الحقائق التي لم يختلف عليها، وأنّ العباسيين ركبوا تلك الموجة وأخفوا ما بأنفسهم مستغلين شمولهم بالتسمية، ولكنّهم لم يجسروا على

---

(٤٦) ضحى الإسلام، لأحمد أمين ج٣ ص٢٠٨ - ٣١٠، انظر فجر الإسلام ص٢٧٦ - ٢٧٧ .

(٤٧) الدكتور عادل العوّا ، الكلام والفلسفة ص٣١.

الإعلان عن نواياهم حتى مرّ عهد ملكهم الأول السفاح، وجاء المنصور فبدأت جولة الحرب الجديدة ونزع القناع الأسود عن وجهه. ومسألة شمول العباسيين بآل البيت قيد إطلاقها بالمعارضة الشديدة والإنكار الواضح من قبل الشيعة، لأنّ إطلاقها بالشكل الذي استخدمه العباسيون قد جرّ الأمة الى بلوى جديدة حملت أناساً ظلمة جدد الى مواقع الحكم والسلطان، وأصبح الأمر واضحاً بتطورات الأحداث ومجريات السياسة، فكيف نفعل مع خدمة الحكام الذين صرعهم شيطان التعصب في تلك الظروف المظلمة، وراحوا يوسّعون في دلالة التسمية مكابرةً وعناداً؟ وإنّما تركوا لمن أتى من المعاصرين مادة تساعدهم على القول بدون تثبّت.

أخطاء وأكاذيب

أخطاء وأكاذيب

المؤلّفون والشيعة

رأينا أنّ أكثر من كتب حول الشيعة، قد استندوا لأقوال أقوام عاشوا في عصور احتدام النزعات، واشتداد عواصف الطائفية، وإيقاد نار البغضاء بين طوائف المسلمين: من حنفية وشافعية وحنبلية وأشعرية ومعتزلة... ممّا أدّى إلى ارتباك حبل الأمن، وحلّ عرى الموّدة، وهدم صروح الوحدة.

تلك أمور كانت نتائجها وخيمة يتألّم لها قلب كلّ مسلم، لما أصاب المسلمين من الانحطاط والتأخّر. وانتهى ذلك النزاع إلى حالة مؤسفة، عندما تحوّل إلى عقيدة ومبادئ، واستمدّ كلّ قوّته من أمور وهمية لامساس لها بالدين، فهم في جانب، وهو في جانب آخر، ﴿**إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ**﴾[٤٨]، والإسلام يدعو إلى كلمة التوحيد، وتوحيد الكلمة، وبث روح الأُخوّة، لتتمّ سعادة البشر في اتباع أوامره والوقوف عند زواجره.

نعم إنّهم كتبوا عن الشيعة بدون تثبّت، واستندوا لأقوال قوم دعاهم حبّ الشغب وخدمة السلطة إلى اختراع تلك الاتهامات. وقد تقوّل أكثر المقلّدين لهم، والناقلين عنهم فزادوا في الطين بلّة.

ولقد ساروا تحت ظلام الأوهام، ولا يعرفون إلاّ ما قيل، ولا يقولون أيّ شيء، تقليداً للسلف وخضوعاً للعاطفة.

وكنّا نأمل من جيلنا الحاضر وأبناء عصر النور، أن لا تميل بهم نزعة الهوى، ولا تخفف العاطفة وزنهم، ولا يلجئوننا إلى نشر تلك الفضائح، واخراج تلك الدفائن، ونحن بأمسّ الحاجة الى اتّجاه واحد، واتحاد كامل، لإيجاد قوة إسلامية متكاتفة، تقف أمام تيار الإلحاد الجارف، وردّ هجمات خصوم الإسلام، والوقوف أمام عدوانهم الغاشم، وتحرير الأُمة الإسلامية من قيود الاستعباد، ورفع كابوس الاستعمار، برفع

---

(٤٨) آل عمران: ١٩.

لواء كلمة «لا إله إلاّ الله محمد رسول الله»، وأناشيدنا: (**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**)[٤٩] (**وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَتَفَرَّقُوا**)[٥٠].

وقد يكون في هذا الكلام صدمة لمن لا يرتضي التفاهم بين المسلمين لإزالة سوء التفاهم، لأنّا وجدناهم لا يعيشون إلاّ في ظلمة الفتن ومن وراء حجب التمويه والأكاذيب، فهم مع الباطل فلا يروق لهم اظهار كلمة الحقّ لثقلها على بعض النفوس!! لكنّنا نرى أنّه من الخير استمرارنا بهذه الصراحة، لأنّا نفضّل مواجهة الحقيقة بأقصى ما يمكننا من ذلك، لإظهار الحقّ واتباعه، والحق أحقّ أن يتّبع.

مع أحمد أمين في كتبه

إذاً فليس من الحقّ قول أحمد أمين : «والحقّ أنّ التشيّع كان مأوى يلجأ إليه كلّ من أراد هدم الإسلام لعداوة أو حقد، ومن كان يريد ادخال تعاليم آبائه من يهودية، ونصرانية، وزردشتية، وهندية، ومن كان يريد استقلال بلاده، والخروج على مملكته الى أن يقول: فاليهودية ظهرت في التشيع في القول بالرجعة، وقال الشيعة: إنّ النار محرّمة على الشيعي إلاّ قليلاً، كما قال اليهود لن تمسنا النار إلا أيّاماً معدودات... الخ[٥١].

نعم ليس من الحقّ أن يتقوّل على الشيعة بهذا، أو يقلّد ما كتبه المستشرقون وهم الذين دعاهم حب الشغب لإثارة الطائفية بين المسلمين. وفي الواقع أنّ الرجل اتّبع آراء الغربيين، الذين يكتبون عن الإسلام بداعي الحقد والوقيعة في أهله وهو في هذا المورد - بالأخص - قد اتّبع المستشرق «ولهوسن» حيث يقول: إنّ العقيدة الشيعية نبعت من اليهودية أكثر مما نبعت من الفارسية. واتبع أيضاً قول المستشرق «دوزي»: أنّ العقيدة الشيعية أساسها فارسي، فالعرب تدين بالحرية، والفرس يدينون بالملك وبالوراثة في البيت المالك، ولا يعرفون معنى لانتخاب الخليفة، وقد مات محمد ولم يترك ولداً، فأولى الناس بعده علي بن أبي طالب فمن أخذ الخلافة منه - كأبي بكر وعمر وعثمان والأمويين - فقد اغتصبها من مستحقها. وقد اعتاد الفرس

---

(٤٩) الحجرات: ١٠ .
(٥٠) آل عمران : ١٠٣.
(٥١) فجر الإسلام ص٢٧٦.

أن ينظروا إلى الملك نظرة فيها معنى إلهي، فنظروا النظر نفسه إلى علي وذرّيّته وقالوا: «إن طاعة الإمام أول واجب، وإنّ اطاعته اطاعة الله»[٥٢].

وهذا هو مضمون عبارة أحمد أمين بتصرّف وزيادة. ونحن الآن لا نريد أن نتعرّض لجميع ما كتبه أحمد أمين عن الشيعة وأئمّتهم من سادات أهل البيت وسلالة النبي(صلى الله عليه وآله).

نعم لا نريد أن نذكر جميع أقواله وتقولاته، ولا نقف طويلاً في ردّه ولكن شيئاً واحداً نريد أن نقوله هو: إنّ أحمد أمين كاتب له شهرة فائقة، وآثار كثيرة. ولكن مما يؤسف له أنّ الرجل لم يكن واقعيّاً; بل كان ينقاد للعواطف بسرعة، ويخضع للنزعات ويستسلم للشكوك التي تموج في صدره، فهو يجهل نفسه أمام الواقع ويفقد الجرأة الأدبية، عندما تتجلّى الحقيقة أمامه. ويتّضح ذلك من مؤلّفاته ومقالاته.

إنّ أحمد أمين أديب كاتب، ولكن لم تكن له خبرة في علم الرجال، ولا إلمام في علم الحديث. وله أخطاء في التاريخ فكان اللازم عليه أن يتجنّب الخوض في أُمور ليست من اختصاصه، ليدفع بذلك نقصاً جرّه إلى نفسه، وعيباً لصقه بها. وهو فيما يذهب إليه - في كثير من الآراء - يبرهن على نقص في إدراكه ودراسته، فيستسلم الى آراء المستشرقين الذين انطوى اهتمامهم بالمواضيع الإسلامية على أهداف قذرة أملاها عليهم الاستعمار. وبمزيد الأسف أن (أمين) وعد أنّ يكون أميناً ويتدارك ما أخطأ فيه ولكنه لم يفعل؟!

أخطاء القصيمي

ولا نريد أن نتعرّض للقصيمي [٥٣] في صراعه، فهو مصروع لشدّة داء «الهستريا» ومدفوع بحركة لا شعورية فلا حاجة الى التعرّض له ولأمثاله، ممّن أبتلي بداء الشغب، وحبّ التفرقة بين المسلمين، خدمة للاستعمار واستدراراً لصلته، وطلباً لنائله، نعم لا نريد أن نتعرّض لخرافاته وسفاسفه، وأخطائه وأكاذيبه، فقلّما يترفّع عن مناقشته. من اوقف نفسه لخدمة أعداء الإسلام.

ولكنّا نودّ أن ننبّه لشيء واحد من أخطائه وأكاذيبه وهو قوله في ج٢ص ٣٨: استفتى أحد الشيعة إماماً من ائمتهم ولا أدري أهو الصادق أم غيره؟ في مسألة من

---

(٥٢) فجر الإسلام ص٢٧٧.

(٥٣) هو الشيخ عبد الله القصيمي، مؤلف كتاب «الصراع بين الوثنية والإسلام».

المسائل فأفتاه فيها، ثم جاءه من قابل واستفتاه في المسألة نفسها فأفتاه بخلاف ما أفتاه عام أول، ولم يكن بينهما أحد حينما أفتاه بالمرّتين، فشكّ ذلك المستفتي في إمامته وخرج من مذهب الشيعة وقال: إن كان الإمام إنّما أفتاني تقيّةً فليس معنا من يتّقي في المرتين، وقد كنت مخلصاً لهم عاملاً فيما يقولون، وان كان مأتى هذا هو الغلط والنسيان، فالأئمّة ليسوا معصومين إذن. والشيعة تدّعي لهم العصمة، ففارقهم وانحاز إلى غير مذهبهم. وهذه الرواية مذكورة في كُتب القوم.

لا أُريد أن أُسائل القصيمي عن الكتب التي ذكرت فيها هذه الحادثة. ولا الزمه بأن يبيّن لنا اسم الرجل السائل أو الإمام المسؤول، فالقصيمي جوابه - كنقله - كذب وافتعال بيّن. فإذا كذب في النقل يكذب في الجواب. ودائرة الكذب غير محدودة، تمتدّ إلى حيث لا نهاية. وإنّي قد ألقيت القصيمي وكتابه في (سلّة المهملات)(٥٤) فلا أحبّ التعرّض لهفواته، إلا بهذه فقط ، لأنّه أراد أن ينال من كرامة الإمام الصادق (عليه السلام) بإسناد هذه لحكاية له على وجه الترديد، وقد اشتبه عليه الأمر في ذلك. أو هو يتعمد ارتكاب الخطأ. وإنّ هذه القضية نقلها على غير وجهها فإنّها لم تكن في كتب الشيعة ولم يكن المسؤول هو الإمام الصادق بل غيره من أئمة المذاهب وإليك نصّها :

جاء رجل من أهل المشرق إلى أبي حنيفة بكتاب منه بمكة عام أول. فعرضه عليه مما كان يسأل (وفي نسخة سئل عنه) فرجع أبو حنيفة عن ذلك كلّه. فوضع الرجل التراب على رأسه ثم قال: يا معشر الناس، أتيت هذا الرجل عاماً أولاً فأفتاني بهذا الكتاب، فاهرقت به الدماء، وانكحت به الفروج، فرجع عنه هذا العام. قال ابن قتيبة: حدثني سهل بن محمد: قال حدّثنا المختار بن عمر: إنّ الرجل قال له - أي لأبي حنيفة - كيف هذا؟ قال: رأياً رأيته فرأيت العام غيره قال: فتؤمنني أن لاترى من قابل شيئاً آخر. قال أبو حنيفة: لا أدري كيف يكون ذلك. فقال له الرجل: لكنني أدري أنّ عليك لعنة الله. انظر تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ص ٦٢ - ٦٣ المطبوع بمطبعة كردستان بمصر الطبعة الأولى سنة (١٣٢٦ هـ) .

هذه هي الحكاية التي أخطأ القصيمي في نسبتها للإمام الصادق (عليه السلام) أو غيره من الأئمة مع تصرف فيها منه. ولا أستبعد أنّ الرجل لا يفرّق بين أن يكون أبو حنيفة إماماً للحنفية أو للشيعة، لأنّ كتابه لم يتركز على قواعد علمية، ولا على نقل صحيح. بل هو هوس وتهريج، وتقوّل بالباطل. فلا نودّ مناقشة رجل يحور الوقائع، ويغيّر

(٥٤) هو عنوان موضوع يأتي في هذا الكتاب إن شاء الله.

النص، ويتعمّد الكذب، ولا عتب عليه فهو إنسان أفلت من عقال التعقل، وخرج على الموازين، وحارب الإسلام بدافع الطمع بما في أيدي أعدائه من صهاينة وملاحدة، لهذا نعرض عن الاستمرار في بيان أباطيله وأضاليله، وها نحن نلقيه في سلة المهملات.

مع ابن عبد ربه

ومن الخطأ الإصغاء لأخطاء ابن عبد ربّه - فيما ينقله في ذم الشيعة - من الأمور التي يتبين لذي العين الباصرة أنّها باطلة، أملاها التعصّب والتشاحن المذهبي. وهي من وضع أقوام تقرّبوا للدولة، بوضع خرافات لمسوا رغبتهم في نشرها، ولم يلتفتوا الى أي مؤاخذة أو نقص. وخذ مثلاً لذلك ما نقله عن مالك بن معاوية [٥٥] أنّه قال لي الشعبي - وذكرنا الرافضة -: يا مالك إني درست الأهواء كلّها فلم أرَ قوماً أحمق من الرافضة ثم قال: أحذرك الأهواء المضلّة شرّها الرافضة، فإنّها يهود هذه الأمة، يبغضون الإسلام، كما يبغض اليهود النصرانية ولم يدخلوا في الإسلام رغبة ولا رهبة من الله ولكن مقتاً بأهل الإسلام، وبغياً عليهم إلى أن يقول : قالت اليهود : لا يكون الملك إلاّ في آل داود وقالت الرافضة: لا يكون الملك إلاّ في آل علي بن أبي طالب، واليهود يؤخّرون صلاة المغرب حتى تشتبك النجوم، وكذلك الرافضة واليهود لاترى الطلاق شيئاً، وكذلك الرافضة. إلى أن قال : واليهود تستحل دم كل مسلم وكذلك الرافضة، الى آخر ما نقله من هذه الأسطورة، وما فيها من الأمور التي تضحك الثكلى. كما انّ مثل هذا لا يصدر عن رجل مثل الشعبي[٥٦] ، المعروف بالعلم فيجهل أمثال هذه الأمور، ويصدر عنه مايكذّبه الواقع قبل الوجدان.

صحيح أننا لا نتوقع من الشعبي الدفاع عن الشيعة بعد تحولاته وانقلاباته في المواقف والآراء، وبعد أن استقرّت سيرته على مسالمة الحكام ومسايرة مؤسساتهم في الموقف من الشيعة، إلاّ أنا نستبعد أن يكون الشعبي واحداً من علماء السوء الذين اصطنعتهم الدولة، وقد يصدر عن الشعبي ما يناقض سيرته الماجنة وما يخالف به الشيعة لكن ليس الى هذا الحدّ من الافتراء والسقوط ، هذا من جهة.

---

(٥٥) العقد الفريد ج١ ص٢٥٩.

(٥٦) هو عامر بن شراحبيل، ولد في خلافة عمر بن الخطاب، وتوفي سنة (١٠٣ هـ) روى عن علي وابن مسعود وعمر ولم يسمع منهم، وعن أبي هريرة وعائشة، وهو من رجال الصحاح الستة.

ومن جهة أخرى: إنّ وفاة الشعبي كانت سنة (١٠٣ هـ) وظهور اسم الرافضة سنة (١٢١ هـ ـ ١٢٢ هـ) كما يقولون. وقبل هذا التاريخ لم يعرف أحد هذا الاسم. وقالوا: إنّ زيد بن علي سمّاهم بذلك، عندما خرج بالكوفة سنة (١٢١ هـ) ولم يذهب أحد إلى سبق هذا الاسم واشتهاره قبل هذا التاريخ، مع أنّ الناقل وهو مالك بن معاوية لم يعرف وليس له ذكر في كتب الرجال قط، ولكن هذا من اختراع ابن عبد ربه، أو لقّنه بها بعض القصاصين، الذين استخدمتهم السلطة لمحاربة مذهب أهل البيت(عليهم السلام) ،ولا استبعد أنّ هذه التسمية ونسبتها لزيد من اختراعات الأصمعي ومجونه، فهو راوي قصة الشيعة مع زيد في حربه بالكوفة [٥٧]، وقضيّة زيد مشهورة وثبوت الشيعة معه في حربه أمر لا ينكر، ولكنها حيلة سياسية استعملها الأمويون لتفرقة بعض الناس عنه. إذ دسّوا أدواتهم وعبيدهم بين صفوف أصحاب زيد مستخدمين قضية الشيخين لأغراضهم السياسية ـ هذا على فرض صحة الخبر ـ فتوسّلوا الى إنقاذ حكمهم بمثل هذه الوسيلة والقضاء على ثورة عمّر قلوب أصحابها الإيمان بالإسلام وفاضت صدور جنودها بمشاعر الولاء لآل بيت النبي المصطفى والنقمة على الظالمين المضلّين.

وقد قامت تهمة الرفض في ظلال روح النصب وأفياء العداء لآل البيت النبوي الكريم، ورغم انفضاح بواعثها وتلفيقها فقد ظلّت مداد الأقلام ومضامين الأسفار، لأنّ الظالمين أقاموا سياستهم على ذلك وأذعن الكتّاب والمحترفون ومالوا الى هوى المتسلّطين ودواعي النفع، وإلاّ فإنّ من الإسرائيليات والعقائد اليهودية التي أفشاها كعب الأحبار ـ وهو في عرفهم الثقة المأمون والتابعي الجليل ـ ما يكفي لتجريد الأقلام وصرف الأموال لتشذيب ما علق بأذهان الناس والدعوة الى رفض ما بثّه فيهم اليهود من تجسيم وتشبيه وخرافات وأساطير لا تليق إلاّ بأهلها من قتلة الأنبياء.

ولنتأمّل في ختام القول عن ابن عبدربّه هذه النقطة المهمة: وهي استسهال الاتهام بالتشيّع والرمي بالمغالاة في أهل البيت لا لشيء إلاّ لأنّ الحقيقة قد روعيت والوقائع قد ذكرت، لأنّ العداء للتشيع يقضي على أتباع المتسلّطين وورثة السلف السائرين في ركاب الظلمة بإهمال الحقائق وإغفال الوقائع.

وابن كثير يتهم ابن عبد ربّه بالتشيّع، لأنّ ابن عبدربّه تكلّم عن سيرة خالد بن عبدالله القسري والتي يراها ابن كثير غير صحيحة فتحمله المغيرة على الدخول في

---

(٥٧) تاج العروس ج٥ ص٣٤.

دينه ويجعل من التشيّع لأهل البيت سبيلاً لتوهين ما عرف من سيرة خالد بن عبدالله القسري ممّا لم يستطع ابن كثير نفسه منه فكاكاً، فذكر شيئاً منها مرغماً.

ولكنّ كلّ الجرائم تهون دون بطش خالد وجرائمه التي تتفق في منحاها مع القسوة والغلظة التي اتصف بها النواصب ودعاة السلفية.

فيدافع ابن كثير الحافظ عن خالد بما لفظه، والذي يظهر أنّ هذا لا يصحّ عنه فإنّه كان قائماً في إطفاء الضلال والبدع.. وقد نسب إليه صاحب العقد أشياء لا تصح، لأنّ صاحب العقد كان فيه تشيّع شنيع ومغالاة في أهل البيت، وربّما لا يفهم أحد من كلامه ما فيه من التشيّع، وقد اغترّ به شيخنا الذهبي فمدحه بالحفظ وغيره... الخ.

نعم ابن كثير وحده يفهم هذا التشيّع الغريب والذي رأى الاتهام به دفاعاً عن القائم بإطفاء الضلال والبدع. وخالد باعتراف ابن كثير نفسه وتحريره أنّه كان متّهماً في دينه، وبنى لأمه كنيسة في داره، لأنّ أمه كانت نصرانية ويدعى بابن النصرانية. وليت الأمر ينتهي بهذا الحد من الفضائل، بل أن خالداً جمع «الإيمان» من أطرافه وبتحرير ابن كثير أيضاً ، لقول ابن خلكان كان في نسبه يهود فانتموا الى القرب وكان يقرب من شق وسطيح.

ومثل هذه النماذج جديرة بأن تكون منزهة، لأنّ لديها الاستعداد النفسي لحمل راية العنف والشدة فيكون العداء لها صادراً من الجهة التي تقف بوجه الظلم والعنف.

يطلق ابن كثير على صاحب العقد الفريد تهمة التشيّع، وبذلك يكشف عن واحد من الأمور التي يتعجّل بها في الحكم. وما أكثرها في منهجه. لقد كان ابن عبدربّه من رجال بلاط عبدالرحمن الناصر الأموي، ونظم في سيرته ملحمة، ولمّا جاء فيها ذكر الخلفاء لم يذكر الإمام عليّاً، وجعل معاوية رابع الراشدين، فذكر أبا بكر وعمر وعثمان ومعاوية ممّا حدا بعالم أندلسي هو منذر ابن سعيد البلوطي للردّ عليه قائلاً:

أو ما عليٌّ ـ لا برحت ملعّناً *** يا ابن الخبيثة ـ عندكم بإمام

ربّ[٥٨] الكساء وخير آل محمّد *** داني الولاء مقدّم الإسلام

وقد حملته أمويّته على عدم ذكر اسم الإمام الكاظم(عليه السلام) وهو يورد رسالته(عليه السلام)الى هارون الرشيد وقد بعثها إليه من السجن، والتي جاءت في أغلب المصادر وأمّهات كتب التراجم والتي يخاطب فيها الرشيد: «إنّه لن ينقضي عني يوم من البلاء إلاّ انقضى عنك يوم من الرخاء حتى نقضي جميعاً الى يوم ليس له انقضاء ويخسر

(٥٨) ربّ: بمعنى رابع واختصرت للضرورة الشعرية.

فيه المبطلون». فيذكرها في العقد الفريد: أنّ الرشيد حبس رجلاً فلمّا طال حبسه كتب إليه. ويذكر المعنى وبلفظ آخر وهو ما ينفرد به[٥٩].

وليت الأمر يقف الى هذا الحدّ ولكنّهم توسّعوا في الكذب، حتى استخدموا ألسنة الشياطين. وإليك مثلاً من ذلك :

أحلام ابن العماد

نقل أبو الفلاح عبد الحيّ بن العماد الحنبلي [٦٠] عن الأعمش - بلا سند - أنّه قال: خرجت في ليلة مقمرة أُريد المسجد، فإذا أنا بشيء عارضني فاقشعرّ منه جسدي، وقلت أمن الجن أم من الإنس؟ فقال من الجن. فقلت أمؤمن أم كافر؟ فقال: بل مؤمن. فقلت: هل فيكم من هذه الأهواء والبدع شيء؟ قال: نعم. ثم قال: وقع بيني وبين عفريت من الجن اختلاف في أبي بكر وعمر، فقال العفريت: إنّهما ظلما علياً واعتديا عليه. فقلت: بمن ترضى حكماً؟ فقال: بإبليس. فأتيناه فقصصنا عليه القصة فضحك، ثم قال: هؤلاء من شيعتي وأنصاري، وأهل مودتي، ثم قال: ألا أُحدّثك بحديث؟ قلنا: بلى. قال: أُعلمكم أنّي عبدت الله تعالى في السماء الدنيا ألف عام فسميت فيها العابد، وعبدت الله في الثانية ألف عام فسميت فيها الزاهد وعبدت الله في الثالثة ألف عام فسميت فيها الراغب ثم رفعت إلى الرابعة، فرأيت فيها سبعين ألف صف من الملائكة يستغفرون لمحبي أبي بكر وعمر، ثم رفعت إلى الخامسة فرأيت فيها سبعين ألف ملك يلعنون مبغضي أبي بكر وعمر. انتهى.

هذه هي أُسطورة ابن العماد ينقلها للطعن في الشيعة واظهار فضل أبي بكر وعمر، نقدّمها ليتّضح للقارئ مدى الشوط الذي لعبه الجهل في عقول الناس، حتى استخدموا الشياطين في أكاذيبهم (**لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيطانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ**)[٦١] (**وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ* وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ**)[٦٢].

أُسطورة ابن سبأ

---

(٥٩) اللفظ الذي جاء به وهو (حبس الرشيد رجلاً، فلمّا طال حبسه كتب إليه: إنّ كل يوم يمضي من نعمك يمضي من بؤسي مثله، والأمد قريب والحكم لله». العقد الفريد لابن عبدربه ج٢ ص٢٩ .

(٦٠) شذرات الذهب ج١ ص٢٥.

(٦١) الحج: ٥٣.

(٦٢) المؤمنون ٩٧ - ٩٨.

ومن الأساطير التي أخذت مفعولها في المجتمع، وتأثر بها أهله تأثراً جعلهم يرسلونها إرسال المسلّمات، هي أسطورة عبد الله بن سبأ . تلك الشخصية الموهومة التي لا وجود لها في التأريخ، وإنّما هي أحاديث خرافة وضعها القصاصون وأرباب السمر والمجون. في أواسط الدولتين : الأموية والعباسية; إذ بلغ الترف والنعيم أقصاه، وكلما اتّسع العيش وتوفّرت دواعي اللهو اتّسع المجال للوضع، وراجت سوق الخيال، ونسج القصص والأمثال، كي تأنس بها ربّات الحجال والترف والنعمة[٦٣] .

ولقد اندفع أعداء الشيعة في القرون المتوسطة إلى جعل أسطورة عبد الله بن سبأ ذات شأن في تأريخ الإسلام، واسندوا إليه أموراً يأباها البحث المبرّأ من الهوى، ويرفضها العقل السليم، فقد اخترعوا له أفعالاً ومواقف، وأسندوا إليه قصصاً ووقائع، وألبسوه أبراد العظمة، وادعوا له الشجاعة والبسالة; فهو الذي أثار حرب الجمل، وهيّأ جيش مصر لحرب عثمان، وأقام في الكوفة يثير الفتنة على عثمان وعمّاله، ويسير في أنحاء الأقطار الإسلامية بسرعة البرق ليوقد الفتنة، ويعود للمدينة فيؤلب الناس على عثمان، وتأثر به كثير من كبار الصحابة. إلى آخر ما هنالك من الأمور العجيبة التي حفت بها شخصية عبدالله بن سبأ.

وقد نصّ كثير من القدماء المحققين على نفي وجود شخصية عبد الله بن سبأ، و أنها أسطورة وضعها أعداء الشيعة[٦٤]... وكذلك ذهب جماعة من المتأخرين إلى نفيها[٦٥]، وللمستشرقين آراء كثيرة في ذلك: يقول برنار ولويس: «وينسب كثير من المؤرخين المسلمين بداءات التشيع الثوري إلى رجل اسمه عبد الله بن سبأ وهو يهودي يماني، عاصر علياً وكان يدعو إلى تأليهه، فأمر علي بحرقه لما دعا إليه، ومن هنا قيل: إنّ أصل التشيع مأخوذ من اليهودية. ولكن البحث الحديث قد أظهر أنّ هذا استباق للحوادث وانّه صورة مثل بها الماضي وتخيلها الرواة في القرن الثاني الهجري من أحوالهم وأفكارهم السائدة»[٦٦].

فهو يذهب بهذا الى أنّ فكرة عبد الله بن سبأ من تخيّل الرواة نظراً للأفكار السائدة، والأحوال التي كانوا عليها في انتحال القصص والخرافات [٦٧] وأظهر فلهاوزن،

---

(٦٣) أصل الشيعة وأصولها ص٨٤.

(٦٤) عبد الله بن سبأ للأستاذ السيد مرتضى العسكري فهو خير كتاب في هذا الموضوع، فقد تتبع فيه أصل وضع هذه الأسطورة.

(٦٥) الفتنة الكبرى لطه حسين ص١، وخطط الشام لمحمد كرد علي ج٦ ص٢٥١ - ٢٥٦ .

(٦٦) أصول الإسماعيلية ص٨٦ ، انظر عبد الله بن سبأ لسليمان بن حمد العودة ص٧٢.

(٦٧) أصول الإسماعيلية ص٨٦ - ٨٧.

وفريد لندر بعد دراسة نقدية: إنّ المؤامرات والدعوة المنسوبتين إلى عبد الله بن سبأ من اختلاق المؤرخين. وقال كايتاني: «إن مؤامرة مثل هذه بهذا التفكير وهذا التنظيم، لا يمكن ان يتصوّرها العالم العربي سنة (٣٥ هـ) بنظامه القبلي القائم على سلطان الأبوة، وأنّها تعكس العصر العباسي الأول بجلاء».

والغرض أنّ أمثال هذه الأساطير واختراع تلك الخرافات لا تخفى على من اعطاها نظرة صادقة، ووقف وقفة متريث، يريد أن يعرف الواقع، ويصل إلى معرفة البواعث التي أدّت إلى وضعها من قبل سلف مخدوع يسير وراء توجيهات الدولة. وقد تبعهم كثير من أبناء الجيل الحاضر وضربوا على وترهم لتصبح تلك الأمور الخرافية قواعد ثابتة الأصول وما هي في عرف الحقّ إلاّ: (**وَمَثَلُ كَلِمَة خَبيثَة كَشَجَرَة خَبيثَة اجْتُثَّتْ مِن فَوْق الأَرْض مَالَهَا مِن قرَار* يُثَبّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ بِالْقَوْلِ الثَّابتِ فِي الْحياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَايَشَاءُ**)[٦٨]. وسيأتي في الجزء السادس من هذا الكتاب بحث مستفيض عن هذه الأسطورة.

وصفوة القول إنّ الاتهامات التي وجّهت للشيعة، إنّما تعود لأسباب سياسية، قد اتخذها الحكام وسيلة للقضاء عليهم، ومحو مذهبهم الذي أصبح عبئاً ثقيلاً على كاهل الدولة، وشبحاً مخيفاً يقضّ مضاجعهم، لأنّه يتصل بأهل البيت(عليهم السلام)، وهم أعداء للباطل وحرب على الظالمين.

وقد اتّضح إعلانهم الانفصال عن دولة لاتحترم الحقوق، وتسير بالأمة على غير هدى، حتى عرف المنتمون لهم بذلك اتباعاً لهم واقتداءً بهم. فكانت من أبرز معالم سيرة أئمة أهل البيت وأهمّ خصائص مسيرة شيعتهم تعاهدها الأئمة الأطهار بالرعاية لكي يعلم الحكّام أنّ أمر العقيدة أبعد من مرماهم وأكبر من سياستهم.

قال الأنباري: كتبت الى أبي الحسن الرضا (عليه السلام) أربع عشرة (مرّة) استأذنه في عمل السلطان فلما كان آخر كتاب كتبته: إنّي أخاف على خيط عنقي وأنّ السلطان يقول: إنك رافضي، ولسنا نشكّ في أنّك تركت العمل للسلطان للترفض. فكتب إليَّ أبو الحسن: إني قد فهمت كتبك، وما ذكرت من الخوف على نفسك، فإن كنت تعلم أنك إذا وُليت عملت في عملك بما أمر به رسول الله (صلى الله عليه وآله)إلى آخر الكتاب[٦٩].

---

(٦٨) إبراهيم ٢٦ - ٢٧.

(٦٩) الكافي ج٥ ص١١١ ح ٤ في باب عمل السلطان .

فيظهر جليّاً أنّ عدم معاونة الدولة والعمل لها آنذاك، يوقع الإنسان بتهمة التشيّع، الذي هو من أعظم الذنوب في ذلك العصر، لأنّهم - أي الشيعة - معارضون لذلك النظام، وناهيك ما يلقى المعارضون لحكام الجور من مقاومة وتنكيل. فإذا رأينا في بعض مراحل حكم بني العباس من عرف بالتشيّع والولاء لأهل البيت(عليهم السلام) وهو في محل من الدولة أو في مسؤولية من الحكم ولم يخف انتماءه، فذلك إن الكثير بقي على أمل إقامة الأمر على ما كانت عليه الثورة ضدّ حكم الأمويين، كما أنّ كثرة شيعة أهل البيت الساحقة، وتزايد أعداد العلماء منهم وذوي الكفاءة في الشؤون المختلفة جعل من التخلّص منهم أمراً عسيراً. والذين كانوا في الولاية والعمل لأهل الجور منهم لا يفتأون يتّصلون بالأئمة(عليهم السلام)فيرشدوهم الى سبل خدمة الرعية وطرق تجنّب ظلم الناس كما كان عليه النجاشي مع الإمام الصادق، والأنباري الذي تقدّم ذكره مع الإمام الرضا(عليه السلام).

فانتشار مذهب أهل البيت(عليهم السلام)يعتبر في الواقع اتّساعاً للمعارضة، لذلك اجتهد حكّام الجور في معارضته والتنكيل بأهله، ولكنّه استطاع ان يصمد لتلك الاعاصير الجائحة، ويتخطّى تلك العقبات الهائلة، فانتشر على وجه البسيطة، فكان عدد المنتمين إليه مائة مليون أو يزيدون.

وجدير بمن يريد دراسة المذهب الجعفري أن يزن أقوال بعض علماء الرجال الذين ساروا في ركاب الدولة، ونفخوا ببوقها - عندما يترجمون لعلماء الشيعة - فيقولون مثلاً: فلان صدوق إلاّ أنّه مبتدع أو أنّه سيّء المذهب، أو زائغ عن الحق. كما قال الذهبي في ترجمة أبان بن تغلب: انه صدوق إلاّ إنّه مبتدع، فلنا صدقه وعليه بدعته [٧٠]. إلى آخر ما هنالك من أقوال هي بعيدة عن الصواب. وإذا أردنا ان نسائلهم عن بدعتهم، فلا شيء هناك إلا مخالفة ما شرّعته السياسة لا ما شرّعه الإسلام.

وقد رأيت قبل قليل كيف جعلت الأهواء من خالد بن عبدالله القسري المتّهم في دينه قائماً بإطفاء البدع، وابن عبدربّه السنّي متشيّعاً ومغالياً.

نقول هذا ونحن نأسف الأسف الشديد على ذوي التفكير من أبناء العصر أن يعوّلوا على أقوال قوم جرفهم تيار التعصّب، فكان فهمهم للمذهب الجعفري فهماً عاطفياً، لذلك نرى أكثر من كتب عن تأريخ التشريع الإسلامي وبيان المذاهب فيه، قد أهمل

---

(٧٠) ميزان الاعتدال ج١ ص١١٨ / ١٢٥٢ .

ذكر جعفر بن محمد الصادق (عليه السلام). ولئن دلّ إهمالهم له على شيء فإنّما يدلّ على اعتزازهم بتلك النعرات الطائفية، وتلوث وجدانهم بالرواسب التي ورثوها من السلف المخدوع ليضعوها في طريق وحدة المسلمين في الوقت الذي يكونون فيه بأمس الحاجة إلى إزالة ما خلفته تلك العصور المظلمة، من عقبات تحول بينهم وبين التفاهم والوحدة، وما أحوجهم إليها اليوم لمقابلة أعداء الإسلام الذين يكيدون له بكلّ ما لديهم من حول وقوة، وما أخذناه ماهو إلاّ أمثلة قليلة للقضايا الكبرى التي اختلقها أعداء الشيعة وغيرها ممّا لا يحاط به ولا يحصى، ونحن في هذا العصر نطالب بأن تتبع طرق التفكير السليم والمنطق الصحيح من خلال الإجابة على سبب هذا التحايل والكره، ولماذا يبقى المرء أسير نظرة الأنظمة المتعسفة الذين اتجهوا ضد الشيعة، لأنّهم يمثّلون خطراً؟! ولا حول ولا قوة إلاّ بالله العلي العظيم.

(ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَا لْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لاَتَعْلَمُونَ)[٧١] .

(٧١) البقرة: ٢٣٢ .

الإمام الصَّادق
أصحابه وحَمَلة فقهه

الإمام الصّادق أصحابه وحَمَلة فقهه

مؤهلات الإمام الصادق ومكانته

انتشر ذكر مدرسة الإمام الصادق (عليه السلام) في جميع الأقطار الإسلامية، فأصبحت جامعة إسلامية كبرى تقصدها وفود الأمصار، حتى كان عدد المنتمين إليها أربعة ألاف كلّهم من حملة الحديث.

ولم يعرف لأحد من أئمة المذاهب من التلاميذ مثل ما عرف للإمام الصادق (عليه السلام)، مع تباعد أقطارهم. فكان تلاميذه، من العراق، ومصر، وخراسان، وحمص، والشام، وحضرموت وغيرها.

وممّا يلفت النظر أنّ أكثر تلاميذه كانوا من الكوفة والمدينة. لانتشار التشيع في الأولى، ونشأته في الثانية.

وأنّ هذا العدد وهو (٤٠٠٠) طالب في مدرسته لم يكن هائلاً - كما قد يبدو للبعض - وهو قليل بالنسبة لذلك العصر من حيث اتّساع نطاق الحركة العلمية، واتّجاه الناس لإحياء ما درس من السنن. ولأنّ الإمام الصادق (عليه السلام) هو سيّد أهل البيت في عصره ووارث علم جدّه، وكان لأهل البيت(عليهم السلام)نشاط علميّ فلا غرابة ان اتّجهت إليه الأمة الإسلامية تنتهل من ينبوع علمه، فضلاً عن انّه قد اتّصف بجميع الصفات التي تؤهّله لأن يتزعم الحركة العلمية في عصر نهضتها، وقد «نقل الناس عنه من العلوم ما سارت به الركبان، وانتشر صيته في جميع البلدان»[٧٢] «وروى حديثه خلق لا يحصون» [٧٣].

وكانت له نواح كثيرة يعذب فيها القول، وتفيض في شأنها المعاني والدراسات، ومن ابرز ذلك: أنّه (عليه السلام) كان - بشخصيته وعلمه - موضع احترام وتقدير وحبّ، من أهل الإيمان والعلم في عصره، لا فرق بين الخاصة والعامة، ولا بين من يتّبعونه ويعتقدون بنصيّة إمامته، ومن يتّبعون المذاهب الأخرى، كلّهم عرفوه إماماً جليلاً، وكلّهم عرفوه عالماً قويّاً وكلّهم عرفوه صادقاً إذا حدّث، ومنصفاً إذا فكّر، لا

---

(٧٢) الصواعق المحرقة لابن حجر ص١٢٠ .

(٧٣) الخلاصة للخزرجي ص٥٤ .

هدف له إلاّ الحقّ، ولذلك لقّب بالصادق، وهي نفحة من نفحات جدّه الأعظم رسول الله (صلى الله عليه وآله) حيث كان ملقّباً بالصادق [٧٤].

ولا نستغرب قول من يعترف بعدم استطاعته لإحصاء تلامذته، ورواة حديثه. وقد نقلنا من أوثق المصادر بعضاً منهم من سائر الناس، دون خواصه، وسنواصل نشر الآخرين منهم.

وعلى أيّ حال فإنّ الناشرين لفقه الإمام جعفر بن محمد (عليه السلام) خلق كثير. ولكنّ فقهه الذي أراد الله تعالى أن يكون خالداً مع الزمن، وهو المتبع عند الشيعة، والمرجع في أهم الاحكام، انحصر تلقيه عن جماعة اختصوا بالإمام الصادق (عليه السلام)، وواصلوا دراستهم عنده، وكانوا من العدالة والوثاقة بمنزلة تجعلهم أهلاً لقبول ما يروى عنهم من فقهه، الذي ينبع فيضه من بحار آبائه، الذين هدى الله بهم الأمة، وأوجب محبّتهم على الخاصة والعامة.

وقد أشرنا فيما سبق إلى أنّ عدداً من تلامذته، وهم أربعمائة قد ألّفوا في فقهه والرواية عنه أربعمائة كتاب، وهي: أُصول الفقه للمذهب الجعفري المعروفة بالأُصول الأربعمائة. وقد جمعت هذه الكتب في الكتب الأربعة وهي: الكافي، والاستبصار، والتهذيب، وما لا يحضره الفقيه[٧٥].

وكان الإمام الصادق (عليه السلام) ينظر إلى أصحابه على قدر كفايتهم الموهوبة كلّ على حسب استعداده وتمكّنه، فاختصّ بجماعة منهم فكانوا خير معين على حلّ المشاكل التي تحلّ بالمجتمع، والتي يهتمّ بها الإمام الصادق (عليه السلام) أشدّ الاهتمام. فهم يقومون بتنفيذ الخطط التي يرسمها لهم، وتحت إشرافه يكون قيامهم بها، فهو المصدر الأول والمنتهى الأخير لتلك التعاليم التي تقوم بها النخبة الصالحة من أصحابه.

وكانت لهم اليد الطولى في خوض معارك الحياة الاجتماعية والسياسية، وفي محاربة أهل الإلحاد والزندقة، ومناظرة أهل العقائد الفاسدة، والفرق الشاذّة، ومقابلة الظلمة في شدّة الانكار عليهم، وتوجيه الانتقاد إليهم بطرق مختلفة.

وكان (عليه السلام) يشيد بذكر خُلّص أصحابه، ويظهر للناس كفايتهم. وحيث كان ترد عليه الوفود من سائر البلاد الإسلامية للاستفادة مرّةً، وللمناظرة أُخرى. فقد جعل لكلّ واحد من أصحابه وظيفة خاصّة يقوم بها عندما يعوّل في الجواب عليه، إظهاراً لفضله وعلوّ منزلته.

---

(٧٤) من كلمة عن دار التقريب بمصر.

(٧٥) حصر الاجتهاد آقا بزرك تهراني ص٤١، الاجتهاد والتقليد، السيد الخوئي ص١٦ .

فجعل أبان بن تغلب للفقه، وأمره أن يجلس في المسجد فيفتي الناس. ووكّل لحمران بن أعين الأجوبة عن مسائل علوم القرآن، وزرارة بن أعين للمناظرة في الفقه، ومؤمن الطاق للمساجلة في الكلام، والطيار للمناظرة في الاستطاعة وغيرها، وهشام بن الحكم للمناظرة في الإمامة والعقائد. وكان منهم جماعة يتجوّلون في الأمصار وأمدّهم بالأموال للتجارة، والقصد من ذلك أن يمتزجوا بالمجتمع. لتوجيه الناس والدعوة إلى مذهب أهل البيت(عليهم السلام) .

وهكذا كان يوجّه أصحابه ويجعل لكلّ واحد جهة، وعلى كلّ واحد أداء رسالة خاصة. ولا يسعنا - ونحن بهذه العجالة - أن ندرس حياة أُولئك العظماء الذين وقفوا إلى جانب أهل البيت(عليهم السلام)، واتّبعوا الحقّ أينما سارت ركائبه. فكانوا أعلاماً يهتدى بهم، وعلماء يرجع إليهم في أهمّ المسائل العلمية، مع خطورة الموقف، وعظيم المراقبة من قبل السلطة، ومعارضة أعوانها لهم، وقد وقفوا بصلابة الإيمان، ونفاذ البصيرة، يتحدّون كل مقابلة، واجتازوا كلّ الصعاب التي تعترضهم; ليصلوا الى الهدف الذي عاهدوا الله على الوصول إليه، وأنّ دراسة حياتهم دراسة مستفيظة أمر ليس بالهيّن إدراكه; ولهذا فقد اكتفينا بالإشارة للبعض بإلمامة موجزة وعرض قليل، إتماماً للغرض ووفاءً بالوعد. وقد ألّف علماؤنا كتباً مطوّلة في تراجمهم ودراسة حياتهم.

وقد رأينا لزاماً أن نتكلم عن هشام بن الحكم بصورة واسعة بالنسبة لغيره، لا بالنسبة لدراسة حياته، لنعرف بذلك منهجه في تفكيره وبيان عقيدته. ونقف على بواعث الاتّهام له بتلك العقائد الفاسدة، عسانا نوفّق لكشف تلك الحجب التي غطّت وجه الحقيقة في معرفة هشام ودراسة شخصيته.

أمّا أصحاب الإمام الصادق(عليه السلام) فأخذنا بعضاً من البارزين منهم ممّن أسهموا في الحركة العلمية، واشتهروا بالفقه والرواية وعلوم القرآن وفنون الإسلام، فتوسعنا فيهم وأوردنا تراجم الآخرين من تلامذته ورواة حديثه.

أبان بن تغلب

نسبه وأقوال العلماء فيه

أبان بن تغلب بن رباح [٧٦]، هو أبو سعيد البكري الجريري المتوفى سنة (١٤١ هـ) كان جليل القدر، عظيم المنزلة، لقي الإمام زين العابدين، والباقر والصادق، وكانت له حلقة فى المسجد.

وقال ياقوت الحموي: كان قارئاً لغوياً فقيهاً إمامياً، ثقة عظيم المنزلة، جليل القدر، روى عن علي بن الحسين، وأبي عبد الله(عليهم السلام)، وسمع من العرب وصنف غريب القرآن وغيره.

وقال الذهبي: أبان بن تغلب شيعيّ جلد صدوق، لكنّه مبتدع، فلنا صدقه وعليه بدعته. وقد وثّقه أحمد بن حنبل وابن معين. روى عنه موسى بن عقبة وشعبة وحماد بن زيد وابن عيينة وجماعة.

وقال ابن عدي: له نسخ عامتها مستقيمة، إذ روى عنه ثقة، وهو من أهل الصدق في الرواية وإن كان مذهبه مذهب الشيعة، وهو في الرواية صالح لا بأس به.

وقال الحاكم: كان قاص الشيعة وهو ثقة، ومدحه ابن عيينة بالفصاحة.

وقال أبو نعيم في تاريخه: مات سنة (١٤٠ هـ) وكان غاية من الغايات.

وقال العقيلي: سمعت أبا عبد الله يذكر عنه عقلاً وأدباً وصحة حديث، إلاّ أنّه كان غالياً في التشيّع.

وقال ابن سعد: كان ثقة وذكره ابن حبان في الثقات .

وقال الأزدي: كان غالياً في التشيّع وما أعلم به في الحديث بأساً.

خرّج حديثه مسلم في صحيحه، والترمذي، وأبو داود، والنسائي وابن ماجة. وهو ممّن أجمعوا على قبول روايته وصدقه، واعترفوا بعلوّ منزلته، فلا يضرّ قول من

---

(٧٦) ترجمته في تهذيب التهذيب لابن حجر ج١ ص٩٣، وطبقات ابن سعد ج٦ ص٢٥٠ وفهرست ابن النديم ص٣٠٨، ومعجم الأدباء ج١ ص١١٧، وبغية الوعاة ص١٧٦، وميزان الاعتدال ج١ ص٤، وخلاصة تذهيب الكمال ص١٣، وشذرات الذهب ج١ ص٢١٠، وطبقات القراء لشمس الدين الجزري ج١ ص٨٦، ومرآة الجنان ج١ ص٢٩٣، ومنهج المقال، والخلاصة، وفهرست الشيخ الطوسي وغيرها.

زاغ عن الحقّ في طعنه - في أبان - كإبراهيم الجوزجاني[٧٧]حيث يقول: أبان زائغ مذموم المذهب مجاهر.

قال ابن حجر: وامّا الجوزجاني فلا عبرة بحطّه على الكوفيين، فالتشيّع في عرف المتقدمين هو اعتقاد تفضيل عليّ(عليه السلام) على عثمان، وأنّ علياً كان مصيباً في حروبه وأن مخالفه مخطئ، وربّما اعتقد بعضهم أنّ علياً أفضل الخلق بعد رسول الله، وإذا كان معتقد ذلك ورعاً ديّناً صادقاً مجتهداً فلا تردّ روايته.

وعلى أيّ حال فلا يهمّنا قول الجوزجاني، ولا نودّ أن نخوض في بحث يقصينا عن الغاية، ونكتفي بأن نحيل القارئ المنصف المتجرّد عن نزعة الهوى إلى مراجعة تاريخ حياة الجوزجاني، ويقف هناك وقفة قصيرة فيعرف نزعة الرجل التي اتصف بها، فهو خارجي يرى رأي الحرورية[٧٨]، وكان شديد الميل على علي (عليه السلام) ، يذهب مذهب أهل الشام الذين تغذّت أدمغتهم بأباطيل معاوية وأضاليله، حتى سلك الناس طرقاً ملتوية وزاغوا عن الحقّ اتباعاً لمن لا يروق له قول الحقّ.

وقد اتّصف الجوزجاني أيضاً بأنه حريزي المذهب، أي يذهب مذهب «حريز بن عثمان» المعروف بالعداء لعليّ بن أبي طالب (عليه السلام)، فقد كان حريز [٧٩] أموي النزعة شامي النشأة يحمل على عليّ، وقيل: إنّه يسبّه.

ومن الغريب أنّهم يصفون من عرف ببغض عليّ(عليه السلام) بالصلابة في السنّة كما وصفوا عليّ بن الجهم والجوزجاني[٨٠].

ولا أدري أيّ سُنة هذه التي يتّصف بها مبغض علي (عليه السلام)؟ أجل أين قول الرسول(صلى الله عليه وآله): **«ياعلي لا يحبّك إلاّ مؤمن ولا يبغضك إلاّ منافق»** وهذا الحديث خرّجه الحفاظ من طرق متعدّدة، ورواه مسلم [٨١]، والنسائي[٨٢]، وابن عبد البر[٨٣]. والطبري [٨٤]، وغيرهم.

---

(٧٧) هو إبراهيم بن يعقوب السعدي المتوفى سنة (٢٥٦ هـ) سكن دمشق، كان من المتحاملين على أهل البيت ويتجاهر بنصب العداء لهم.

(٧٨) تهذيب التهذيب ج١ ص١٨١ - ١٨٣.

(٧٩) حريز بن عثمان الرحبي المتوفى سنة (١٦٣ هـ) من رجال البخاري والأربعة، وكان معروفاً بالنصب. ويقول: لا أحبّ علياً لأنه قتل آبائي. وحكى الناس عنه أيضاً سوء الاعتقاد وفساد المذهب، ولكن البخاري خرّج حديثه ووثّقه، كما وثقه أحمد بن حنبل. ترجمته في تاريخ بغداد ج ٨ ص ٢٦٥ - ٢٧٠ والخلاصة ص٦٤ وغيرهما.

(٨٠) تهذيب التهذيب ج١ ص١٦٤ ح ٢٩٩.

(٨١) صحيح مسلم ج١ ص٨٦ ح١٣١ «كتاب الإيمان».

(٨٢) خصائص أمير المؤمنين للنسائي ص١٠١ ح٩٨ .

وقد كان أصحاب النبيّ(صلى الله عليه وآله) يعرفون إيمان الرجل بحبّه لعلي، ونفاقه ببغضه له، متخذين من هذا الحديث قاعدة مطّردة.

وكيف كان فإن بدعة أبان التي وصفه بها الجوزجاني والذهبي هي موالاته لعليّ، وصلابة الجوزجاني في السنة هي بغضه لعليّ، والحكم في هذا للقارئ المنصف.

علمه وشيوخه

وكان أبان بن تغلب من الشخصيات الإسلامية التي امتازت باتقاد الذهن، ووفور العقل، وبُعد الغور، والاختصاص بعلوم القرآن، وهو أوّل من ألّف في ذلك. وكان فقيهاً يزدحم الناس على أخذ الفقه عنه، وإذا دخل مسجد المدينة المنورة أخليت له سارية النبي (صلى الله عليه وآله) فيحدّث الناس. وله علم باختلاف الأقوال، وقد شهد له معاصروه بالفضل والتفوّق. ويكفيه - شهادة في التقدم - أنّ الإمام الباقر والإمام الصادق (عليهما السلام) أمراه أن يحدّث الناس في مسجد النبي (صلى الله عليه وآله) وكلٌّ يقول له: «**اجلس في مسجد المدينة وافت الناس فإنّي أحبّ أن يُرى في شيعتي مثلك**»(٨٥).

وأخذ أبان علمي الفقه والتفسير عن أئمة أهل البيت(عليهم السلام)فقد حضر عند الإمام زين العابدين، ومن بعده عند الإمام الباقر، ثم عند الإمام الصادق (عليه السلام)فهؤلاء شيوخه واساتذته، وهو من كبار أصحابهم والثقات في رواياتهم.

وقد عدّ علماء الرجال من جملة أساتذة أبان جماعة منهم :

الحكم بن عتيبة الكندي المتوفى سنة (١١٥ هـ) وهو من رجال الصحاح الستة، ومن حملة الحديث وأعلام الأمة.

وفضيل بن عمرو الفُقَيمي أبو النظر الكوفي المتوفى سنة (١١٠ هـ) خرّج حديثه مسلم والأربعة.

وأبو إسحاق عمرو بن عبد الله الهمداني السبيعي، المتوفى سنة (١٢٧ هـ) وهو أحد أعلام التابعين، ومن رجال الصحاح الستة.

تلامذتـه

---

(٨٣) الاستيعاب بهامش الاصابة ج٣ ص٧٣ .

(٨٤) الرياض النضرة ج٤ ص١٤٩.

(٨٥) منتهى المقال ج١ ص١٣٣ / ١١.

وروى الحديث عنه خلق كثير منهم :

موسى بن عقبة الأسدي المتوفى سنة (١٤١ هـ) من رجال الصحاح الستة، وثّقه ابن معين، وأحمد، وأبو حاتم. وقال مالك: عليكم بمغازي موسى بن عقبة. وقد صنّف فيها وأجاد[٨٦].

وشعبة بن الحجاج تقدّمت ترجمته في الجزء الأول .[٨٧]

وحماد بن زيد بن درهم الأزدي أبو إسماعيل الأزرق البصري الحافظ المتوفى سنة (١٩٧ هـ) عن إحدى وثمانين سنة. قال ابن مهدي: ما رأيت أحفظ منه ولا أعلم بالسنّة ولا أفقه بالبصرة منه. وقال أحمد: هو من أئمة المسلمين.[٨٨]

وسفيان بن عيينة تقدمت ترجمته في الجزء الأول .[٨٩]

ومحمد بن خازم التميمي أبو معاوية الضرير المتوفى سنة (١٩٥ هـ)، خرّج حديثه أصحاب الصحاح الستة، وروى عنه أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، وابن المديني وابن معين. وكان أحفظ الناس لحديث الأعمش.[٩٠]

وعبد الله بن المبارك بن واضع الحنظلي مولاهم أبو عبد الرحمن المروزي المتوفى سنة (١٨١ هـ) أحد الأعلام، ومن رجال الصحاح الستة. قال ابن المبارك : كتبت عن أربعة آلاف شيخ فرويت عن ألف، وثّقه جماعة.[٩١]

هؤلاء الذين ذكرهم ابن حجر في «تهذيب التهذيب» والخزرجي في «خلاصة تهذيب الكمال» وغيرهما. وهذه عادة علماء الرجال أن يذكروا من تلامذة الشخص بعضاً ويتركوا آخرين. ويعبّرون عن ذلك بقولهم: وجماعة، وآخرين، وخلق كثير.

ونظراً لمنزلة أبان العلميّة ومكانته في الفقه، وكثرة الآخذين عنه لابدّ وأن يكون له عدد كثير من التلاميذ، وحيث لا يمكننا إحصاؤهم فنعوّل في ذلك بالرجوع إلى «جامع الرواة»[٩٢] فقد ذكر عدداً وافراً ممن روى عن أبان، وأشار الى موضع الرواية عنه في كتب الأصحاب.

---

(٨٦) تهذيب الكمال ج٢٩ ص١١٥ / ٦٢٨٢.

(٨٧) راجع ج١ من هذا الكتاب ص ٢١٤. وكذلك جاءت ترجمته في الجزء الثاني ص١٠٧.

(٨٨) تهذيب الكمال ج٧ ص٢٣٩ / ١٤٨١ .

(٨٩) الجرح والتعديل، أبوحاتم الرازي ج٧ ص٢٤٦، ترجمة رقم ١٣٦٠.

(٩٠) تهذيب التهذيب ج٩ ص١١٦ / ٦٠٩٠.

(٩١) تهذيب الكمال ج١٦ ص٥ / ٣٥٢٠، تاريخ بغداد ج١٠ ص١٥١ / ٥٣٠٦.

(٩٢) جامع الرواة ج١ ص٩ - ١١.

مكانته وكفايته العلمية

وصفوة القول أنّ أبان بن تغلب شخصية اسلامية، قد أهمل التاريخ أكثر مآثره، وبخسه أكثر علماء الرجال حقّه، ولم يعطوه ما يستحقه من البيان. والأسباب غير مجهولة، فإنّ تدوين التاريخ جاء في عصور قد اشتدّت فيها النعرة الطائفية، فأسرع أكثر الكتّاب والمؤرّخين إلى مجاراة الدولة، والخضوع لأوامر السلطة. وإنّ أبان من أعيان الشيعة، والشيعة ـ كما لا يخفى ـ هم الحزب المعارض لسلطان الجور، وحكّام الاستبداد.

وكيف نرجو من أولئك المؤرخين أن يعطوا رجال الشيعة حقّهم من البيان مع بخسهم حقّ عترة الرسول وأئمة الهدى؟ فإنّهم يتحرّجون عن ذكر ما لهم من المآثر، وما خصّهم الله به من الفضائل، فتراهم عند ترجمة أيّ واحد من

الأئمة يستعملون الإيجاز المخل.

لقد عاش أبان بن تغلب مدة من الزمن وهو ملازم لأهل البيت(عليهم السلام)يأخذ عنهم، حتى أنّه كان يحفظ عن الإمام الصادق (عليه السلام) ثلاثين ألف حديث[٩٣].

وكان الإمام الصادق (عليه السلام) يرشد إليه في أخذ الأحكام، ورواية الحديث.

قال سليم بن أبي حبّة: «كنت عند أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) فلما أردت أن أفارقه، ودعته وقلت: أحبّ أن تزوّدني. فقال: إئت أبان بن تغلب فإنّه قد سمع مني حديثاً كثيراً، فما روى لك فاروه عني»[٩٤].

وممّا يدلّ على إحاطة أبان وتفوّقه في الحديث أنّه كان يجلس في مسجد النبي (صلى الله عليه وآله) فيجيء إليه الناس ويسألونه فيخبرهم على اختلاف الأقوال، ثم يذكر قول أهل البيت(عليهم السلام)ويسوق أدلّته ومناقشته، لأنّه يرى أنّ الحقّ مع أهل البيت (عليهم السلام) ، وأنّ قولهم الفصل.

يحدّثنا عبد الرحمن بن الحجاج قال: كنّا في مجلس أبان فجاءه شابٌ فقال: يا أبا سعيد، أخبرني كم شهد علي بن أبي طالب من أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله)؟ فقال له أبان: كأنك تريد أن تعرف فضل علي بن أبي طالب ومن تبعه من أصحاب رسول الله؟ فقال الرجل: هو ذاك.

---

(٩٣) منهج المقال ص٨٦.

(٩٤) رجال النجاشي ج١ ص٧٣ / ٦ .

فقال أبان: والله ما عرفنا فضلهم - أي الصحابة - إلاّ باتّباعهم إياه - يعني علياً - فقال أبو البلاد: «عض ببظر أمة رجل من الشيعة في أقصى الأرض وأدناها يموت أبان لا تدخل مصيبته عليه»[٩٥].

فقال أبان: يا أبا البلاد أتدري من الشيعة؟ الشيعة الذين إذا اختلف الناس عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أخذوا بقول عليّ(عليه السلام)، وإذا اختلف الناس على عليّ أخذوا بقول جعفر بن محمد (عليه السلام).

وقال أبان: مررت بقوم يعيبون عليّ رواية جعفر بن محمد فقلت: كيف تلومونني في روايتي عن رجل ما سألته عن شيء إلاّ قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وآله) ؟[٩٦]

مؤلّفاته

١ - «غريب القرآن» وهو أوّل تأليف في ذلك، فصار أساساً لعلم اللغة، وقد ذكر شواهده من الشعر، فجاء فيما بعد عبد الرحمن بن محمد الأزدي الكوفي فجمع من كتاب أبان، وكتاب محمد بن السائب الكلبي، وأبي ورق عطية بن الحرث فجعلهما كتاباً واحداً، وبيّن فيه ما اختلفوا فيه وما اتفقوا عليه فتارة يجيء كتاب أبان مفرداً وتارة مشتركاً.

٢ - «كتاب الفضائل» .

٣ - «كتاب معاني القرآن».

٤ - «كتاب القراءات».

٥ - «كتاب الأُصول في الرواية على مذهب الشيعة»، ذكره ابن النديم في الفهرست.[٩٧]

وله مناظرات ومجادلات وقراءة للقرآن مفردة مقرّرة عند القراء.

قال محمد بن موسى: ما رأيت أقرأ منه قطّ. وقال محمد بن إبراهيم الشافعي: كان أبان مقدّماً في كلّ فن من العلم: في القرآن، والفقه، والحديث، والأدب واللغة.

وعلى أيّ حال فقد كان أبان من رجال الأُمة المبرزين في العلم ومن حملة فقه آل محمد (صلى الله عليه وآله)، حفظ عن الإمام الصادق (عليه السلام) ثلاثين ألف حديث، وكان

---

(٩٥) معجم رجال الحديث ج١ ص١٣٢، نهج السعادة ج٧ ص١٩٣.

(٩٦) رجال النجاشي ج١ ص٧٣ / ٦.

(٩٧) الفهرست لابن النديم ص٢٧٦.

لعظم منزلته إذا دخل المدينة تفوضت إليه الحلق وأخليت له سارية النبي(صلى الله عليه وآله).[٩٨]

ولقد كان من المقرر المضيّ في دراسة مشاهير الرواة عن الإمام الصادق (عليه السلام)وحملة فقهه بنفس الأسلوب الذي سرت عليه في دراسة حياة «أبان» من ذكر الشيوخ والتلاميذ والأقوال فيه مع مراعاة الاختصار.

لكني تبينت جليّاً عدم استطاعتي استيفاء هذا الغرض. لأنّ ذلك مما يضيق به وسع الكتاب فالتجأت إلى حذف كثير ممّا أعددته من الدراسات لهذا الجزء، وفضّلت الاقتصار على دراسة حياة أبان بن تغلب، ومؤمن الطاق، وهشام بن الحكم كما هو المقرر في الأصل، واكتفيت بدراسة حياة الآخرين بالاختصار مرّةً وبالإشارة أُخرى. واخترنا مختصرين عدداً منهم:

أبان بن عثمان

أبان بن عثمان بن يحيى بن زكريا اللؤلؤي المتوفى سنة (٢٠٠ هـ)[٩٩]، كان من أهل الكوفة، وكان يسكنها تارة ويسكن البصرة أخرى. وقد أخذ عنه من أهل البصرة: أبو عبيدة معمر بن المثنى، وأبو عبد الله محمد بن المثنى، وأبو عبد الله محمد بن سلام الجمحي، وأكثروا الحكاية عنه في أخبار الشعراء والنسب والأيام. روى عن أبي عبد الله، وأبي الحسن موسى بن جعفر، وما عرف من مصنفاته إلا كتاب جمع فيه المبدأ، والمبعث، والمغازي، والوفاة، والسقيفة والردة.

ولأبان أصل يرويه الشيخ الطوسي عن عدّة من الأصحاب.

وكان أبان من الستة الذين أجمعت العصابة على تصحيح ما يصحّ عنهم، والإقرار لهم بالفقه، وهم: جميل بن دراج، وعبد الله بن مسكان، وعبد الله بن بكير، وحماد بن عيسى، وحماد بن عثمان، وأبان بن عثمان.

وقد روى عن أبان خلق كثير، منهم الحسن بن علي الوشا، وعلي بن الحكم الكوفي، وفضالة بن أيوب، والحسين بن سعيد، وصفوان بن يحيى، وعيسى الفراء، وجعفر بن سماعة وغيرهم.

---

(٩٨) قاموس الرجال ج١ ص٧٤ .

(٩٩) معجم الأدباء ج١ ص١٠٨ - ١٠٩، ولسان الميزان ج١ ص٢٤، وبغية الوعاة ص١٧٧، وفهرست الشيخ الطوسي ص١٨، ومنهج المقال ص١٦، وجامع الرواة ج١ ص١٢ - ١٥، وغيرها من كتب الرجال والأدب.

وكان هو أيضاً يروي عن جماعة من أصحاب الإمام (عليه السلام)، كزرارة، والفضيل بن يسار، وعبد الرحمن بن أبي عبد الله وغيرهم كما هو موجود في كتب الحديث.

بريد العجلي

وبريد بن معاوية العجلي[١٠٠]، أبو القاسم الكوفي المتوفى سنة (١٥٠ هـ).

كان من أصحاب الإمام الباقر، وولده الإمام الصادق (عليهما السلام). وهو من حملة الحديث ورجال الفقه، وله منزلة عند أهل البيت(عليهم السلام)من الوثاقة وعلوّ القدر. وورد مدحه في روايات صحيحة، كما أجمعت الشيعة على تصحيح ما صحَّ عنه. والذي يظهر أنّ له منزلة سامية في نشر حديث أهل البيت(عليهم السلام)، لذلك نجد الخصوم قد وضعوا أحاديث في ذمه ليحطّوا من قدره، ويصرفوا الناس عنه، ولكنها لم تقف في طريقه، أو تعرقل سيره المتواصل في نشر المذهب، وبثّ الأحكام. وهو من الستة الذين عرفوا بأنّهم أفقه الناس وهم: زرارة بن أعين، ومعروف بن خربوذ، وبريد العجلي، وأبو بصير الأسدي، والفضيل بن يسار، ومحمد بن مسلم الطائفي، وأفقه الستة زرارة.

وقال الإمام الصادق (عليه السلام): **زرارة بن أعين ومحمد بن مسلم وبريد العجلي وأبوجعفر الأحول أحبّ الناس إليّ أحياءً وأمواتاً**[١٠١].

روى الحديث عن الإمام الباقر والإمام الصادق(عليهما السلام) ، وروى عنه داود بن يزيد بن فرقد، والحكم وإسماعيل ابنا حبيب. والقاسم بن عروة ومنصور بن يونس، وعبد الله بن المغيرة، وخلق كثير.

وكان بريد من المؤلّفين في عصر الإمام الصادق (عليه السلام). له كتاب يرويه عنه علي بن عقبة بن خالد الأسدي. وقد تقدّم ذكر بريد في الجزء الثاني من هذا الكتاب، في جملة أصحاب الإمام الباقر (عليه السلام) فلا حاجة إلى إطالة البحث.

كما تقدّمت هناك ترجمة بكير بن أعين، ومحمد بن مسلم، وزرارة بن أعين، وجابر الجعفي، وعبد الملك بن أعين، وأبي حمزة الثمالي، وحمران بن أعين، وكلّهم من الثقات وحملة فقه الإمام الباقر وولده الإمام الصادق (عليهما السلام). وأنّ التعرّض لدراسة حياتهم أمر يقصينا عن الموضوع، لاتّساع دائرة البحث، فنكتفي بما ذكرناه عنهم من الإشارة هناك.

---

(١٠٠) منهج المقال، للأسترابادي ص٦٦، وجامع الرواة ج١ ص١١٧ - ١١٩، والإمام الصادق للمظفر ص١٤٧ - ١٤٨، وغيرها كتنقيح المقال للمامقاني، ورجال أبي علي، ورجال الشيخ محمد طه نجف.

(١٠١) كمال الدين وتمام النعمة للصدوق ص٧٦، نهج السعادة ج٨ ص١٢٦، راجع كتب التراجم.

جميل بن دراج

وجميل بن درّاج بن عبد الله أبو علي النخعي[١٠٢]، مولاهم الكوفي، من أصحاب الإمام الصادق (عليه السلام) وولده أبي الحسن موسى (عليه السلام) وكان ثقة. وهو من الستة الذين أجمعوا على تصحيح ما يصح عنهم. توفي في أيام الإمام الرضا(عليه السلام)، وكان كثير الحديث، فقيهاً، زاهداً، متعبّداً، له مؤلفات، منها كتاب اشترك هو ومحمد بن حمران فيه. وله كتاب اشترك هو ومرازم بن حكيم فيه، وله أصل يرويه الشيخ الطوسي عن الحسين بن عبيد الله.

روى عنه الحديث خلق كثير كالحسن بن محبوب، وصالح بن عقبة، وعبد الله بن جبلة، وأبو مالك الحضرمي ومحمد بن عمرو وغيرهم.

وكان لجميل أخ يقال له نوح بن دراج، وكان قاضياً في الدولة العباسية وقد اشتدت الملامة عليه من قبل أصحاب الإمام الصادق(عليه السلام)، لأنّ القضاء من قبل الدولة يعدّ مؤازرة لهم، وكان نوح من رواة حديث الإمام الصادق، ولكنّه اعتذر أنّه لم يتول القضاء حتى سأل أخاه جميلاً.

جميل بن صالح

وجميل بن صالح الأسدي الكوفي. من أصحاب الإمام الصادق (عليه السلام) وولده موسى (عليه السلام)، ثقة له أصل، روى عنه جماعة كالحسن بن محبوب، وسعد بن عبدالله، وعمار بن موسى الساباطي، ومحمد بن عمر وغيرهم .[١٠٣]

حماد بن عثمان

وحماد بن عثمان بن زياد الرواسي الكوفي المتوفى سنة (١٩٠ هـ).

هو من الستة الذين أقرّت الطائفة لهم وتصحيح ما يصحّ عنهم. روى حماد عن الإمام الصادق وولده موسى الكاظم، وعن جماعة من أصحابهما (عليهما السلام).

وروى عنه جماعة منهم محمد بن الوليد، وعلي بن مهزيار، وصفوان بن يحيى وغيرهم.[١٠٤]

حماد بن عيسى

---

(١٠٢) فهرست الشيخ الطوسي ص٤٤، وجامع الرواة ج١ ص١٦٥، ومنهج المقال ص٧٨ وغيرها.

(١٠٣) جامع الرواة ج١ ص١٦٧ .

(١٠٤) جامع الرواة ج١ ص٢٧١ .

وحماد بن عيسى بن عبيدة الجهني[١٠٥] الواسطي ثم البصري ، غريق الجحفة المتوفى سنة (٣٠٨ هـ) من أصحاب الإمام الصادق والكاظم (عليهما السلام). وهو من الستة الذين أجمعت العصابة على تصحيح ما يصحّ عنهم.

حبيب بن ثابت

وحبيب بن ثابت الكاهلي[١٠٦]، مولاهم أبو يحيى الكوفي المتوفى سنة (١٢٢ هـ) من التابعين ومن رجال الصحاح الستة. روى عن زين العابدين والإمام الباقر وولده الصادق (عليهم السلام)، وعنه مسعر والثوري وشعبة وأبو بكر النهشلي وخلق كثير. وثّقه العجلي وأبو زرعة وخلق كثير، قال ابن معين: له نحو مائتي حديث.

حمزة بن الطيار

وحمزة بن محمد الطيار، كان من رجال الفقه والمتفوّقين في علم الكلام، وله مناظرات مع خصوم أهل البيت(عليهم السلام)، كما دلّت على ذلك آثاره ووردت من أحاديث أهل البيت(عليهم السلام)في مدحه. منها ما رواه أبان الأحمر عن الطيار، قال: قلت لأبي عبد الله (عليه السلام): بلغني أنّك كرهت مناظرة الناس وكرهت الخصومة. فقال: أمّا كلام مثلك فلا يكره. من إذا طار أحسن أن يقع، وإن وقع أحسن أن يطير، فمن كان هكذا فلا نكره كلامه[١٠٧]. إلى غير ذلك من الأحاديث التي لم نذكرها للاختصار. كما لم نذكر جماعة منهم : داود بن فرقد، وحميد بن المثنى العجلي، وداود الرقي، وزيد الشحام، وسدير الصيرفي، وعبد الرحمن البجلي، وداود بن يزيد الكوفي العطار، وداود بن كثير، وروح بن عبد الرحيم الكوفي، وعبد الله بن أبي يعفور الكوفي، وعبد الله بن شريك، وعبد الله ابن مسكان، والعلاء بن رزين، وعمر بن حنظلة، وشعيب العقرقوفي والمعلّى ابن خنيس.

وكلّ هؤلاء قد أعددنا لهم ترجمة وافية، ولكن ضيق المجال حال بيننا وبين نشرها.

---

(١٠٥) خلاصة تذهيب الكمال ص٧٨، وجامع الرواة ج١ ص٢٧٣، ومنهج المقال ص١٢٢.
(١٠٦) تهذيب التهذيب ج٢ ص١٨٧، والمعارف لابن قتيبة ص٢٦٨، والخلاصة للخزرجي وغيرها.
(١٠٧) منتهى المقال ج٣ ص١٣٣ / ١٠١٢ .

وممّا يلزم التنبيه عليه: أنّ أكثر من دوَّن في مناقب أئمة المذاهب قد نسبوا إلى أئمتهم من المشايخ والتلاميذ ما لا يتصل بالواقع، ولا أصل لتلك النسبة، إذ التتبع ينفي ذلك، فمثلاً نجد عدد تلاميذ أبي حنيفة من الكثرة بمكان، ولكن الواقع أن تلاميذه الذين سمعوا منه وحضروا عنده لايتجاوز عددهم أكثر من ستة وثلاثين.

أمّا المشايخ فإنّهم يخطئون كثيراً فيهم. وقد تقدّم في الجزء الأول من هذا الكتاب تكذيب دعوى سماع أبي حنيفة من الصحابة بما لا حاجة إلى إعادته، وهذا كثير عندهم في نسبة مشايخ أو تلاميذ للشخص بدون تثبّت. فمثلاً أنّهم يقولون: إنّ محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني صاحب أبي حنيفة ومدون فقهه، قد سمع من عمرو بن دينار. وهذا غير صحيح، لأنّ عمرو بن دينار قد توفي سنة (١١٥ هـ) وكانت ولادة محمد بن الحسن سنة (١٢٩هـ) [١٠٨]، فكيف يصحّ سماعه من عمرو بن دينار الذي توفي قبل ولادته بأربعة عشر عاماً؟

وحذراً من وقوع هذا الاشتباه نؤكّد أنّ العدد الذي بيّناه في تلامذة الإمام الصادق (عليه السلام) هو أربعة آلاف أو يزيدون. وهذا العدد لم يكن فيه شيء من الإدعاء أو خروج عن حدود الواقع، وإنما هو نتاج تتبّع وتمحيص وتحمّل مشقّة وعناء. ونستطيع أن نقول: إنّ عددهم كان أكثر من هذا. وبهذه المناسبة أودّ أنّ أُنبّه على شيء له أثر في الموضوع وهو: أن الشيخ الخالصي ذكر في حديثه عن الإمام الصادق (عليه السلام) ، كما جاء في سلسلة أشعّة من حياة الصادق (عليه السلام)، الحلقة الأولى ص٣٤، أنّ محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة كان من جملة تلامذة الإمام الصادق (عليه السلام). وهذا شيء ينفرد به الشيخ الخالصي، إذ التتبع لا يؤيد ذلك. وكما قلنا: إننا لم نثبت في عداد تلامذة الإمام الصادق من لا تصحّ في حقّه تلك النسبة، ولا نريد أن نلقي الأشياء جزافاً، دون تثبّت، فالتاريخ يحاسبنا على ذلك. والذي أعتقده أنّ الأمر اشتبه على الشيخ، وذلك أنّ عبد الله بن الحسن الشيباني[١٠٩]، أخا محمد بن الحسن الشيباني، كان من تلامذة الإمام الصادق (عليه السلام)ورواة حديثه.

ومن قواعد التصنيف والترجمة لدى الشيعة أن يكون بأثر وأن يدلّ على الترجمة خبر، فكتب الرجال تضمّ تراجم من استحق الترجمة بعلمه، أو اقتضت الأمانة العلمية التنويه به، ولذلك فإنّ ممّا أحصى من تلامذة الإمام الصادق هو ما كان بالشواهد والأثر.

---

(١٠٨) أُنظر الطبقات الكبرى لابن سعد ج٧ ص٢٤٢ ح٣٥٠٥ .

(١٠٩) نقد الرجال ج٣ ص٩٧ / ٣٠٤٥.

على أنّ من أهم ما يجب التركيز عليه بالقول هو أنّ تلامذة الإمام الصادق لم يكن لهم دور كدور تلامذة رؤساء المذاهب، كأبي حنيفة والشافعي ومالك وأحمد في تبويب الأقوال وجمع الآراء وانتهاج الاستقلال من بعدهم، ليدخل المذهب في دور التأسيس والإعلان، لأنّ تلامذة الإمام الصادق لا مزيد لهم على ما تلقّوه منهم (عليه السلام) إلاّ في مجال الدربة والإعداد للاجتهاد في الحوادث .

أمّا أصول المذهب وقواعده فالحمدلله هي من جذور الإسلام، تمتدّ بامتدادها ولا تبدأ بعصر دون آخر أو فترة دون أخرى، وكان الإمام الصادق(عليه السلام)يقول لأصحابه: «**إذا نزلت بكم حادثة لا تجدون حكمها فيما رووا عنا فانظروا الى ما رووه عن علي**(عليه السلام)**فاعملوا به**»(١١٠).

(١١٠) الرسائل التسع للمحقق الحلي ص٦١، خلاصة الأقوال للعلامة الحلي ص٣٣ .

مؤمن الطّاق محمد بن علي بن النعمان

نسبه وأقوال العلماء فيه

محمد بن علي بن النعمان البجلي الكوفي[١١١]، أبو جعفر، مولاهم الأحول، الملقّب بمؤمن الطاق. وهو من أصحاب الإمام جعفر الصادق (عليه السلام)، ولقّبه خصومه - شيطان الطاق - ويقال: إنّ أول من لقبه شيطان الطاق أبو حنيفة، لمناظرة جرت بين مؤمن الطاق والخوارج، وكانت الغلبة له، وأبو حنيفة حاضر فلقّبه بذلك.

وهناك رأي آخر في سبب لقبه في قول: قال ابن أبي طي: إنّه نسب إلى سوق في طاق المحامل بالكوفة، كان يجلس للصرف بها، فيقال: إنّه اختصم مع آخر في درهم زيف فغلب. فقال أنا شيطان الطاق. والصحيح: أنّ هذه النسبة كانت من خصومه وأعدائه الذين تفوّق عليهم بالمناظرة، وأعجزهم عن المقابلة له، فالتجأوا إلى لغة الانتقاص كما يأتي.

ولمّا بلغ هشام بن الحكم ذلك لقّبه: مؤمن الطاق، فعرف بذلك بين الطائفة .

وذكره المرزباني في شعراء الشيعة وأورد من شعره ما رواه عمارة بن حمزة وذلك أنّ المنصور كان إذا ذكر مدح ابن قيس الرقيات المتوفى سنة(٨٥هـ) لعبدالملك بن مروان تغيظ منه وشقّ عليه.

فقال عمارة: يا أمير فيكم رجل من أهل الكوفة أجود ممّا قال قيس. قال: ومن هو؟ قال: مؤمن الطاق وأنشده.

يامن لقلب قد شفّه الوجع *** يكاد مما عناه ينصدع
أمسى كئيباً معذباً كمداً *** تظلّ فيه الهموم تصطرع
عن ذكر آل النبيّ إذ قهروا *** واللون مني مع ذاك ملتمع
قالت قريش ونحن أسرته *** والناس ما عمروا لنا تبع
قالت قريش منا الرسول فما *** للناس في الملك دوننا طمع
قد علمت ذاك العريب فما *** تصلح إلا بنا وتجتمع

---

(١١١) لسان الميزان ج٥ ص٢٠٠، وفهرست ابن النديم ص٢٥٠، وتكملة الفهرست ص٨، والملل والنحل للشهرستاني ج١ ص١١٣، وجامع الرواة ج١ ص١٥٨، وضحى الإسلام ج٣ ص٢٧٠ - ٢٧١، ومنهج المقال ص٢١٠، وفهرست الشيخ الطوسي ص١٢١، ولباب الأنساب ج٢ ص٤٢، والكنى والألقاب ج٢ ص٢٩٨ - ٢٩٩ وغيرها.

فإن يكونوا في القول قد صدقوا *** فقد أقروا ببعض ما صنعوا
لأن آل الرسول دونهمو *** أولى بها منهمو إذا اجتمعوا
وإنّهم بالكتاب أعلمهم *** والقرب منه والسبق قد جمعوا
ما راقبوا الله في نبيّهمُ *** إذ بعد وصل أهله قطعوا[١١٢]

ووصفه المرزباني بقوله: أبو جعفر محمد بن علي بن النعمان، وإنما سمّي بالطاق، لأنه كان بطاق المحامل بالكوفة يعاني الصرف، وكان من الفصحاء البلغاء، ومن لا يطاول في النظر، والجدال في الإمامة، وكان حاضر الجواب. وذكر له عدّة مناظرات مطوّلة ومختصرة، وكانت له الغلبة فيها.

وقال ابن النديم في ترجمته: أبو جعفر محمد بن النعمان الأحول، نزل طاق المحامل بالكوفة، وتلقبه العامة بشيطان الطاق، والخاصة تعرفه بمؤمن الطاق، وشيعته - أي أصحابه - تسميه شاه الطاق أيضاً. وهو من أصحاب أبي عبد الله جعفر بن محمد الصادق (عليهما السلام). ولقد لقي زيد بن علي زين العابدين وناظره على إمامة أبي عبد الله، ولقي علي بن الحسين زين العابدين (عليهما السلام). وقيل: إنمّا سمي شيطان الطاق لأنّه كان يتصرف ويشهد الدنانير فلاحاه قوم في دينار جرّبوه وبهرجه هو، فأصاب وأخطأوا، وألزمهم الحجة، فقال: أنا شيطان الطاق. يعني طاق المحامل بالكوفة موضع دكانه، فلزمه هذا اللقب. وكان حسن الاعتقاد والهدي، حاذقاً في صناعة الكلام. سريع الخاطر والجواب. ثم ذكر مناظراته مع أبي حنيفة وستأتي[١١٣].

قال أبو خالد الكاملي: رأيت أبا جعفر صاحب الطاق وهو قاعد في الروضة، قد قطع أهل المدينة إزاره، وهو دائب يجيبهم ويسألونه، فدنوت منه وقلت: إنّ أبا عبد الله نهانا عن الكلام. فقال: أو أمرك أن تقول لي؟ فقلت: لا والله، ولكنه أمرني أن لا أكلّم أحداً. قال: فاذهب وأطعه فيما أمرك. فدخلت على أبي عبدالله(عليه السلام)فأخبرته بقصة صاحب الطاق، فتبسم أبو عبد الله (عليه السلام)وقال: **يا أبا خالد، إنّ صاحب الطاق يكلّم الناس فيطير، وأنت إن قصّوك لن تطير**[١١٤].

علمه ونبوغه

---

(١١٢) المرزباني شعراء الشيعة ص٨٦.
(١١٣) الفهرست لابن النديم: ٢٢٤ .
(١١٤) الكنى والألقاب ج٢ ص٢٩٨.

وكان محمد بن علي بن النعمان كثير العلم، متفوقاً في معارفه، قويّاً في حجته، تعددت فيه نواحي العبقرية والنبوغ. فهو عالم بالفقه، والكلام، والحديث، والشعر، وكان قويّ العارضة، سريع الجواب، واضح الحجة.

اشتغل بالتجارة وانتقل بين أكثر المدن الإسلامية، وعرف بتشيّعه وإخلاصه لأهل البيت(عليهم السلام)ولقي من عنَت خصومهم والمناوئين لهم ما نغص عليه عيشه، ولكن لم يحل ذلك بينه وبين الإعلان بمبدئه، والجهر في دعوته. وكان يتمتّع بشخصية فذّة، يعترف له الناس بالفضل والعلم، والنبوغ والتفوق .

وقد كان عصره يقضي على المفكرين - من أمثاله - بكبت الشعور وكمّ الأفواه، وتمويه الحقائق، ولكنّه لم يخضع لذلك الحكم الجائر، فهو لا يزال يدعو بالحق، ويعلن بفضل عليّ، ويظهر تمسكه بأبنائه.

مناظراته واحتجاجه

كان مؤمن الطاق يمتاز بقدرة فائقة على الجدل، وقوّة في التفكير، ومهارة في الاستنباط. ويكاد المؤرخون يجمعون على تفوّقه، في سرعة الجواب وقوّة العارضة. وإذا أردنا استقصاء مناظراته فالأمر يستلزم الإطالة، ولكنّنا نكتفي بالبعض منها، وهي كثيرة مبعثرة في بطون الكتب.

١ - اجتمع قوم من الخوارج وقوم من الشيعة بالكوفة عند أبي نعيم النخعي، فقال أبو حدرة الخارجي: إنّ أبا بكر أفضل من عليّ وجميع الصحابة بأربع خصال: فهو ثان لرسول الله في بيته، وهو ثاني اثنين معه في الغار، وهو ثاني اثنين صلّى بالناس آخر صلاة قبض بعدها رسول الله، وهو ثاني صدّيق في الأمة.

فردّ عليه شيطان الطاق - على حدّ تعبير الدكتور أحمد امين - وقال: يا ابن أبي حدرة، أترك النبيّ (صلى الله عليه وآله) بيوته التي أضافها الله إليه، ونهى الناس عن دخولها إلا بإذنه، ميراثاً لأهله وولده؟ أو تركها صدقة على جميع المسلمين؟

فإن تركها ميراثاً لولده وأزواجه فقد ترك تسع زوجات، فليس لعائشة إلا نصيب إحداهن، أي لم يكن لها أن تدفن أبا بكر في بيته ونصيبها لا يسمح بذلك.

وإن تركها ميراثاً لجميع المسلمين فإنّه لم يكن له نصيب من البيت إلاّ كما لكل رجل من المسلمين.

وأما قولك: إنّه ثاني اثنين إذ هما في الغار، فإنّ مكان عليّ في هذه الليلة على فراش النبي (صلى الله عليه وآله)، وبذل مهجته دونه أفضل من مكان صاحبك في الغار.

وأمّا قولك: في صلاته بالناس، فقد تقدّم ليصلي بالناس في مرض رسول الله (صلى الله عليه وآله)، فخرج النبيّ وتقدّم فصلى بالناس وعزله عنها، ولو كان قد صلى بأمره لما عزله من تلك الصلاة.

وأمّا تسميته بالصدّيق، فهو شيء سمّاه الناس. إلى آخر المناظرة[١١٥].

٢ - عن أبي مالك الأحمسي قال: خرج الضحاك الشادي بالكوفة فحكم وتسمّى بإمرة المؤمنين، ودعا الناس إلى نفسه، فأتاه مؤمن الطاق، فلما رأته الشراة وثبوا في وجهه فقال لهم: جانح، فأتوا به صاحبهم، فقال له مؤمن الطاق: أنا رجل على بصيرة من ديني فأحببت الدخول معكم.

فقال الضحاك لأصحابه: إن دخل هذا معكم نفعكم. ثم أقبل مؤمن الطاق على الضحاك فقال: لم تبرأتم من علي بن أبي طالب، واستحللتم قتله وقتاله؟

قال الضحاك: لأنه حكم في دين الله.

قال مؤمن الطاق: وكل من حكم في دين الله استحللتم دمه وقتاله والبراءة منه؟

قال: نعم .

قال: فأخبرني عن الدين الذي جئت أناظرك عليه، لأدخل معك إن غلبت حجتي حجتك، أو حجتك حجتي، من يوقف المخطئ على خطئه ويحكم للمصيب بصوابه؟ فلا بدّ لنا من إنسان يحكم بيننا. فأشار الضحاك إلى رجل من أصحابه وقال: هذا الحكم بيننا، فهو عالم بالدين.

قال مؤمن الطاق: وقد حكمت هذا في الدين الذي جئت أناظرك فيه؟

قال: نعم. فأقبل مؤمن الطاق على أصحاب الضحاك فقال: إنّ صاحبكم قد حكم في دين الله فشأنكم به. فاختلف أصحابه وأسكتوه، وخرج مؤمن الطاق منتصراً[١١٦].

٣ - كانت الخصومة بين مؤمن الطاق وأبي حنيفة شديدة جداً، لأنّا نرى كثرة المناظرة بينهما، وأهمّها في الإمامة والتفضيل، وبدون شك أنّ أبا حنيفة لم يكن معروفاً بعلم الكلام، وليس له قوة على مقابلة من تفوّق به. وإنّ مؤمن الطاق كان معروفاً بعلم الكلام وقوّة الحجة، وسرعة الجواب، وشدّة العارضة. فهو دائماً يتفوق في مناظراته، ويسمو في حجته.

قال ابن حجر: وقعت له - أي لمؤمن الطاق - مناظرة مع أبي حنيفة في شيء يتعلق بفضائل علي، فقال أبو حنيفة كالمنكر عليه: عمّن رويت حديث ردّ الشمس لعلي؟

---

(١١٥) ضحى الإسلام، للدكتور أحمد أمين ج٣ ص٢٧٠ - ٢٧١.

(١١٦) رجال الكشي ص١٨٥ - ٣٣٠ .

فقال مؤمن الطاق: عمّن رويت أنت عنه يا سارية الجبل.[١١٧]

وقال أبو حنيفة له يوماً: ما تقول في المتعة؟ قال: حلال. قال أبو حنيفة: أيسرّك أن تكون بناتك وأخواتك يُمتع بهنّ؟

قال مؤمن الطاق: شيء أحلّه الله، ولكن ما تقول أنت في النبيذ؟ قال: حلال.قال مؤمن الطاق: أيسرّك أن تكون بناتك وأخواتك نباذات «هن»؟[١١٨]

ولما مات الإمام الصادق (عليه السلام) قال له أبو حنيفة: قد مات إمامك. قال: لكن إمامك من المنظرين. أولا يموت إلى يوم القيامة.[١١٩]

وفي لفظ الخطيب البغدادي: لما مات جعفر بن محمد، إلتقى هو - أي مؤمن الطاق - وأبو حنيفة. فقال له أبو حنيفة: أمّا إمامك فقد مات، فقال شيطان الطاق: أمّا إمامك فمن المنظرين الى يوم الوقت المعلوم[١٢٠].

وقال الخطيب : كان أبو حنيفة يتّهم شيطان الطاق بالرجعة، وكان شيطان الطاق يتّهم أبا حنيفة بالتناسخ. فخرج أبو حنيفة يوماً الى السوق فاستقبله شيطان الطاق ومعه ثوب يريد بيعه، فقال له أبو حنيفة: أتبيع هذا الثوب الى رجوع علي؟ فقال إن أعطيتني كفيلاً أن لا تمسخ قرداً بعتك. فبهت أبو حنيفة [١٢١].

وله معه مناظرة في إبطال الطلاق الثلاث [١٢٢].

وقد ألّف مؤمن الطاق كتاباً في مناظراته مع أبي حنيفة، ولم نذكر هنا شيئاً من تلك المناظرات الكثيرة معه، واقتصرنا منها على هذا القدر القليل. ولم يكن من رأيي التعرض لأمثال هذه المناظرات، التي جرت بين مؤمن الطاق وأبي حنيفة، ولكني وقفت على بعض كتب الحنفية - التي دوّنت في مناقب إمامهم - فوجدتهم يذكرونها بصورة معكوسة، فأحببت أن أُنبّه على هذا الخطأ، لأنّ الذين ذكروا هذه المناظرات - على وجهها الصحيح - كانوا أقدم من هؤلاء المحرّفين.

فهذا ابن النديم وهو من علماء القرن الرابع، اذ كانت وفاته سنة (٣٨٥ هـ) قد ذكرها في الفهرست. أمّا الذين نقلوها على العكس فهم المتأخّرون، كابن البزاز الكردري المتوفى سنة (٦٢٧ هـ). والخوارزمي المتوفى سنة (٥٦٨ هـ). وكذلك الخطيب البغدادي المتوفى سنة (٤٦٣ هـ) ذكرها في تاريخه. ذكرها بصورتها

---

(١١٧) لسان الميزان ج٥ ص٢٩٨ / ٧٨٦٦.
(١١٨) فهرست ابن النديم ص٢٢٤ .
(١١٩) المصدر السابق.
(١٢٠) تاريخ بغداد ج١٣ ص٤١١ ح ٨٦.
(١٢١) تاريخ بغداد ج١٣ ص٤٠٩، وتكملة فهرست ابن النديم ص٨.
(١٢٢) البحار ج٤ ص٢٧١.

الواقعية ولكن الحنفية جعلوا الغالب هو المغلوب، وهذا شأن كتّاب المناقب في كثير من القضايا، والمتتبع يقف على أمور من التحريف والتحوير تبعث على العجب والاستغراب.

مؤلفاته

وكيف كان فإنّ مؤمن الطاق من فرسان حلبة علم الكلام، ومن أبطال الرجال الذين حملوا رسالة التشيع فتحمّلوا الأذى في جنب الله، ووقف مواقفَ مشرفة في الدفاع عن آل محمد (صلى الله عليه وآله). كما أنّه ألّف كتباً قيّمة في شتى المواضيع الهامّة، وقد ذكر منها الشيخ الطوسي [١٢٣] وابن النديم [١٢٤] الكتب الآتية :

١ ـ كتاب الإمامة .
٢ ـ كتاب المعرفة.
٣ ـ كتاب الرد على المعتزلة في إمامة المفضول.
٤ ـ كتاب في أمر طلحة والزبير وعائشة.
٥ ـ كتاب إثبات الوصية.
٦ ـ كتاب افعل، لا تفعل .

وله كتاب المناظرة مع أبي حنيفة.

وصية الإمام الصادق (عليه السلام) **له**

للإمام الصادق (عليه السلام) عدّة وصايا يوصي بها أصحابه بما ينفعهم في الدنيا والآخرة، وقد ذكرنا جملة منها في الجزء الثاني ، ونقتطف هنا فصولاً من وصيّته لمؤمن الطاق.

قال (عليه السلام): «**يا ابن النعمان، إيّاك والمراء فإنّه يحبط عملك، وإيّاك والجدال فإنّه يوبقك، وإياك وكثرة الخصومات، فإنّها تبعدك من الله .إنّ من كان قبلكم يتعلّمون الصمت، وأنتم تتعلّمون الكلام. كان أحدهم إذا أراد التعبد يتعلّم الصمت قبل ذلك.**

إنما ينجو من أطال الصمت عن الفحشاء، وصبر في دولة الباطل على الأذى، أولئك النجباء الأصفياء الأولياء حقّاً، وهم المؤمنون. إنّ أبغضكم إليّ المترئسون المشاؤون بالنمائم، الحسدة لإخوانهم، ليسوا منّي ولا أنا منهم، إنّما أوليائي الذين سلّموا لأمرنا، واتّبعوا آثارنا.

---

(١٢٣) الفهرست للشيخ الطوسي ص٣٢٣ / ٦٩٨.
(١٢٤) الفهرست لابن النديم ص٢٢٤ .

يا ابن النعمان، إنّا أهل بيت لا يزال الشيطانُ يدخل فينا من ليس منا ولا من أهل ديننا، فإذا رفعه ونظر إليه الناس أمره الشيطان فيكذب علينا، وكلّما ذهب واحد جاء آخر.

يا ابن النعمان، إن أردت أن يصفو لك ودُّ أخيك فلا تمازحنّه، ولا تمارينّه ولا تباهينّه. ولا تطلع صديقك من سرّك إلاّ على ما لو اطلع عليه عدوّك لم يضرّك، فإنّ الصديق قد يكون عدوّك يوماً.

يا ابن النعمان، ليست البلاغة بحدّة اللسان، ولا بكثرة الهذيان، ولكنها إصابة المعنى وقصد الحجة.

يا ابن النعمان، لا تطلب العلم لثلاث: لترائي به، ولا لتباهي به، ولا لتماري. ولا تدعه لثلاث: رغبة في الجهل وزهادةً في العلم، واستحياءً من الناس.»[١٢٥]

آراء ومناقشات

زعم المتقوّلون على مؤمن الطاق: أنّه كان من المشبّهة، وتنسب إليه فرقة يقال لهم شيطانية من مذهبهم التشبيه. وأنّه كان يقول: إنّ الله تعالى إنما يعلم الأشياء إذا قدّرها، والتقدير عنده الإرادة، وللإرادة فعل[١٢٦] وأنّه كان يذهب إلى أنّ الإله على صورة الإنسان ولا يسمّيه جسماً [١٢٧] إلى غير ذلك من الأقوال التي نطق بها من لا يبالي بمؤاخذة ولا يدري ما يقول.

إنّها لعمر الله فرية، وتقوّل بالباطل، ونحن لا نستغرب اتّهام مؤمن الطاق بما يخالف عقيدته، لأنّه كان حرباً على ذوي الآراء الفاسدة. وقد أُعطي نصيباً وافراً من قوّة العارضة وسرعة الجواب، فكان يقيم الدليل على خصمه، ويرغمه على الاعتراف بالخطأ.

ومن الواضح أنّ تلك المناقشات التي كانت تدور في أندية الكوفة كان أكثرها يهدف إلى تشويش الأفكار، والتلاعب بالعقول، لوجود طائفة من الدخلاء كان غرضهم ذلك.

وكان مؤمن الطاق وبقية خواصّ الأئمة قد بذلوا جهدهم في مقاومة أولئك الخصوم، الذين يريدون الفتك بالإسلام وأهله، فكان أهون شيء عليهم أن ينسبوا لأولئك الصفوة ما يخالف عقائدهم، والظروف تساعدهم على ذلك عندما أطلق الباطل من عقاله، فدفع صاحبه الى اتّهام البريء وبراءة المتهم.

ويكفينا في براءته وعلوّ منزلته وحسن عقيدته، ماورد في مدحه والثناء عليه عن أئمّة الهدى. وقد كان من أحبّ الناس إلى الإمام الصادق(عليه السلام). فقد صحّ عنه(عليه

---

(١٢٥) تحف العقول ص٣٠٧ - ٣١٢.

(١٢٦) لباب الأنساب ج٢ ص٤٢.

(١٢٧) الفَرق بين الفِرق للبغدادي ص١٣١، وستأتي مناقشة هذه الأقوال في دراسة حياة هشام بن الحكم.

السلام)أنه كان يقول: «**أربعة أحبّ الناس إليّ أحياءً وأمواتاً: بريد بن معاوية العجلي، وزرارة بن أعين، ومحمد بن مسلم، وأبو جعفر الأحول**» [١٢٨].

فلا تضرّه تهجّمات أولئك القوم الذين ألقوا مقاليد أمورهم للعاطفة، فاتّهموه بما هو بريء منه، ورموه بما لا يليق بشأنه.

(**وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئاً فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَاناً وَإِثْماً مُّبِيناً**)[١٢٩]

(١٢٨) رجال الكشي ص١٨٥ / ٣٢٦ .
(١٢٩) النساء: ١١٢.

هشام بن الحكم

«**يا هشام ما زلت مؤيّداً بروح القدس**» الإمام الصادق (عليه السلام)

«**رحم الله هشاماً كان عبداً ناصحاً**» الإمام الرضا(عليه السلام)

«لسان هشام أوقع في نفوس الناس من ألف سيف» هارون الرشيد

نسبه ونشأته وأقوال العلماء فيه

هشام بن الحكم الكندي أبو محمد البغدادي المتوفى سنة (١٩٧ هـ) [١٣٠].

كانت نشأته بالكوفة وواسط، ويدخل بغداد للتّجارة، ولكنّه استقام بها بعد مدّة من الزمن، ونزل قصر وضاح بالكرخ من مدينة السلام، وله دار بواسط. وكان يتجوّل للتجارة ينتقل من بلد إلى آخر وهو يرشد الناس ويدافع عن مذهب أهل البيت(عليهم السلام)ويناظر الملحدين فيفحمهم، ورجع الكثيرون الى التوحيد تسليماً لقوّة الحجّة وخضوعاً للحقّ، وهو من تلامذة الإمام الصادق(عليه السلام)، ومن خواص ولده موسى الكاظم (عليه السلام).

نشأ هشام بن الحكم بالكوفة، وكانت الكوفة مصطرعاً للآراء، وموطناً لاختلاف المذاهب التي استوطنتها، وقوي بها انتشار علم الكلام، وازدهرت أرجاؤها بحلقات العلم ورجال الفكر، فكانت هناك خصومات وجدل ونزاع بين أصحاب المذاهب المختلفة، والآراء المتفرّقة والفرق المتعددة. وقد اتّخذ كلّ فريق علم الكلام وسيلة للانتصار على خصمه، ووسيلة لتأييد رأيه وتصحيح مذهبه.

وكان هشام بن الحكم من أبرز شخصيات ذلك العصر، يمتاز بقوّة شخصيته التي جعلته مطمحاً لأنظار علماء عصره، لتفوّقه ومهارته وشدّة خصومته، وقوة حجته، ويصف ابن النديم هشاماً بقوله:

---

(١٣٠) فهرست ابن النديم ص٢٤٩، والتكملة ص ٧، والملل والنحل ج١ ص٣٠٨، ولسان الميزان ج٦ ص١٩٤، والمراجعات لشرف الدين ص٣٠٠ - ٣٠١، والانتصار للخياط في عدة مواضع، وضحى الإسلام ج٣ ص٢٦٨، والعقد الفريد ج١ ص٣٦٠، وعيون الأخبار لابن قتيبة ج٢ ص١٥، وحياة هشام بن الحكم للشيخ محمد الحسين المظفر (مخطوط)، وجامع الرواة ج٢ ص٣١٣، ونهج المقال ص٣٥٦، وحياة هشام للشيخ محمد صالح الشيخ راضي (مخطوط) وغيرها.

هشام بن الحكم من متكلمي الشيعة، ممن فتق الكلام في الإمامة، وهذّب المذهب والنظر، وكان حاذقاً بصناعة الكلام، حاضر الجواب، سئل هشام عن معاوية، أشهد بدراً؟ قال: نعم، من ذاك الجانب - أي من جانب المشركين -.

ويقول الشهرستاني: هشام بن الحكم صاحب غور[١٣١] في الأصول لا يجوز أن يغفل عن الزاماته على المعتزلة، فإنّ الرجل وراء ما يلزمه الخصم، ودون ما يظهره من التشبيه.

وقال الزركلي: هشام بن الحكم فقيه، متكلّم، مناظر، من أكابر الإمامية، ولد بالكوفة. فانقطع الى يحيى بن خالد، فكان القيم بمجالس كلامه[١٣٢].

ويقول الدكتور أحمد أمين: أما هشام بن الحكم فيظهر أنّه أكبر شخصية شيعية في علم الكلام، وكان من تلاميذ جعفر الصادق (عليه السلام) وكان جدلاً قويّ الحجّة، ناظر المعتزلة وناظروه، ونقلت في كتب الأدب له مناظرات كثيرة، دلّ على حضور بديهته وقوة حجته، الى أن يقول : والجاحظ يشتدّ عليه في المناقشة ويغضب في نقده. وستأتي بقية الأقوال فيه[١٣٣].

صلته بالإمام الصادق (عليه السلام)

اتّصل هشام بمدرسة الإمام الصادق (عليه السلام) وأصبح من أبرز رجالها في الحكمة والدراية، والعرفان، والفقه، والحديث. ويقال: إنّه كان قبل اتّصاله بالإمام يذهب إلى رأي جهم بن صفوان [١٣٤]، ولكنّه تركه عندما اجتمع بالإمام الصادق (عليه السلام) في مدينة الوحي، وقد اكتظّ المجلس بوفود الأمصار وطلاب العلم، فرأى من هيبة الإمام وروحانيته، وسمع ما طرق سمعه من أجوبته لسائليه، وحسن بيانه وعذوبة ألفاظه، ما أفقده الاعتزاز بنفسه، وعرف عجزه عن مقابلته في مسائله.

وكان الإمام الصادق (عليه السلام) قد عرف هشاماً وسمع به من قبل، فاتّجه إليه ليوجّهه إلى الحقّ، ويرشده الى الهدى، فألقى إليه سؤالاً بما كان قد اختصّ هشام به، فلم يستطع الجواب عنه، وعرف الحقّ فاتبعه «والحقّ أحقّ أن يتبع».

---

(١٣١) غور: كل شيء قعره، وعمقه، وصاحب غور هو من تعمق في علمه، حتى وصل الى حقيقته، ومنه فلان بعيد الغور أي متعمق النظر وهو بحر لا يدرك غوره. انظر في التعليق الملل والنحل ج١ ص٣١١.

(١٣٢) الأعلام ج٣ / ١١٢٣.

(١٣٣) ضحى الاسلام ج٣ ص٢٦٨ - ٢٦٩ .

(١٣٤) جهم بن صفوان إليه تنسب الفرقة الجهمية، ظهرت بدعته بترمذ وقتله سلم بن أحوز المازني بمرو، آخر الدولة الأموية، وافق المعتزلة في نفي الصفات الأزلية وزاد عليهم: انّه لا يجوز أن يوصف الباري بصفة يوصف بها خلقه لأنّ ذلك يقتضي تشبيهاً، فنفى كونه حياً عالماً، وأثبت كونه فاعلاً خالقاً لأنّه لايوصف شيء بالفعل والخلق. إلى آخر أقواله في الملل والنحل ج١ ص١١٣ .

وانقطع إلى الإمام الصادق (عليه السلام) فأصبح من خواصّه، ومن أبرز رجال مدرسته، فكان من أشهر رجال العلم، ومن أبطال الفلسفة، يمثّل في مواقفه البطولة والجرأة الأدبية، يسير مع الحقّ أينما سارت ركائبه. وفاز بالتفوّق على مناوئيه بواضح الحجة، وساطع البرهان، واستجاب الله دعوة الإمام الصادق (عليه السلام)فيه: **«يا هشام ما زلت مؤيّداً بروح القدس»**[١٣٥].

كان هشام شديد الإخلاص، قويّ الإيمان، راسخ العقيدة، يدافع عن مذهب أهل البيت(عليهم السلام)، ويتشدّد في مناقشته للخلافات المذهبية، وتفنيد آراء المتكلّمين من سائر الفرق الإسلامية الذين تأثّروا بانتقال الفلسفة اليونانية. وكان يخرج منتصراً في جميع مواقفه، لما عُرف فيه من قوّة الحجّة وسعة التفكير، وبذلك أصبح في خطر من قبل الدولة ـ كما هو شأن المفكرين وأهل الآراء الحرة من أمثاله ـ وقد عرف هشام بشدّة مناظرته في الإمامة، وانتصاره للعلويين، وهم خصوم الدولة وأهل الحقّ الشرعي.

وقد خشي الرشيد من اتّساع نشاط هشام، وتفوّقه على أكثر المفكرين من رجال عصره. فحاول الفتك به والقضاء عليه.

ولكن يحيى بن خالد البرمكي كان يدافع عن هشام، ويلطّف الجو، لأنه كان مختصاً به، حتى تغيّر قلبه على هشام لأسباب هناك، فأعرض عن دفاعه. وجرى بحث الإمامة في مجلس البرمكي، والرشيد يسمع من وراء الستر، فاشتدّت المناظرة وكانت الغلبة لهشام، فغضب الرشيد وقال: إنّ لسان هشام أوقع في نفوس الناس من ألف سيف.[١٣٦] ولكنّ الرشيد بما عُرف عنه من عداء لأهل بيت النبوّة ومقاومته لآثارهم، يرى في هشام مبتدعاً.

روي أنّ ملك الصفد كتب الى الرشيد يسأله أن يبعث إليه من يعلّمه الدين، فدعا يحيى بن خالد فعرض عليه الكتاب، فقال يحيى: لا يقوم بذاك إلاّ رجلان ببابك: هشام بن الحكم، وضرار [بن عمرو من شيوخ المعتزلة] فقال: كلاّ، إنهما مبتدعان فيلقنان القوم ما يفسدهم ويغويهم بالمسلمين، ليس لذلك إلاّ أصحاب الحديث[١٣٧].

وكان هشام قد احتلّ منزلة في حركة مدرسة الإمام الصادق الفكرية، وعمل بتوجيهات الإمام الصادق الى جانب تلامذة الإمام الآخرين ممّن مهروا في الكلام

---

(١٣٥) الفهرست لابن النديم ص٢٢٤.
(١٣٦) بحار الأنوار ج٦٩ ص١٤٨ ح١٥١.
(١٣٧) محاضرات الاصبهاني ج١ ص٣٧ ـ ٣٨ .

واختصوا بأفانين الجدل في عصر ساد الأوساط ما يشبه الموجة التي تكاد يعتورها نفس الأفكار لولا تلقّي رجال الأمة لها بالتصدّي للتخفيف منها والتحكم في شططها وانحرافها حتى تنساب برقّة وتصبّ في مجرى العقيدة بلا شوائب وأكدار. وقد عزم الإمام الصادق على انتشال هشام بن الحكم من مؤثرات ذلك العصر ثم هداه الله الى ما يريده من الإمام، وأصبحت له مكانة في النشاط الديني والفكري واحتلّ منزلة خاصة في نفس الإمام الصادق.

يروي يونس بن يعقوب قال: كنت عند أبي عبدالله(عليه السلام) فورد عليه رجل من أهل الشام فقال: إنّي رجل صاحب كلام وفقه وفرايض وقد جئت لمناظرة أصحابك، فقال له أبو عبدالله(عليه السلام): «**كلامك هذا من كلام رسول الله**(صلى الله عليه وآله) **أو من عندك؟**» فقال: من كلام رسول الله(صلى الله عليه وآله) بعضه ومن عندي بعضه. فقال له أبو عبدالله(عليه السلام): «**فأنت إذن شريك رسول الله**(صلى الله عليه وآله)**؟**» قال: لا. قال: «**فسمعت الوحي عن الله؟**» قال: لا. قال: «**فتجب طاعتك ما تجب طاعة رسول الله**(صلى الله عليه وآله)**؟**» قال: لا. قال: فالتفت أبو عبدالله(عليه السلام) اليَّ فقال: «**يا يونس بن يعقوب هذا قد خصم نفسه قبل أن يتكلم**»، ثم قال: «**يا يونس، لو كنت تحسن الكلام كلمته**» قال يونس: فيا لها من حسرة، فقلت: جعلت فداك، سمعتك تنهى عن الكلام وتقول: «**ويل لأصحاب الكلام يقولون هذا ينقاد و هذا لا ينقاد، وهذا ينساق وهذا لا ينساق، وهذا نعقله وهذا لا نعقله؟**» فقال أبوعبدالله(عليه السلام): «**إنما قلت: ويل لقوم تركوا قولي وذهبوا الى ما يريدون**»(١٣٨).

ثم تأتي رواية ابن يعقوب لتبين عظيم المكانة التي عليها هشام فيقول: الإمام الصادق والمذاهب الأربعة / ج٣

أخرج أبو عبدالله(عليه السلام) رأسه من الخيمة فإذا هو ببعير يخبّ، فقال: «**هشام وربّ الكعبة**». فظننا أنّ هشاماً من ولد عقيل كان شديد المحبّة لأبي عبدالله(عليه السلام)، فإذا هشام بن الحكم قد ورد وهو أول ما اختطّت لحيته وليس فينا إلاّ من هو أكبر سنّاً منه، قال: فوسّع له أبوعبدالله(عليه السلام) وقال: «**ناصرنا بقلبه ولسانه ويده**» ثم قال لحمران بن أعين: «**كلّم الرجل الشامي**» فكلّمه حمران فظهر عليه، ثم كلّمه الآخرون ممن حضر مجلس الإمام... يقول ابن يعقوب: ثم قال للشافعي: «**كلّم هذا الغلام**» يعني هشام بن الحكم، فقال: نعم، ثم قال الشامي لهشام: يا غلام سلني في إمامة هذا، يعني أبا عبدالله(عليه السلام) فغضب هشام حتى ارتعد، ثم قال له: أخبرني يا هذا، أربّك أنظر لخلقه أم هم لأنفسهم؟ فقال الشامي: بل ربي أنظر لخلقه. قال: ففعل بنظره لهم في

(١٣٨) الكافي ج١ ص ٧١ ح٤ .

دينهم ماذا؟ قال: كلّفهم وأقام لهم حجة ودليلاً على ما كلّفهم، وأزاح في ذلك عللهم. فقال له هشام: فما هذا الدليل الذي نصب لهم؟ قال الشامي: هو رسول الله(صلى الله عليه وآله). قال له هشام: فبعد رسول الله مَن؟ قال: الكتاب والسنّة، قال له هشام: فهل ينفعنا اليوم الكتاب والسنّة فيما اختلفنا فيه حتى يرفع عنا الاختلاف ومكّنا من الاتفاق؟ قال الشامي: نعم. قال له هشام: فَلِمَ اختلفنا نحن وأنت وجئتنا من الشام تخالفنا وتزعم أنّ الرأي طريق الدين، وأنت تقرّ بأنّ الرأي لا يجمع على القول الواحد المختلفين؟ فسكت الشامي كالمفكّر، فقال له أبو عبدالله(عليه السلام): «**مالك لا تتكلم؟**» قال: إن قلت أنا ما اختلفنا كابرت، وإن قلت إن الكتاب والسنّة يرفعان عنّا الاختلاف أبطلت، لأنهما يحتملان الوجوه.. ثم يقوم الشامي بسؤال هشام، ويجيب هشام حتى يخرج الشامي من مجلس الإمام وهو على الهدى.

الإمام الصّادق أصحابه وحَمَلة فقهه

عصره

كان عصر هشام من أزهر العصور في الكلام بجميع أُصوله، لكثرة الفرق. وجعل هاتيك الأُصول الكلامية مبتنية على القواعد المنطقية. وكانت الرغبة ملحة في النظر والجدل، فكانت المجالس تعقد للمناظرة، وتشدّ الرحال للمدارسة والاحتجاج، ولا سيّما في الإمامة، لأنّها الأصل الذي يصحّح للخليفة - بالشكل المعهود - أن يستولي به على العباد والبلاد باسم الشريعة، ويصحّح له أن يكون وليّ الأمر الذي تجب طاعته على الأُمة، أو يمنعه عن التصرّف في مقدرات البلاد، والقبض على رقاب العباد، ويأبى له من أن يكون الحجة من الخالق إلى المخلوق.

فالملوك من بني أُمية وبني العباس وقفوا سدّاً دون سيل الكلام في الإمامة لئلاّ يشيع رأي الشيعة فيها، وألجموا الأفواه، وحجروا العقول ومنعوا حرّية القول، وساروا بالناس سيرة إرهاب وتهديد.

فكان هشام بن الحكم واسطة القلادة في تلك الأندية، يساجل في كلّ أصل، فإن انتهت الخصومة إلى الإمامة، أدلى بحجّته، مصرّحاً إن أمن من العقاب، وملوّحاً إن خاف النكال .

لأنّ إثبات الإمامة في الأئمة الاثني عشر هدم لصروح إمامة الأوائل، وثلٌ لعروش الأواخر [١٣٩]. وكان لمجلس يحيى البرمكي الذي يعقد في بغداد للمناظرة أثر كبير في تنوير العقول، ولا يعقد ذلك المجلس إلاّ تحت إشراف هشام ورئاسته. ومن الحقّ أن نقول: إنّ هشاماً كان من مفاخر الأمة الإسلامية فقد جنّد نفسه لخدمة الحقّ، ونشر مبادئ الإسلام، وقد تصدّى للرد على أعداء الدين، ورفع الغشاوة من بعض العقول التي قد ركبها الشطط، وغلبها الغرور.

سأل ضرار هشام بن الحكم عن الدليل على الإمام بعد النبيّ(صلى الله عليه وآله) ، فقال هشام: الدلالة عليه ثمان دلالات: أربع منها في نعت نسبه، وأربع منها في نعت نفسه. أما الأربع التي في نعت نسبه: فأن يكون معروف القبيلة، معروف الجنس، معروف النسب، معروف البيت وذلك أنه إذا لم يكن معروف القبيلة، معروف الجنس، معروف النسب، معروف البيت جاز أن يكون من أطراف الأرض وفي كلّ جنس من الناس، فلمّا لم يجز أن يكون الدليل إلاّ في أشهر الأجناس، ولما لم يجز أن يكون إلاّ في هذا الجنس لشهرته; لم يجز أن يكون إلاّ هكذا، ولم نجد جنساً في العالم أشهر من جنس محمد(صلى الله عليه وآله) وهو جنس العرب الذي منه صاحب الملّة والدعوة الذي ينادى باسمه في كلّ يوم وليلة خمس مرّات على الصوامع والمساجد في جميع الأماكن: أشهد أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله، ووصل دعوته الى كلّ بر وفاجر من عالم وجاهل معروف غير منكر في كلّ يوم وليلة، فلم يجز إلاّ أن يكون في هذه القبيلة التي فيها صاحب الدعوة لاتصالها بالملّة، لم يجز أن يكون إلاّ في هذا البيت الذي هو بيت النبي لقرب نسبه من النبيّ(صلى الله عليه وآله)إشارة إليه دون غيره من أهل بيته، ثم إن لم يكن إشارة إليه اشترك أهل هذا البيت، وادعيت فيه، فإذا وقعت الدعوة فيه وقع الاختلاف والفساد بينهم، ولا يجوز أن يكون إلاّ من النبي(صلى الله عليه وآله) إشارة الى رجل من أهل بيته دون غيره، لئلاّ يختلف فيه أهل هذا البيت أنّه أفضلهم وأعلمهم وأصلحهم لذلك الأمر.

وأمّا الأربع التي في نعت نفسه: فأن يكون أعلم الخلق، وأسخى الخلق، وأشجع الخلق، وأعفّ الخلق وأعصمهم من الذنوب صغيرها وكبيرها، لم تصبه فترة ولا جاهلية، ولابدّ من أن يكون في كلّ زمان قائم بهذه الصفة الى أن تقوم الساعة. فقال عبدالله بن يزيد الأباضي ـ وكان حاضراً ـ : من أين زعمت يا هشام أنّه لابد أن

---

(١٣٩) عن كتاب حياة هشام لشيخنا المظفر مخطوط.

يكون أعلم الخلق؟ قال: إن لم يكن عالماً لم يؤمن أن تنقلب شرائعه وأحكامه، فيقطع من يجب عليه الحدّ، ويحدّ من يجب عليه القطع، وتصديق ذلك قول الله عزّ وجل: **(أفَمَن يَهْدِي إلَى الْحَقّ أحَقُّ أن يُتَّبَعَ أمَّن لاَيَهِدِّي إلاَّ أن يُهْدَى فمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ)**[١٤٠]. قال: فمن أين زعمت أنّه لابدّ أن يكون معصوماً من جميع الذنوب؟ قال: إن لم يكن معصوماً لم يؤمن أن يدخل فيما دخل فيه غيره من الذنوب، فيحتاج الى من يقيم عليه الحدّ كما يقيمه على غيره، وإذا دخل في الذنوب لم يؤمن أن يكتم على جاره وحبيبه وقريبه وصديقه، وتصديق ذلك قول الله عزّ وجل: **(إنّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إمَامًا قالَ وَمِن ذُرّيَّتِي قالَ لاَيَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ)**[١٤١]. قال له: فمن أين زعمت أنّه لا بدّ أن يكون أشجع الخلق؟ قال: لأنّه قيّمهم الذي يرجعون إليه في الحرب، فإن هرب فقد باء بغضب من الله ولا يجوز أن يبوء الإمام بغضب من الله، وذلك قوله عزّ وجل: **(إذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ زَحْفًا فَلاَ تُوَلُّوهُمُ الأدْبَارَ)**[١٤٢]. قال: فمن أين زعمت أنّه لابدّ أن يكون أسخى الخلق؟ قال: لأنّه إن لم يكن سخيّاً لم يصلح للإمامة، لحاجة الناس الى نواله وفضله والقسمة بينهم بالسوية، وليجعل الحقّ في موضعه; لأنّه إذا كان سخيّاً لم تتقّ نفسه الى أخذ شيء من حقوق الناس والمسلمين، ولا يفضّل نصيبه في القسمة على أحد من رعيّته، وقد قلنا إنّه معصوم، فإذا لم يكن أشجع الخلق وأعلم الخلق وأعفَّ الخلق لم يجز أن يكون إماماً[١٤٣].

ولما كان هشام قد عُرف بالتفوّق، وقوّة الحجة، وسرعة الجواب، واتقاد الذهن; فقد أصبح ذكره حديث الأندية، وقد تحامل عليه خصومه فنسبوه إلى ما لا يليق بشأنه، ولا يتّسق مع اعتقاده، لأنّ الرأي العام في ذلك العهد من أنصار الخلافة المعهودة، ولا تصغي العامة للحجج إذا خالفت الرغبة; فتوجّهوا إليه بتلك الطعون الشائنة، والتي لا تمت بشيء من الحقيقة، كما سنوافيك بجملة منها.

شيوخه وتلامذته

---

(١٤٠) يونس: ٣٥ .
(١٤١) البقرة: ١٢٤.
(١٤٢) الأنفال: ١٥ .
(١٤٣) علل الشرائع ج١ ص٢٠٤ .

أخذ هشام علم الفقه، والحديث والتفسير، وغيرها عن الإمام الصادق (عليه السلام)، وكان ملازماً له منذ نشأته، وروى عنه أحاديث كثيرة في مختلف الأحكام.

وكان الإمام الصادق (عليه السلام) يكرمه ويرفع من مقامه، وله أصل يرويه الشيخ الطوسي عن جماعة من الأصحاب.

ولما انتقل الإمام الصادق (عليه السلام) إلى جوار ربه، أصبح هشام من خواص الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام)، وروى الحديث وأخذ عنه علماً كثيراً.

أمّا تلامذته: فخلق كثير، توجد رواياتهم عنه في كتب الفقه والحديث، منهم: النضر بن سويد الصيرفي الكوفي من تلامذة الإمام الكاظم (عليه السلام)، وكان من الثقات المشهورين بالعدالة وصحّة الحديث.

ونشيط بن صالح العجلي مولاهم الكوفي، عدّه الشيخ في رجاله من تلامذة الصادق والكاظم (عليهما السلام) .

ويونس بن عبد الرحمن مولى آل يقطين، كان من أصحاب الكاظم والرضا. وله مؤلّفات كثيرة، وكان ثقة عظيم المنزلة.

وغيرهم ممّا لا يتّسع المجال لذكرهم.(١٤٤)

مؤلفاته

كانت لهشام بن الحكم مؤلّفات في شتى العلوم، ذكر منها ابن النديم :

١ ـ كتاب الإمامة.

٢ ـ كتاب الدلالات على حدوث الأشياء.

٣ ـ كتاب الرد على الزنادقة.

٤ ـ كتاب الرد على أصحاب الإثنين.

٥ ـ كتاب الرد على هشام الجواليقي.

٦ ـ كتاب الرد على أصحاب الطبائع.

٧ ـ كتاب الشيخ والغلام.

٨ ـ كتاب التدبير.

٩ ـ كتاب الميزان .

١٠ ـ كتاب الرد على من قال بإمامة المفضول.

---

(١٤٤) نقد الرجال ج٤ ص١٠٨ / ٤٤٠٧.

١١ ـ كتاب اختلاف الناس في الإمامة.
١٢ ـ كتاب الوصية والرد على من أنكرها.
١٣ ـ كتاب في الجبر والقدر.
١٤ ـ كتاب الحكمين.
١٥ ـ كتاب الرد على المعتزلة في طلحة والزبير.
١٦ ـ كتاب القدر.
١٧ ـ كتاب الألفاظ.

أجوبته ومناظراته

نشأ هشام تحت ظلال مدرسة أهل البيت(عليهم السلام)، وتغذّى منها تعاليمه القيّمة، وثقافته العالية. وامتاز بقوّة شخصيّته التي جعلته محطّاً لأنظار علماء عصره، وقد تجرّد لنصرة مذهب أهل البيت(عليهم السلام)، وناضل في الدفاع عنهم، ولم تقعد به ملاقاة عنت أو تكبد أذىً. وكان يقصده الكثير من علماء عصره الذين عُرفوا بقوة المناظرة ليناظروه ويحاجّوه في مختلف العلوم. وكان هو كذلك يتعرّض لمناظرتهم ويقصد علماء الأمصار ورؤساء الحلقات العلمية للمناظرة، طلباً لإظهار الحقّ ودفعاً للباطل.

ونظراً لما كان يمتاز به هشام من قوة العارضة، وغزارة العلم، وسرعة الجواب; فقد ترأس مجلس المناظرة الذي كان يعقده يحيى بن خالد البرمكي مساء كل جمعة ببغداد، وهو يضمّ جميع علماء الفرق، ورؤساء الأديان، وأهل الآراء، فكانوا لا يخوضون في مسألة حتى يحضر هشام فيكون قوله الفصل، وحكمه العدل. وكان الرشيد يحضر ذلك المجلس من وراء الستار - في بعض الأوقات - يستمع لتلك المناظرات ويصغي لتلك الأقوال. وأراد بعضهم أن يوقع الشرّ في قلب الرشيد على هشام، فألقى إليه سؤالا في قضية مخاصمة العباس لعلي (عليه السلام) في ميراث النبي (صلى الله عليه وآله)، وهو لا يعلم بمكان الرشيد.

قال السائل: يا أبا محمد - وهي كنية هشام - أما علمت أنّ علياً نازع العباس إلى أبي بكر؟

قال هشام: نعم .

قال السائل: فأيّهما كان الظالم لصاحبه؟ فتوقّف هشام وقال في نفسه: إن قلت العباس خفت الرشيد، وإن قلت: عليّاً ناقضت قولي وعقيدتي.

ثم قال هشام: لم يكن فيهما ظالم.

فقال السائل: أفيختصم إثنان في أمر وهما محقّان جميعاً؟

قال هشام: نعم، اختصم الملكان إلى داود وليس فيهما ظالم، وإنّما أرادا أن ينبّهاه. كذلك اختصم هذان إلى أبي بكر ليعلماه ظلمه. فأمسك الرجل[١٤٥] ووقع الجواب عند الرشيد موقع القبول ومال قلبه لهشام.

وله كثير من أمثال هذا من الأجوبة المسكتة، والكلمات التي كان يتفوق بها على خصومه. قال ابن النديم بعد وصفه بقوة الحجة وسعة التفكير، وكان هشام يقول: ما رأيت مثل مخالفينا; عمدوا إلى من ولاّه الله من سمائه فعزلوه - يعني علياً - وإلى من عزله الله من سمائه فولوه - يعني أبا بكر - . ويذكر قصة مبلغ سورة براءة، ومرد أبي بكر، وإيراد علي (عليه السلام) بعد نزول جبرائيل (عليه السلام) قائلاً لرسول الله (صلى الله عليه وآله): لا يؤدّيها عنك إلا أنت أو رجل منك. فرد أبا بكر وأنفذ علياً (عليه السلام) [١٤٦].

وعلى أيّ حال فإنّ لهشام بن الحكم أجوبة ومناظرات قد احتفظ التاريخ ببعضها، وهي خير شاهد لقوة شخصيته في شتّى العلوم.

ولا يسعنا الآن بسط القول فيها، بل نذكر نموذجاً منها، وإليك ثبتاً في بعضها:

١ - مناظرته مع الإباضية.

٢ - مناظرته مع أحد البراهمة.

٣ - مناظرته في ضرورة احتياج الناس إلى الحجة.

٤ - مناظرته مع جماعة من أهل الشام في مجالس متفرقة في أمور شتى.

٥ - مناظرته في بيان أحقيّة علي بالخلافة دون غيره.

٦ - مناظرته في أفضلية علي (عليه السلام) على جميع الأمّة وتفنيد الاستدلال بآية (ثاني اثنين).

٧ - مناظرته في إثبات وجوب الموالاة لعلي (عليه السلام)

٨ - مناظرته في لزوم طاعة الإمام الحق.

٩ - مناظرته مع أبي شاكر الديصاني.

---

(١٤٥) العقد الفريد ج١ ص٣٦٠، وعيون الأخبار لابن قتيبة ج٢ ص١٥٠ وضحى الإسلام ج٣ ص٢٦٨.

(١٤٦) تكملة فهرست ابن النديم ص٧ .

١٠ ـ مناظرته مع الجاثليق.
١١ ـ مناظرته في نفي الجهة وعدم الاثنينية.
١٢ ـ مناظرته مع ابن أبي العوجاء.
١٣ ـ مناظرته مع أبي حنيفة في عدّة مواطن.
١٤ ـ مناظرته مع إبراهيم بن يسار المعتزلي.
١٥ ـ مناظرته مع أبي الهذيل العلاف.
وغير ذلك كثير متفرق في الكتب التاريخية والأدبية.

نموذج من مناظراته

تصدّى هشام لمناظرة أهل الكلام، والرد على الملحدين والزنادقة، ويكاد المؤرّخون يجمعون على تفوّقه في المناظرة وسرعة الجواب وقوة العارضة، وإليك نموذجاً من مناظراته :

١ ـ جاء إليه رجل ملحد فقال له: يا هشام أنا أقول بالإثنين وقد عرفت إنصافك ولست أخاف مشاغبتك.

فقال هشام ـ وهو مشغول بثوب ينشره ـ وقال: حفظك الله هل يقدر أحدهما أن يخلق شيئاً لايستعين بصاحبه عليه؟

قال: نعم .

قال هشام: فما ترجو من إثنين؟ واحد خلق كلّ شيء، أصحّ لك.

فقال الرجل: لم يكلّمني أحد بهذا قبلك.

٢ ـ ودخل المؤبذ على هشام بن الحكم فقال له: يا هشام، حول الدنيا شيء؟

قال: لا

قال المؤبذ: فإن أخرجت يدي منها ثم شيء يردها؟

قال هشام: ليس ثم شيء يردّك ولا شيء تخرج يدك فيه.

قال: فكيف أعرف هذا؟

قال هشام: يا مؤبذ، أنا وأنت على طرف الدنيا فقلت لك: يا مؤبذ، إني لا أرى شيئاً.

فقلت لي: ولم لاترى؟ فقلت لك: ليس ها هنا ظلام يمنعني.

قلت لي: يا هشام، إنّي لا أرى شيئاً. فقلت لك: ولم لاترى؟

قلت: ليس ضياءً أنظر فيه.

فهل تكافأت الملتان في التناقض؟

قال: نعم. قال هشام: فإن تكافأتا في التناقض لم تتكافآ في الإبطال أن ليس شيء. فأشار المؤبذ بيده: أن أصبت.

وعاد إليه المؤبذ فقال: هما في القوّة سواء. قال : فجوهرهما واحد؟

فقال المؤبذ لنفسه - ومن حضر يسمع -: إن قلت: إن جوهرهما واحد عادا في نعت واحد، وإن قلت: مختلف اختلفا أيضاً في الهمم والارادات ولم يتفقا في الخلق، فإن أراد هذا قصيراً أراد هذا طويلاً.. ولما عجز عن الجواب التفت إليه هشام فقال: كيف لا تسلم قال: هيهات !(١٤٧) .

٣ - قال هشام لأبي الهذيل (١٤٨): إذا زعمت أن الحركة تُرى فلِم لا زعمت أنها تُلمس؟

قال: لأنّها ليست بجسم فيلمس، لأنّ اللمس إنّما يقع على الأجسام.

فقال له هشام: فقل إنّها لا تُرى لأنّ الرؤية إنما تقع على الأجسام.

فرجع أبو الهذيل سائلاً: من أين قلت: إن الصفة ليست الموصوف ولا غيره؟

قال هشام: من قبل أنّه يستحيل فعلي أنا، ويستحيل أن يكون غيري، لأنّ التغاير إنّما أوقعه على الأجسام والأعيان القائمة بأنفسها، فلما لم يكن فعليّ قائماً بنفسه، ولم يجز أن يكون فعلي أنا، وجب أنه لا أنا ولا غيري. وعلة أُخرى أنت قائل بها: زعمت يا أبا الهذيل، أنّ الحركة ليست مماسّة ولا مباينة، لأنّها عندك ممّا لا يجوز عليه المماسّة ولا المباينة، فلذلك قلت أنا: إنّ الصفة ليست أنا ولا غيري، وعلتي في أنّها ليست أنا ولا غيري علّتك في أنّها لا تماس ولا تباين، قال المسعودي: فانقطع أبو الهذيل ولم يرد جواباً .(١٤٩)

ذكرنا هذه المناظرة لا بقصد أن نعطي صورة عن هشام بن الحكم فيها، ولكنّا نودّ أن ننبّه على خيانة للنقل وجناية على التاريخ وتهجم على الحقائق بما ارتكبه ابن حجر العسقلاني فإنّه ذكر(١٥٠) ما هذا نصه: وقال المسعودي: قال أبوالحسن الحناط مات أبو الهذيل سنة (٢٢٧ هـ) وتنازع أصحابه في مولده، فقال قوم سنة إحدى

---

(١٤٧) عيون الأخبار ج٥ ص١٥٢.

(١٤٨) هو محمد بن الهذيل بن عبد الله بن مكحول البصري، أبو الهذيل العلاّف المتوفى سنة (٢٣٥ هـ) شيخ المعتزلة ومقدمهم ومقرر الطريقة والمناظر عليها، اخذ الاعتزال عن عثمان بن خالد الطويل، وله آراء وأقوال وإليه تنسب الفرقة الهذيلية من المعتزلة.

(١٤٩) مروج الذهب ج٤ ص٥٤ .

(١٥٠) لسان الميزان ج٥ ص٢١٤ .

وثلاثين وقال قوم: سنة أربع. وذكر - أي المسعودي - مناظرة بينه وبين هشام بن الحكم الرافضي، وأنّ هشاماً غلبه أبو الهذيل فيها.

هذا وقد أوقفناك على نصّ عبارة المسعودي وأنّ هشاماً غلب أبا الهذيل ولم يرد جواباً. والحكم للقارئ المنصف.

٤ - اجتمع هشام في إحدى رحلاته إلى البصرة بعمرو بن عبيد المتوفى سنة (١٤٤ هـ) وتناظرا في الإمامة، وكان عمرو يذهب إلى أن الإمامة اختيار من الأُمة في سائر الاعصار، وهشام يذهب إلى أنّها نصّ من الله ورسوله على علي بن أبي طالب (عليه السلام)، وعلى من يلي عصره من ولده الطاهرين.

فقال هشام لعمرو بن عبيد: أليس قد جعل الله لك عينين؟

قال: بلى.

قال: ولِمَ ؟

قال: لأنظر بهما في ملكوت السموات والأرض فأعتبر.

قال: فلِمَ جعل لك سمعاً ؟

قال: لأسمع به التحليل والتحريم والأمر والنهي.

قال: فلِمَ جعل لك فماً ؟

قال: لأذوق المطعوم، وأجيب الداعي. ثم عدّد الحواس كلّها.

قال: ولم جعل لك قلباً.

قال: لتؤدي إليه الحواس ما أدركته، فيميز بين مضّارها ومنافعها.

قال هشام: فكان يجوز أن يخلق الله سائر حواسك ولا يخلق لك قلباً تؤدي هذه الحواس إليه؟

قال عمرو: لا .

قال: ولِمَ؟

قال: لأنّ القلب باعث لهذه الحواس على مايصلح لها.

فقال هشام: يا أبا مروان - كنية عمرو بن عبيد - إنّ الله تبارك وتعالى لم يترك جوارحك حتى جعل لها إماماً يصحح لها الصحيح، ويترك هذا الخلق كلّه لا يقيم لهم إماماً يرجعون إليه؟! قال المسعودى: فتحير عمرو ولم يأت بفرق يعرف.[١٥١]

---

(١٥١) مروج الذهب ج٤ ص٥٥،والطبرسي ص٢٠٠ وأمالي المرتضى ج١ ص١٢٢-١٢٣، وعلل الشرائع ص١٩٤.

مع هشام في تهمته

نضج علم الكلام في العصر العباسي الأول، وانتشر الخلاف وكثر الجدل، وكان النزاع يملأ حلقات العلم، والمناظرات تقع في مجالس الخلفاء، وفي المساجد، وفي الشوارع.

وكان للمعتزلة نشاط في الحركة الكلامية، فقد كانوا يبحثون عن أهمّ المسائل ويصطدمون مع خصومهم.

إلى جانب ذلك نراهم قد تعرّضوا لمسائل تكاد تكون سوفسطائية مثل: الإله قادر على الظلم أو لا؟ هل الجنة مخلوقة اليوم أو لا؟ هل قدرة الله تتعلق بالمحال أو لا؟ هل الكافر قادر على الإيمان والمؤمن قادر على الكفر؟ الى كثير من أمثال ذلك. مع اختلافهم في الإمامة والسياسة، وكلّ هذه الآراء تكوّن جوّاً مضطرباً ونزاعاً علمياً، وقد حصل ذلك في عصرهم وبعد عصرهم.

وكان هشام بن الحكم شديد الخصومة لهم، قويّ الحجة عليهم، واسع الفكر. وله شهرة في علم الكلام، لذلك ترأس مجلس المناظرة في بغداد، وكان

يقصد حلقات العلم فيمتحن رؤساءها بما يفحمهم فيه، فكان انتصاره عليهم سبباً لاتّهامه بما لا يليق بشأنه، ولا صلة له بالواقع. وكان الجاحظ من أشدّ الناس عداءً لهشام، فنسب إليه تلك المفتريات هو والنظام ابراهيم بن يسار، وجاء ابن قتيبة فى «مختلف الحديث» [١٥٢] فأرسلها إرسال المسلمات، وكذلك الخياط المعتزلي كما جاء في كتاب «الانتصار». [١٥٣]

وليس من العسير علينا أن نستشفّ بواعث تلك الاتّهامات الموجّهة لهشام من قبل خصومه مع براءته من ذلك. ولا يصحّ لنا أن ننساق مع المندفعين بتيّار الهوى والخاضعين للعاطفة، الذين اتّهموه بتلك التهم الشنيعة بدون التفات إلى الواقع، أو استناد إلى مصدر وثيق، وإنّما كانت بدافع الانتقام منه والحقد عليه لكونه يغلب خصمه بمنطقه ويقطعه ببراهينه.

كما كان الحكم على هشام بتلك التهم صادراً عن طائفية بغيضة، رغبة في تشويه الحقيقة، أو اقتناع بما دبّرته عوامل عصر هشام، من الاعتداء على المفكرين من رجال الأمة، وتطبيقه بوسائل عنيفة وحشية. ولم يخف على المتتبعين ما أحدثه ذلك التطوّر الفكري، من وجود خلافات مذهبية وفوارق طائفية أدّت إلى خصومة عنيفة، خرجت عن حدود العلم والمنطق الصحيح، بل عن حدود العقل والاتّزان. وكان الموقف السياسي يؤثر في كفّة الخلاف، ويؤيّد حركة النزاع الطائفي من وراء الستار لغاية التفريق، والوصول لأمور لا تحصل إلا بذلك، طبقاً لقاعدة «فرّق تسد» وهي خطة سلكها الأمويون واتبعهم العباسيون، فصارت مركباً لحكام الاستبداد وأمراء الجور. واتّضح لنا ممّا سبق أنّ الموقف العدائي للشيعة قد تعدّى حدود المنطق، وبلغ الى الهوس والتهريج، والتقوّل بالباطل، كلّ ذلك يرمي إلى تشويه الصورة الحقيقية، وتنفير الناس عن عقائدهم التي لا تستطيع سياسة تلك العصور أن تتركها بدون معارضة ومقاومة، وبالأخصّ فيما يتعلّق بالإمام.

ولنقف عند هذا الحدّ من التعرّض لتلك التقوّلات على الشيعة ونعود لبعض ما قيل عن هشام في اتّهامه.

---

(١٥٢) تأويل مختلف الحديث ص٤٩ ـ ٥٠.

(١٥٣) الانتصار للخياط ص١٦٨ و ١٧٧ و ١٨٨ و ٢٠٨.

كما أنّنا لا نريد أن نستقصي ذلك ولا لنجهد أنفسنا في الردّ على تلك التقوّلات، فالأمر أوضح من أن يدعونا إلى ذلك. فشخصية هشام لها مقوّمات واقعية، نستمد اتجاهاتها من واقع تعاليم الدين الحنيف ولا يضرّه تقولات أعدائه، وإليك بعضاً منها :

١ - يقول عبد القاهر البغدادي المتوفى سنة (٤٢٩ هـ) في بيان مذاهب المشبّهة: ومن هذا الصنف هشامية منتسبة الى هشام بن الحكم الرافضي، الذي شبّه معبوده بالإنسان، وزعم لأجل ذلك أنّه سبعة أشبار بشبر نفسه وأنّه جسم ذو حدّ ونهاية، وأنّه طويل، عريض، عميق، وذو لون وطعم ورائحة وقد روي عنه أنّ معبوده كسبيكة الفضة المستديرة.(١٥٤)

هذا ما يقوله صاحب الفَرق بين الفِرق وهو عار عن الصحة، بعيد عن الواقع، لأنّ آثار هشام من كتب ومناظرات تدلّ بوضوح على إيمانه بالله، فكتابه التوحيد وغيره من كتب الرد على الملحدين تتكفل صدق ما نقوله عنه. وكذب ما يقوله البغدادي ومن سار على نهجه الذي لا يعتمد على الحقّ، ولا يركن الى الصواب بل هو محض افتراء وتقوّل بالباطل، ومجرد أوهام فاضت بها أحقاد المناوئين، فراحوا يذكرون عن هشام وطائفته بما لا يمت إلى الواقع بصلة، ونحن إذا أمعنا النظر في أسباب هذه الحملات على هشام، فإنّا نجد مصدرها المعتزلة، فإنّهم خصومه، لأنه كان شديداً عليهم، مفنّداً لآرائهم. وسنوضّح موقف الجاحظ - وهو من كبار المعتزلة - من هذه المعركة، وكيف صبّ جام غضبه على هشام بأسلوبه الساخر، فكانت اتهامات هشام من صوغ الجاحظ وإنتاجه الأدبي.

٢ - ويقول محمد بن أحمد بن عبد الرحمن الملطي الشافعي المتوفى سنة (٣٧٧ هـ) في كتابه التنبيه :

الفرقة الثانية عشرة من الإمامية هم أصحاب هشام بن الحكم، يعرفون بالهشامية، وهم الرافضة الذين روي فيهم الخبر أنّهم يرفضون الدين بحبّ علي (رضي الله عنه) فيما يزعمون، وكذب أعداء الله وأعداء رسوله وأصحابه، وإنّما يحبّ علياً من يحب غيره، وهم أيضاً ملحدون لأنّ هشاماً كان ملحداً دهرياً، ثم انتقل إلى الدهرية والمانوية، ثم غلبه الإسلام فدخل في الإسلام كارهاً، فكان قوله في الإسلام بالتشبيه والرفض. وأما قوله بالإمامة فلم نعلم أنّ أحداً نسب إلى عليّ عيباً مثل هشام...

---

(١٥٤) الفَرق بين الفِرق ص١٣٩.

والله نحمده قد نزع عن علي وولده العيوب والأرجاس وطهرهم تطهيراً، وما قصد هشام التشيّع ولا محبة أهل البيت(عليهم السلام)ولكن طلب بذلك هدم أركان الإسلام، والتوحيد والنبوة - انتهى - .

هكذا يقول الملطي. وإذا أردنا أن نسائل هذا الشيخ عن المصدر الذي استمدّ منه معلوماته عن هشام، وعلى أيّ شيء اعتمد في كيل هذه الاتهامات، وما الّذي عرفه عن هشام فاستوجب أن ينسب إليه الإلحاد؟ وهل نقل عن مصدر موثوق به؟ كلّ ذلك لم يكن. وإنّما يحتجّ بما نقل عن هشام في قوله بإمامة عليّ (عليه السلام) وأنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) نصّ على إمامته، وأنّ علياً أفضل الأمة. وإليك نص ما نقله الملطي عن هشام إذ يقول: فزعم هشام أنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) نصّ على إمامة علي في حياته بقوله: «**من كنت مولاه فعلي مولاه**» وبقوله: «**أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنّه لا نبي بعدي**»، وبقوله: «**أنا مدينة العلم وعلي بابها**»،وبقوله: «**تقاتل على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله**»، وأنه - أي علياً - **وصي رسول الله وخليفته في ذرّيته، وهو خليفته في أمته، وأنّه أفضل الأمة وأعلمهم**، ولا يجوز عليه السهو ولا الغفلة ولا العجز، وأنّه معصوم، وأنّ الله عز وجل نصبه للخلق إماماً ولكن لايهملهم، وأنّ المنصوص على إمامته كالمنصوص على القبلة وسائر الفرائض... الخ .

هذه هي المزاعم التي استنتج منها الشيخ الملطي مقاصد هشام من التشيّع، فهشام بن الحكم في نظر هذا الشيخ إنّما كان عدوّاً للإسلام وأصبح ملحداً غير مؤمن، لأنّه يذهب إلى إمامة علي بالنص، وأنّه خليفة رسول الله في أمته.

ونحن لا نلوم هذا الشيخ على هذيانه وتمرّده على الواقع، ولكنّا نلوم الرجل المثقف الذي يريد أن يخدم الأمة بنشر هذه الفضائح [١٥٥] وإخراج هذه الجيف، فلا نطيل الوقوف هنا فالزمن أثمن والوقت من ذهب. وعند الله تجتمع الخصوم.

٣ - وقال ابن حجر [١٥٦]: هشام بن الحكم أبو محمد الشيباني من أهل الكوفة، وكان من كبار الرافضة ومشاهيرهم، وكان مجسّماً يزعم أن ربّه سبعة أشبار بشبر نفسه، ويزعم أن علم الله محدث. ذكر ذلك ابن حزم. بدون مستند ولا سند، وإنّما هذا مجرد تهجّم على الأبرياء كما هو شأن ابن حزم.

---

(١٥٥) التنبيه والرد ص٢٤، نشر هذا الكتاب عرة العطار مدير مكتبة نشر الثقافة الإسلامية في مصر وعلق عليه وحققه محمد زاهد الكوثري.

(١٥٦) لسان الميزان ج٦ ص١٩٤.

وعلى هذه اللغة وهذه اللهجة سار كلّ من تعصب على هشام. وقد ثبت بالتتبع أنّ هذه الجمل التي يسوقونها للانتقاص من هشام والحطّ من كرامته، إنّما هي من مفتعلات الجاحظ ومفترياته. لأنّه كان شديد القسوة على من يخالفه. وقد عرف بالانتصار للمعتزلة، وكان هشام حرباً عليهم ناظر علماءهم وانتصر عليهم.

والجاحظ معروف بأسلوبه التهكّمي اللاذع، الذي كان يتذرّع به في كثير من مهماته، فتراه عندما يأخذ بعض الأشخاص بالتصوير التهكمي يقدّم لك الصورة الدقيقة الرائعة، التي تثير في نفسك كلّ ما يمكن من النفور والبغض.

وهو إذ يتهجّم على هشام يسلك سبيل السخرية والتهكّم، فيقول: إنّ هشاماً مجسم يدّعي أنّ إلهه سبعة أشبار بشبر نفسه، له طول وعرض وطوله مثل عرضه إلى آخر قوله في اتهام هشام. وهذا أمر لا يحتاج إلى تحمّل مشقة في الرد، لأنّ خصومة الجاحظ لهشام ولأمثاله أوضح من أن تخفى.

وحيث كان الجاحظ هو بطل الخصومة لهشام، وهو مصدر تلك الاتهامات الباطلة فلا بدّ لكفة الميزان أن تحويه لتكشف نقصه مهما كان لاسمه صدى في ميدان الأدب ومكانة في رحابه.

الجاحظ في الميزان

هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني مولاهم المعروف بالجاحظ المتوفى سنة (٢٥٠ هـ) أو سنة (٢٥٥ هـ) تلميذ النظام، وهو من رؤساء المعتزلة ومتكلميهم، وله شهرة عظيمة في أدبه، كما أنّ له مؤلفات كثيرة في شتّى العلوم والفنون، اتّصل بالحكّام والأمراء والخلفاء، وتقرّب إليهم بتصنيف الكتب والرسائل، وبها يتعصّب لمذاهبهم ويعضد بها آراءهم وينقض بها آراء مخالفيهم، طلباً لجوائزهم ونيلاً لرفدهم.

ولا نريد البحث عن علمه، ولكنّا نريد أن نعرف: هل كان الجاحظ رائده الحقّ؟ وضالّته الحقيقة ينشد الوصول إليها عن طريق التثبت والتجربة والبرهان؟ أم كان له غرض خاص يطلبه ويسعى لتحقيقه. ولو كان الجاحظ يهدف إلى غاية معينة، ويلتزم فكرة، يجنّد لها قلمه لا تبعد عن المتناقضات، وسار في خطّ مستقيم، فكم جاء بقول وأتى بعده بما يناقضه، وكم أبدى فكرة وأتى بما ينفيها، فهو متقلّب الرأي ضعيف العقيدة.

ويتجلّى لنا الأمر - إذا عرفنا منزلته وصدقه - عندما نسائل عنه علماء الرجال، ونصغي لما وصفوه به وما عرفوه عنه.

قال أبو جعفر الاسكافي وهو من كبار المعتزلة وعلمائهم : إنّ الجاحظ ليس على لسانه من دينه وعقله رقيب، وهو من دعوى الباطل غير بعيد، فمعناه نزر، وقوله لغو، ومطلبه سجع، وكلامه لعب ولهو، يقول الشيء وخلافه، ويحسن القول وضده، ليس له من نفسه واعظ، ولا لدعواه حدّ قائم.[١٥٧]

وقال ابن أبي داود: الجاحظ أثق بظرفه ولا أثق بدينه.[١٥٨]

وقال الذهبي: كان الجاحظ من أهل البدع .[١٥٩]

وقال ثعلب: الجاحظ ليس بثقة ولا مأمون، كان كذّاباً على الله وعلى رسوله وعلى الناس.[١٦٠]

وقال أبو منصور في مقدّمة تهذيب اللّغة: وممّن تكلّم في اللغات بما حصره لسانه، وروى عن الثقات ما ليس من كلامهم الجاحظ، وكان قد أوتي بسطة في القول، وبياناً عذباً في الخطاب، ومجالاً في الفنون، غير أنّ أهل العلم ذبوه وعن الصدق دفعوه .[١٦١]

وحكى الخطيب عنه: أنّه كان لايصلّي .[١٦٢]

وقال الإسكندري: الجاحظ كان عثمانياً يتنصب، يفضل عثمان على عليّ.[١٦٣]

وقال ابن قتيبة: الجاحظ وهو آخر المتكلمين وأحسنهم للحجة استشارة، وأشدّهم تلطفاً لتعظيم الصغير حتى يكبر، وتصغير العظيم حتى يصغر، ويبلغ به الاقتدار على أن يعمل الشيء ونقيضه، ويحتج للعثمانية على الرافضة، ومرّة للزيدية على العثمانية وأهل السنة، ومرّة يفضل علياً (رضي الله عنه) ومرّة يؤخره، ويعمل كتاباً يذكر فيه حجج النصارى على المسلمين، فإذا صار إلى الردّ عليهم تجوز في الحجة، كأنّه إنّما أراد تنبيههم على ما يعرفون، وتشكيك الضعفة من المسلمين، وتجده يقصد في كتبه للمضاحيك والعبث، يريد بذلك استمالة الأحداث وشرّاب النبيذ، ويستهزئ من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم، - إلى أن يقول - : وهو مع هذا من أكذب الأمة، وأضعفهم لحديث، وأنصرهم لباطل [١٦٤].

---

(١٥٧) شرح النهج ج٣ ص٢٦٧.
(١٥٨) تاريخ بغداد ج١٢ ص٢١٨.
(١٥٩) ميزان الاعتدال ج٥ ص٣٠٠ / ٦٣٣٩ .
(١٦٠) لسان الميزان ج٤ ص٤٠٨ / ٦٣٠١.
(١٦١) لسان الميزان ٤ / ٣٥٦ - ٣٥٧ .
(١٦٢) تاريخ بغداد ج١٢ ص٢٠٨ / ٦٦٦٩.
(١٦٣) تاريخ آداب اللغة ص٨٤.
(١٦٤) مختلف الحديث لابن قتيبة ص٧١ - ٧٢ .

هذه صورة عن الجاحظ نقدّمها ليقف القارئ على أثر طعنه وتهجّمه، ورميه الأبرياء من الأمة بما ليس فيهم، فهو غير مستقيم ولا حدَّ لتقلّبه وتلوّنه. فهو يختلق الاتّهامات، ويبتدع الأقوال، ويكذب في نقله.

إنّ الجاحظ موهوب في أدبه، بارع في تهكّمه وسخريته، له قدرة على تصوير الأشياء التي يخترعها من نفسه، ولا يهمّه أن تتناقض أقواله وتضطرب آراؤه، فتراه يؤلف في الأمور المتناقضة، والأشياء المتفرقة.

نرى الجاحظ يميل مع الهوى ويساير الظروف، فهو إذ يخالف الواقع ويسلّم قياده لهواه، تراه في مورد آخر يرجع إلى الحقيقة ويعطيها حقّها من البيان، ويتبيّن لك تكلّفه عند مخالفته للواقع، وانحرافه عن الصواب، وله رسائل عديدة متفرقة يستقصي فيها الحجج لنفسه، ويؤيدها بالبراهين، ويعضدها بالأدلة فيما يتصور من عقله، وما يوحيه الهوى، ويفرضه عليه تماجنه وعبثه.

ألّف الجاحظ رسائل في أمور متناقضة تشهد على عدم استقامته، فهو ينتصر للعثمانية، ويذهب إلى تأخير علي (عليه السلام) في الفضيلة، ويمدح معاوية بن أبي سفيان منتصراً له من علي(عليه السلام) وشيعته، ويذكر إمامة آل مروان وبني أمية بما شاء له الهوى والعصبية والمجون، ثم ينفلت من أسر هواه ويعود إلى رشده، ويترك الأخذ بالآراء والأهواء، فيؤلف رسالة في بني أمية، ويصفهم بما يلزمه الواقع، ويجعل معاوية ظالماً سفّاكاً للدماء، جائراً في الحكم، مخالفاً لأحكام الإسلام .

ويكتب رسائل في تفضيل عليّ(عليه السلام) والانتصار له، ويقدّم الحجج ويقيم الأدلة والبراهين، وهو يصرّح بأنّه عاد إلى رشده، وأفلت من عقال هواه وأخذ باليقين وترك الشك والظن، وإليك نص رسالته التي ذهب بها إلى تفضيل علي على جميع الأمة. وقد ذكرها الإربلي في كشف الغمة.[١٦٥]

رسالة الجاحظ في تفضيل عليّ(عليه السلام)

قال: هذا كتاب من اعتزل الشك والظن، والدعوى والأهواء، وأخذ باليقين والثقة من طاعة الله ورسوله (صلى الله عليه وآله)، وبإجماع الأمة بعد نبيّها(صلى الله عليه وآله) ممّا يتضمّنه الكتاب والسنة، وترك القول بالآراء، فإنّها تخطئ وتصيب، لأنّ الأمة

(١٦٥) كشف الغمة ج١ ص١٤٧.

أجمعت أنّ النبيّ(صلى الله عليه وآله) شاور أصحابه في الأسرى ببدر، واتفق على قبول الفداء منهم فأنزل الله تعالى: **(مَا كَانَ لِنَبِيّ أَن يَكُونَ لَهُ)**[١٦٦] .

فقد بان لك أنّ الرأي يخطئ ويصيب ولا يعطي اليقين، وإنّما الحجة لله ورسوله وما أجمعت عليه الأمة من كتاب الله وسنّة نبيّها. ونحن لم ندرك النبيّ (صلى الله عليه وآله) ولا أحداً من أصحابه الذين اختلفت الأمة في أحقّهم، فنعلم أيّهم أولى، ونكون معهم، كما قال تعالى: **(وَكُونوا مَعَ الصَّادِقِين)**[١٦٧] ونعلم أيّهم على الباطل فنتجنّبهم؟

وكما قال تعالى: **(وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَتَعْلَمُونَ شَيْئاً)**[١٦٨] حتى أدركنا العلم فطلبنا معرفة الدين وأهله، وأهل الصدق والحقّ، فوجدنا الناس مختلفين يبرأ بعضهم من بعض، ويجمعهم في حال اختلافهم فريقان :

أحدهما، قالوا: إنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) مات ولم يستخلف أحداً. وجعل ذلك إلى المسلمين يختارونه، فاختاروا أبا بكر.

والآخرون، قالوا: إنّ النبيّ (صلى الله عليه وآله) استخلف عليّاً، فجعله إماماً للمسلمين بعده. وادعى كلّ فريق منهم الحقّ. فلما رأينا ذلك وقّفنا الفريقين لنبحث ونعلم المحقّ من المبطل ؟

فسألناهم جميعاً: هل للناس بدّ من وال يقيم أعيادهم، ويجبي زكاتهم، ويفرّقها على مستحقّيها، ويقضي بينهم، ويأخذ لضعيفهم من قويهم ويقيم حدودهم؟

فقالوا: لا بدّ من ذلك.

فقلنا: هل لأحد يختار أحداً فيولّيه، بغير نظر من كتاب الله وسنّة نبيّه؟

فقالوا: لا يجوز ذلك إلا بالنظر.

فسألناهم جميعاً عن الإسلام الذي أمر الله به ؟

فقالوا: إنه الشهادتان، والإقرار بما جاء من عند الله، والصلاة، والصوم، والحج - بشرط الاستطاعة - والعمل بالقرآن يحلّ حلاله ويحرّم حرامه.

فقبلنا ذلك منهم لإجماعهم .

ثم سألناهم جميعاً:

هل لله خيرة من خلقه، اصطفاهم واختارهم ؟

فقالوا: نعم .

---

(١٦٦) الأنفال: ٦٧ .

(١٦٧) التوبة: ١١٩.

(١٦٨) النحل: ٧٨ .

فقلنا: ما برهانكم؟

فقالوا: قوله تعالى: (**وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ**)[١٦٩]

فسألناهم: مَن الخيرة؟

فقالوا: هُم المتّقون.

فقلنا: ما برهانكم؟

فقالوا: قوله تعالى:(**إنّ أكرَمَكُم عِند اللهِ أتقاكُم**).[١٧٠]

فقلنا: هل لله خيرة من المتقين؟

قالوا: نعم، المجاهدون بأموالهم بدليل قوله تعالى: (**فَضَّلَ اللَّهُ ا لْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ا لْقَاعِدِينَ دَرَجَةً**).[١٧١]

فقلنا: هل لله خيرة من المجاهدين؟

قالوا جميعاً: نعم السابقون من المهاجرين الى الجهاد بدليل قوله تعالى: (**لاَ يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ا لْفَتْحِ وَقَاتَلَ**)[١٧٢]

فقبلنا ذلك منهم لإجماعهم عليه، وعلمنا أنّ خيرة الله من خلقه المجاهدون السابقون إلى الجهاد. ثم قلنا: هل لله منهم خيرة؟

قالوا: نعم. قلنا: من هم ؟

قالوا: أكثرهم عناء في الجهاد، وطعناً وضرباً وقتلاً في سبيل الله، بدليل قوله تعالى:(**فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ**)[١٧٣] (**وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ**)[١٧٤].

فقبلنا منهم ذلك، وعلمنا وعرفنا: أنّ خيرة الخيرة أكثرهم في الجهاد عناءً، وأبذلهم لنفسه في طاعة الله، وأقتلهم لعدوّه.

فسألناهم عن هذين الرجلين علي بن أبي طالب وأبي بكر أيّهما كان أكثر عناء في الحرب، وأحسن بلاءً في سبيل الله ؟

فأجمع الفريقان على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) أنّه كان أكثر طعناً وضرباً وأشدّ قتالاً، وأذبّ عن دين الله ورسوله.

فثبت بما ذكرناه من إجماع الفريقين، ودلالة الكتاب والسنة أنّ عليّاً أفضل.

---

(١٦٩) القصص: ٦٨ .
(١٧٠) الحجرات: ١٣.
(١٧١) النساء: ٩٥.
(١٧٢) الحديد: ١٠.
(١٧٣) الزلزلة: ٧.
(١٧٤) المزمل: ٢٠.

وسألناهم - ثانياً - عن خيرته من المتقين؟

فقالوا: هم الخاشعون، بدليل قوله تعالى: (**وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيد* هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّاب حَفِيظ* مَّنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْب مُّنِيب**)[١٧٥]. وقال تعالى: (**... وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ* الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم...**)[١٧٦]

ثم سألناهم: من الخاشعون؟

فقالوا: هم العلماء: لقوله تعالى: (**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء**).[١٧٧]

ثم سألناهم جميعاً: من أعلم الناس ؟

قالوا أعلمهم بالقول، وأهداهم إلى الحقّ، وأحقّهم أن يكون متبوعاً ولا يكون تابعاً بدليل قوله تعالى:(**يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْل مِّنكُمْ**)[١٧٨] فجعل الحكومة لأهل العدل.

فقبلنا ذلك منهم، وسألناهم عن أعلم الناس بالعدل من هو ؟

قالوا: أدلّهم عليه.

قلنا: فمن أدلّ الناس عليه.

قالوا: أهداهم الى الحقّ. وأحقّهم أن يكون متبوعاً ولا يكون تابعاً بدليل قوله تعالى: (**أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لاَّيَهِدِّي إِلاَّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ**)[١٧٩] فدل كتاب الله وسنّة نبيّه(صلى الله عليه وآله) والإجماع: أنّ أفضل الأمة بعد نبيّها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)، لأنّه إذا كان أكثرهم جهاداً كان أتقاهم، وإذا كان أتقاهم كان أخشاهم، وإذا كان أخشاهم كان أعلمهم، وإذا كان أعلمهم كان أدل على العدل، وإذا كان أدل على العدل كان أهدى الأمة إلى الحقّ، وإذا كان أهدى كان أولى أن يكون متبوعاً، وأن يكون حاكماً لا تابعاً ولا محكوماً.

وأجمعت الأمة - بعد نبيّها (صلى الله عليه وآله) - أنّه خلّف كتاب الله تعالى ذكره وأمرهم بالرجوع إليه إذا نابهم أمر، وإلى سُنّة نبيّه (صلى الله عليه وآله) فيتدبرونهما ويستنبطون منهما ما يزول به الاشتباه فإذا قرأ قارئهم: (**وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَار**)[١٨٠] فيقال له: اثبتها، ثم يقرأ: (**إِنّ أكرَمَكُم عِندَ اللهِ أتقاكُم**) وفي قراءة ابن مسعود -

---

(١٧٥) سورة ق: ٣١ - ٣٣.
(١٧٦) الأنبياء: ٤٨ - ٤٩.
(١٧٧) فاطر: ٢٨ .
(١٧٨) المائدة: ٩٥.
(١٧٩) يونس: ٣٥.
(١٨٠) القصص: ٦٨.

إن خيركم عند الله أتقاكم - (**وَأُزْلِفت الجَنّةُ لِلمُتَّقِين غَيرَ بَعيد* هَذَا ما تُوعَدُونَ لِكُلّ أوّاب حَفِيظ* مَن خَشِيَ الرَّحمَنَ بالغَيبِ**)[١٨١] .

فدلت هذه الآية على أن المتقين هم الخاشعون.

ثم يقرأ فإذا بلغ قوله : (**إنّما يَخْشَى اللهُ مِن عِبادِهِ العُلَمَاءُ**) فيقال له: اقرأ حتى ننظر هل العلماء أفضل من غيرهم أم لا؟ فإذا بلغ قوله تعالى (**هَلْ يَستوي الَّذِينَ يَعلَمُونَ والذين لا يعلمون**)[١٨٢] علم أن العلماء أفضل من غيرهم.

ثم يقال: اقرأ، فإذا بلغ إلى قوله: (**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ مِنكُمْ وَالَّذِينَ أوتُواْ ا لْعِلْمَ دَرَجَات**)[١٨٣].

قيل: قد دلّت هذه الآية على أنّ الله قد اختار العلماء وفضّلهم ورفعهم درجات، وقد اجمعت الأمة على أن العلماء من أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) الذين يؤخذ عنهم العلم كانوا أربعة: علي بن أبي طالب، وعبد الله بن العباس وابن مسعود، وزيد بن ثابت .

وقالت طائفة: عمر، فسألنا الأمة :

من أولى الناس بالتقديم إذا حضرت الصلاة ؟

فقالوا: إنّ النبي (صلى الله عليه وآله) قال: يؤم القوم أقرؤهم. ثم أجمعوا على أنّ الأربعة كانوا أقرأ من عمر فسقط عمر، ثم سألنا الأمة، أيّ هؤلاء الأربعة أقرأ لكتاب الله، وأفقه لدينه فاختلفوا، فأوقفناهم حتى نعلم. ثم سألناهم: أيّهم أولى بالإمامة؟

فأجمعوا على أنّ النبي (صلى الله عليه وآله) قال: الأئمة من قريش. فسقط ابن مسعود وزيد ابن ثابت. وبقي علي بن أبي طالب وابن عباس، فسألنا :

أيّهما أولى بالإمامة ؟

فأجمعوا: على أنّ النبيّ قال: إذا كان عالمان فقيهان من قريش فأكبرهما سناً وأقدمهما هجرة. فسقط عبد الله بن العباس وبقي علي بن أبي طالب صلوات الله عليه، فيكون أحقّ بالإمامة، لما أجمعت عليه الأمة ولدلالة الكتاب والسنة عليه، انتهى .

ذكر هذه الرسالة[١٨٤] أبوالحسن علي بن السعيد فخر الدين عيسى بن أبي الفتح الإربلي وقال: إنّها نسخت عن مجموع للأمير أبي محمد الحسن بن عيسى المقتدر بالله.

---

(١٨١) سورة ق: ٣١ - ٣٣.

(١٨٢) الزمر: ٩.

(١٨٣) المجادلة : ١١.

(١٨٤) مناقب آل أبي طالب ج١ ص ٣١٠، كشف الغمة ج١ ص٤٠.

وبهذا نكتفي عن الحديث حول الجاحظ، كما أنا لا نودّ أن نتعرّض لذكر ابن حزم وتشنيعه على هشام وقسوته في اتهامه، ويكفينا في ابن حزم ما عُرف عنه من التهجّم على العلماء بدون استناد حتى قيل: لسان ابن حزم وسيف الحجاج شقيقان. إذ كلّ واحد منهما يفتك بالمسلمين ظلماً وعدواناً.

وقد تحامل ابن حزم على الشيعة بما لا يتقبّله العقل، ولا ندري من أيّ مصدر استقى ذلك. فلنترك مناقشته وعلى الله حسابه.

عود على بدء

إنّ دراسة حياة هشام والوقوف على آرائه وأقواله توقف القارئ النبيه على أسباب اتّهامه بتلك التهم الشنيعة التي تناقض الحقيقة، ولا تتّفق مع عقيدته وإيمانه.

وقد أشرنا لبعض الأسباب التي دعت خصومه لرميه في ذلك، وهناك شيء آخر وهو: أنّ هشاماً كان ذا شخصيّة قوية وفكر واسع ورأي صائب، وهو صلب في إيمانه، قويّ في عقيدته، لا يتنازل عنها لسلطان، ولا يجاري الأغلبية الساحقة، ولم ينقطع يوماً ما أمام مناظر، أو يهزم في قول أو يغلب في حجاج، وكانت المعركة الفكرية تدور حول الإمامة وما شاكلها، وكان هشام يخالف في رأيه لسلطان عصره، ويناظر على صحّة قوله وصواب رأيه، فهو مع أهل البيت (عليهم السلام)يناضل عن حقّهم، ويحاجج في لزوم اتباعهم، ولم يعبأ في مخالفة الأغلبية، ولم يبال بالاضطهاد المنتظر بحقّ كلّ من يخالف رأي الدولة. وإن كان رأيها هو الرأي السائد والقول المتبع.

فلذلك تكونت حول شخصيته تلك المؤامرات والدسائس التي تتكيّف بمزاج العصر وأوضاعه، لأنّ أعظم سلاح يقاوم به من يخالف آراء ملوك ذلك العصر هو الاتهام بالبدعة، والرمي بالإلحاد والزندقة.

ويكفي للاستدلال على براءة هشام من ذلك قول الإمام الصادق (عليه السلام) «**يا هشام ما زلت مؤيّداً بروح القدس**». وقوله: «**هذا ناصرنا بقلبه ولسانه**». وقوله: «**هشام رائد حقّنا المؤيّد لصدقنا، والدافع لباطل أعدائنا، من تبعه وتبع أمره تبعنا، ومن خالفه فقد عادانا**».[١٨٥]

وقال علم الهدى السيد المرتضى: فكيف يتوهّم عاقل - مع ما ذكرناه - على هشام هذا القول: بأنّ ربّه سبعة أشبار بشبره، وهل ادعاء ذلك عليه (رضوان الله عليه) مع

---

(١٨٥) تنقيح المقال ج٣ ص٢٩٤ / ١٢٨٥٣ .

اختصاصه المعلوم بالصادق، وقربه منه وأخذه عنه إلاّ قدح في أمر الصادق، ونسبته للمشاركة في الاعتقاد الذي نحلوه هشاماً، وإلاّ كيف لم يظهر عنه من النكير عليه، والتبعيد له بما يستحقّه المقدّم على هذا الاعتقاد المنكر، والمذهب الشنيع.[١٨٦]

ووردت في حقّه روايات مدح من بقية الأئمة(عليهم السلام)كقول الإمام الرضا (عليه السلام)عندما سئل عن هشام: **رحمه الله كان عبداً ناصحاً وأوذي من قبل أصحابه حسداً منهم له.**[١٨٧]

وقال الإمام الجواد (عليه السلام): «**هشام بن الحكم** (رحمه الله) **ما كان أذبّه عن هذه الناحية**».[١٨٨]

وصفوة القول: إنّ هشام بن الحكم كان عظيم المنزلة ،رفيع المكانة، ثقة في الحديث، مبرزاً في الفقه والتفسير وسائر العلوم والفنون .

والشيء الذي يلفت النظر، هو وجود بعض الروايات عن أئمة أهل البيت (عليهم السلام)تنصّ على الطعن في عقيدة هشام، وقد ذكرها الأصحاب في معرض النقد والرد، إذ هي - بدون شك - مكذوبة لا صلة لها بالصحة.

فمن ذلك: ما أشاعوه عن الإمام الرضا (عليه السلام) أنّه قال في هشام: إنه ضالّ مضلّ، شرك في دم أبي الحسن الكاظم (عليه السلام) ولما شاعت هذه المقالة قدم جماعة من الشيعة إلى الإمام الرضا (عليه السلام) يسألونه عن ذلك القول، وعن مبلغه من الصحة لكي يتبرأوا من هشام إن صحّ ذلك.

فتقدّم إليه موسى بن المشرقي يسأله عن ذلك القول، وهل يتولّون هشاماً أم يتبرأون منه؟

فأجابه الإمام بلزوم موالاة هشام، وقال له: **تولّوه، إذا قلت لك فاعمل به ولا تريد أن تغالب به، أخرج الآن فقل لهم - أي الشيعة - : قد أمرني بولاية هشام.**

وقال (عليه السلام) «**رحمه الله - أي هشاماً - كان عبداً ناصحاً وأوذي من قبل أصحابه حسداً منهم له**».[١٨٩]

ومنها: عن محمد بن زياد قال: سمعت يونس بن ظبيان يقول: دخلت على أبي عبد الله الصادق (عليه السلام) فقلت له: إنّ هشام بن الحكم يقول قولاً عظيماً إلا أني

---

(١٨٦) الشافي ص١٢.
(١٨٧) رجال الكشي ص٢٧٠ / ٤٨٦.
(١٨٨) رجال الكشي ص٢٧٨ / ٤٩٥.
(١٨٩) جامع الرواة ج٢ ص٢١٣.

أختصر لك منه حرفاً: يزعم أنّ الله جسم لأنّ الأشياء شيئان: جسم وفعل فلا يجوز أن يكون الصانع بمعنى الفعل، ويجوز أن يكون بمعنى الفاعل .

فقال أبو عبد الله(عليه السلام): **«ويله، أما علم أنّ الجسم محدود متناه، والقدرة محدودة متناهية، فاذا احتمل الحدّ احتمل الزيادة والنقصان ،وإذا احتمل الزيادة والنقصان كان مخلوقاً».**(١٩٠)

هكذا ادعى يونس بن ظبيان أنّه سمع ذلك في حقّ هشام. ويونس، هذا هو ممّن يكيد لهشام ويبغضه، لأنّ يونس من الغالين الذين شوّهوا سمعة المذهب، وهو من أصحاب أبي الخطاب.

قال ابن الغضائري: يونس بن ظبيان كوفي غال كذّاب، وضّاع للحديث. روى عن أبي عبد الله، لا يلتفت إلى حديثه.(١٩١)

وقال النجاشي: إنّه مولى ضعيف جداً لا يلتفت إلى ما رواه، كلّ كتبه تخليط، وقد ورد لعنه على لسان الأئمة .(١٩٢)

وعلى أيّ حال، فإنّ هشام بن الحكم من المعدّبين في الله، وهو أجلّ من أن تنسب إليه تلك الأمور، وأعظم منزلة من كلّ مايرمونه به، فلا يلتفت إلى تلك الخرافات والأوهام والدسائس التي حيكت حول شخصيته.

هل تؤاخذ الأمة بقول الفرد؟!

ولم يكف خصوم هشام صوغ تلك العبارات واختراع تلك الحكايات في ذمّه والحطّ من كرامته، حتّى تجاوزوا الحدّ في ذلك، ونسبوا تلك الآراء المفتعلة لمجموع الشيعة، وهذا من الخطأ الفاحش.

ولو سلّمنا جدلاً أنّ هشام بن الحكم كان يعتقد بما نقل عنه - والعياذ بالله - فهل يصحّ لهم أن يجعلوا ذلك الرأي لمجموع الشيعة، وأنّ تلك العقائد المكذوبة هي من عقائد الشيعة؟ وهل يصح لهم مؤاخذة الكلّ بجريمة الجزء؟ وهذا أمر لا يبرّره منطق سليم، لأنّ جميع الهيئات والطوائف في المجتمع الإنساني لا تخلو من أفراد يحطّون من قدرها ويسيئون إلى سمعتها.

وقد استساغوا ذلك في حقّ الشيعة بنسبة الآراء الفردية لمجموع الأمة، وهذا كثير لا حصر له ولسنا بصدده الآن.

---

(١٩٠) التوحيد ص٩٩ ح ٧.
(١٩١) تنقيح المقال ج٣ ص٣٣٧ / ١٣٣٥٦.
(١٩٢) رجال النجاشي ج٢ ص٤٢٣ / ١٢١١.

وكما قلنا: إذا سلّمنا جدلاً بصحّة ما يقولونه في هشام - وليس لقولهم نصيب من الصحة - فهل يصحّ أن يجعل ذلك الرأي لمجموع الشيعة؟

وقد سلك هذه الطريقة الملتوية وارتكب هذا الخطأ الفاحش جماعة من القدماء وبعض المتأخرين ولم يكتفوا بالافتراء على هشام بل جعلوا ذلك لمجموع الشيعة إفكاً وزوراً. وعلى سبيل المثال نذكر مايقوله الخياط المعتزلي في كتابه الانتصار، وبعد أن ذكر تلك المفتريات عن هشام بن الحكم منتصراً لأشياخه، ومقلّداً للجاحظ في إفكه وبهتانه.

قال: الرافضة تعتقد أنّ ربّها ذو هيئة وصورة، يتحرك ويسكن، ويزول وينتقل، وأنّه غير عالم فعلم، إلى أن يقول : هذا توحيد الرافضة بأسرها إلاّ نفراً منهم يسيراً صحبوا المعتزلة واعتقدوا التوحيد، فنفتهم الرافضة عنهم وتبرأوا منهم.

أمّا جملتهم ومشايخهم مثل هشام بن سالم، وشيطان الطاق، وعلي بن ميثم، وهشام بن الحكم، والسكاك، فقولهم ما حكيت عنهم.

ثم يقول: الرافضة تقول: إنّ ربها جسم ذو هيئة وصورة، يتحرك ويسكن ويزول وينتقل .[١٩٣] فهل على وجه الأرض رافضي إلاّ وهو يقول: إن الله صورة.؟

ويروي في ذلك الروايات ويحتج فيه بالأحاديث عن أئمتهم إلاّ من صحب المعتزلة منهم - إلى آخر أقواله وتقوّلاته في كتاب الانتصار في مواطن متعددة - .

ولا أُريد مناقشة هذا الافتراء والدّس، وهذه الأقوال التي لا ربط لها بالحقيقة، ولا مساس لها بالواقع، ولكن من الحقّ أن نؤاخذه بهذا الانحراف، ونحاسبه على هذا الشذوذ في سلوك تلك الخطّة الملتوية، وقد سار على هذا كثير ممّن كتب عن الشيعة بدون تفكير وتدبّر، وذكروا فرقاً للشيعة بأسماء من ينسبون إليهم رأياً فردياً، وهو افتراء وتقوّل بالباطل.

ولئن صحّ هذا السلوك واستساغوا هذه اللغة فيصحّ للشيعة عندئذ هذا الاستعمال، فيقيسوا مجموع الأُمة بالفرد وينسبوا الآراء الفردية للجميع.

وقد اشتهر جماعة من علماء المذاهب الأُخرى والمقدّمين عندهم بشذوذ في الآراء وفساد في الاعتقاد وإليك منهم:

---

(١٩٣) الانتصار للخياط ص٣٦ - ٣٧.

١ - شهاب الدين يحيى بن حبش، فقد اشتهر عنه أنه كان زنديقاً، وله عقيدة الانحلال والتعطيل، وله أشياء منكرة، وكان بارعاً في علم الكلام مناظراً محجاجاً.[١٩٤]

٢ - محمد بن جمال الباجريقي الشافعي المعروف بالشمس، وقد عرف بالزندقة والإلحاد، وله أتباع ينسبون إليه، ويعكفون على ما كان يعكف عليه.[١٩٥]

٣ - الرفيع الجيلي الشافعي قاضي القضاة بدمشق المتوفى سنة (٦٤٢ هـ).

قال ابن شهبة في تاريخه: إنّه كان فاسد العقيدة دهرياً مستهزئاً بأُمور الشريعة.[١٩٦]

ويقول ابن العماد: إنّه سار سيرة فاسدة. مع قلّة دين وفساد عقيدة، مع استعمال المنكرات وحضور صلاة الجمعة سكراناً .[١٩٧]

٤ - عبد الله بن محمد بن عبد الرزاق الحربوي بن الخوام الشافعي، فإنّه نسب الوزير رشيد الدولة الى الربوبية بتقريضه تفسيره حتى قال شاعر وقته :

يا حزب إبليس ألا فابشروا *** إنّ فتى الخوام قد أسلما

وكان فيما قال في كفره *** إنّ رشيد الدين ربّ السما

وقال لي شيخ خبير به *** ما أسلم الشيخ بل استسلما[١٩٨]

فهل يصحّ هنا أن نؤاخذ الأُمة بهذا الرأي الفردي، كما أخذوا الشيعة بما ينسب للحسن بن هاني الشاعر الأندلسي في مدحه للمعز بقوله :

ماشئت لا ما شاءت الأقدار *** فاحكم فأنت الواحد القهار

وقالوا: إنّ الشيعة بلغوا في الغلوّ درجة بعيدة، ومثّلوا له بقول الحسن بن هاني[١٩٩].

وممّا يؤسف له أنّ هذا القول صدر من مثقف من أبناء عصر النور، فما قولنا في أبناء العصور المظلمة؟ وهذا القول هو أحد الدواعي التي ألجأتنا إلى إعطاء هذه الصورة وإثبات هذا العرض.

٥ ـ محمد بن العلي أبو عبد الله الحكيم الترمذي الشافعي.

---

(١٩٤) شذرات الذهب ج٤ ص٢٩، ومرآة الجنات ج٣ ص٤٣٧ .

(١٩٥) البداية والنهاية لابن كثير ج١٤ ص١٤.

(١٩٦) دول الإسلام ج٢ ص١١١، شذرات الذهب ص٧، ٣٧٣ .

(١٩٧) شذرات الذهب ج٥ ص٢١٤ .

(١٩٨) الدرر الكامنة ج٢ ص٢٩٢ .

(١٩٩) أثر التشيع في الأدب العربي لمحمد سيد كيلاني ص٨٩.

كان يفضّل الأولياء على الأنبياء، وقد ألف كتاباً في ذلك سماه ختم الولاية، وقال: إنّ للأولياء خاتماً كما إنّ للأنبياء خاتماً، وإنّه يفضل الولاية على النبوّة محتجاً بالحديث: «الأولياء يغبطهم النبيّون والشهداء». وقال: لو لم يكونوا أفضل منهم لم يغبطوهم.[٢٠٠]

٦ - الركن عبد السلام بن وهب بن عبد القادر الجيلاني الحنبلي المتوفى سنة (٦١١ هـ).

كان داعية للانحلال وحكم بكفره، وكان يخاطب النجوم ويقول لزحل: أيها الكوكب الدري المضيء المنير أنت تدبّر الأفلاك وتحيي وتميت وأنت إلهنا. وله في حقّ المريخ من هذا الجنس.[٢٠١]

٧ - صدقة بن الحسين البغدادي الحنبلي المتوفى سنة (٢٦٧ هـ).

كان بارعاً في فقههم وأصولهم، والمقدّم في عصره عندهم، مع سوء اعتقاده وفساد رأيه، ورداءة مذهبه. قال ابن الجوزي في المنتظم :إنّه يعترض على القدرة، وأورد له من الشعر ما يدل على سوء معتقده. كقوله:

لا توطّنها فليست بمقام *** واجتنبها فهي دار الانتقام

أتراها صنعة من صانع *** أم تراها رمية من غير رام

وقد وضعوا فيه مناماً بعد موته عندما سئل عن حاله فقال: غفر لي بتميرات تصدقت بها على أرملة .[٢٠٢]

٨ - إسماعيل بن علي الملقّب بفخر الدين الفقيه الحنبلي المتوفى سنة (٦١٦ هـ).

كان من المشهورين في علم الكلام، قرأ المنطق والفلسفة على ابن مرقيس الطبيب النصراني، وكان يتردّد عليه إلى بيعة النصارى، وصنّف كتاباً سمّاه نواميس الأنبياء، يذكر أنّهم كانوا حكماء، كهرمس، وأرسطاطاليس، وكان متسامحاً في دينه متلاعباً به، إلى آخر ما نقل عنه من الآراء الفاسدة، والأمور القبيحة .[٢٠٣]

كان أحد العلماء العارفين بالمذهب، ونسبت إليه أشياء قبيحة وآراء فاسدة.[٢٠٤]

٩ - إبراهيم الملقّب بشمس الدين الحنبلي المتوفى سنة (٦١٠ هـ).

---

(٢٠٠) طبقات الشافعية ج٢ ص٢٠.

(٢٠١) شذرات الذهب ج٥ ص٤٥.

(٢٠٢) لسان الميزان ج٣ ص١٨٦.

(٢٠٣) شذرات الذهب ج٥ ص٤١.

(٢٠٤) شذرات الذهب ج٥ ص٤٠.

١٠ - إبراهيم بن يوسف أبو إسحاق الأوسي المالكي المتوفى سنة (٦١١ هـ)المعروف بابن المرأة، كان فقيهاً مالكيّاً غلب عليه علم الكلام. ذكره ابن حبان في زنادقة أهل الأندلس.[٢٠٥]

١١ - أبو معن النميري من كبار المعتزلة، قال ابن قتيبة: ومن المشهور عنه أنّه رأى قوماً يتعادون إلى الجمعة لخوفهم فوت الصلاة فقال: أنظروا إلى البقر أنظروا إلى الحمُر. ثم قال لرجل من إخوانه: أنظر ما صنع هذا العربي بالناس؟[٢٠٦]

١٢ - ومحمد اللوشي الغرناطي المتوفى سنة (٧٧٦ هـ) فقد نسب إلى الزندقة والإلحاد والانحلال، والخروج عن الدين، وانتقاص النبي (صلى الله عليه وآله) إلى غير ذلك ممّا اتصف به .[٢٠٧]

وغير هؤلاء ممن يطول المقام ببسط القول فيهم، كالشيخ نجم الدين بن خلكان[٢٠٨] وإسماعيل بن عبد الله الرعيني، والفخر الرازي المؤرخ الكبير والمفسر الشهير [٢٠٩] ، وأبو حيان التوحيدي الشافعي وغيرهم ممّن رمي بالإلحاد والزندقة وسوء العقيدة ونسبت إليه آراء فاسدة.

وإذا أردنا أن نتوسّع في الموضوع ونرجع إلى أعيان المذاهب، ومن عليهم مدار أحكامها فالأمر أفظع.

فهذا محمد بن الحسن الشيباني المتوفى سنة (١٨٩ هـ)، وهو عماد المذهب الحنفي وقوامه، وعليه مدار أحكامه، لما قام به من التأليف ونشر المذهب، وإذا صحّ التعبير فنقول: هو إمام المذهب الحنفي الثاني، ومع هذا فقد رموه بالإرجاء وغيره، كما حكي عن أحمد بن حنبل أنه قال فيه: إنه مرجئ.[٢١٠]

وقد ردّ شريك القاضي شهادته ووقعت بينه وبين أبي يوسف منافرة، فكان أبو يوسف يقول: محمد بن الحسن جهمي. إلى غير ذلك من الأقوال فيه[٢١١].

ومن أعيان الحنفية: بشر بن غياث المريسي المتوفى سنة (٢١٨ هـ) فقد وصفوه: بأنه ضالّ مبتدع، ونصّ أبو زرعة على زندقته، وقال الأزدي: إنّه على غير طريقة

---

(٢٠٥) لسان الميزان ج١ ص١٢٧.
(٢٠٦) المصدر السابق ج٢ ص٨٣.
(٢٠٧) شذرات الذهب ج٦ ص٤٦ .
(٢٠٨) انظر مرآة الجنان ج٤ ص٢٤٢.
(٢٠٩) شذرات الذهب ج٥ ص٢١ .
(٢١٠) تاريخ بغداد ج٢ ص١٦٩ / ٥٩٣.
(٢١١) وفيات الأعيان ج٣ ص٢٢٤، ولسان الميزان ج٥ ص١٢١.

الإسلام. وإنّه كان ينكر عذاب القبر وسؤال الملكين، والصراط والميزان، إلى آخر ما روي عنه من الأقوال المنكرة، والآراء الفاسدة.[٢١٢]

وكذلك محمد بن شجاع الثلجي المتوفى سنة (٢٦٧ هـ). من فقهاء الحنفية، وله الرياسة في وقته، وقد نسب إلى البدعة.

سئل عنه أحمد بن حنبل فقال: مبتدع صاحب هوى. وقال الساجي: إنّ محمد بن شجاع كان كذّاباً، احتال في إبطال حديث رسول الله (صلى الله عليه وآله) نصرة لأبي حنيفة.

وقال ابن الجوزي: كان يضع الحديث في التشبيه وينسبه لأهل الحديث[٢١٣].

هذا عرض تاريخي موجز لجماعة اتّهموا بسوء الاعتقاد فتحمّلوا مسؤوليته دون غيرهم، وبوسعنا أن نذكر من الشخصيات العظيمة التي نسبوا إليها آراء فاسدة ومذاهب ذميمة، كأبي الحسن الأشعري[٢١٤] إمام أهل السنة، وشيخ الطريقة في الاعتقاد فقد وصفوه بالبدعة والضلالة، وانه أنكر نبوّة محمد (صلى الله عليه وآله)بعد موته، كما أنكر عذاب الله للعصاة والكفار، وأنّه تعالى لايجازي المطيعين على إيمانهم وطاعتهم. وكان يقول: بتكفير العوام [٢١٥] الى غير ذلك مما نسبوه له، وما اتهموه فيه. وكذلك ابن تيمية وابن القيم الجوزية وتاج الدين السبكي وغيرهم.

إنّنا لا نستعمل تلك الطريقة الملتوية، وذلك القياس المعكوس، فلا نقيس الأمة بالفرد، ولا نؤاخذ السليم بالسقيم، بل نتثبّت في الحكم على الشخصيات الإسلامية، فلا نتسرّع بقبول الاتّهام ما لم يتّضح الأمر، لأنّنا قد عرفنا أثر ذلك التطور الذي حدث في البلاد الإسلامية، فهو عامل من أخطر العوامل التي لعبت دورها في الحياة العقلية، في تلك العصور الماضية.

إلى جانب ذلك يلزمنا أن لا نهمل عوامل السياسة، والتهالك على السيادة في تفريق صفوف الأمة، وجعلها أحزاباً وفرقاً.

والغرض أنّ قياس الأمة بالفرد من الأمور التي لايقرّها المنطق. وقد سلكوا في اتّهام الشيعة طرقاً غير صحيحة، وكالوا لهم الذمّ جزافاً، بدون تمحيص وتدبّر،

---

(٢١٢) لسان الميزان ج٢ ص٣٠، والفوائد البهية في تراجم الحنفية ص٥٤، والفَرق بين الفِرق للبغدادي ص١٢٤.

(٢١٣) الفوائد البهية ص١٧٢.

(٢١٤) أبو الحسن الأشعري. هو علي بن إسماعيل يرجع نسبه الى أبي موسى الأشعري، توفي سنة (٣٢٤ هـ) كان معتزلياً ويعد من كبارهم ومتكلميهم، ثم رجع عن الاعتزال وألف كتباً في العقائد، فأصبح شيخ طريقة أغلب أهل السنة وعليه المدار في الاعتقاد.

(٢١٥) طبقات الشافعية ج٢ ص٢٧٨ ـ ٢٨٥.

ولعبوا في التاريخ وخاضوا فيه بالباطل (**فَذَرْهُمْ يَخُوضُواْ وَيَلْعَبُواْ حَتَّى يُلاقُواْ يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ**)[٢١٦] ولا نريد أن نقابلهم بالمثل ولا نقيم معهم الحساب بل نتركهم ليوم الحساب، يوم يقوم الناس لربّ العالمين، فهم مسؤولون أمام الله عن بذور التفرقة التي زرعوها في حقول التاريخ فاجتنت ثمرتها الأجيال; فكان من أثر تسمّم الثمرة أن يهاجمنا في كلّ آونة بعض من أبناء هذا العصر ممّن أخذ التقليد بعنقه. فسيّره طوع إرادته، وحرمه حريّة التفكير، ولكنّا لا نود مقابلته بل نمرّ على ما نقرأ له مرّ الكرام، داعين الله له بالشفاء من الأمراض العقلية.

وصفوة القول: إنّ تلك العصور التي عظم فيها التطاحن قد كدّرت صفو الأُخوة، وغيّرت مجرى الواقع. والشيء الذي نودّ أن ننبّه عليه في ختام هذا العرض: هو أنّه لما لم يكن الاتهام مبنيّاً على أساس وثيق، وقاعدة بيّنة، كثر الخلط والخبط، ولم يفرّقوا بين السليم والسقيم، والمتّهم والبريء. وإليك أمثلة من ذلك :

١ - إنّ اسم الجعفرية أصبح علماً لأتباع جعفر بن محمد الصادق، وبه يعرفون.

وتوجد هناك فرقتان من المعتزلة عرفتا بالجعفرية :

الأولى: أتباع جعفر بن حرب الثقفي المتوفى سنة (٢٢٤ هـ).

والثانية: أتباع جعفر بن مبشر الهمداني المتوفى سنة (٢٢٦ هـ)، وكلاهما من المعتزلة ولهما آراء وأقوال شاذة اشتهرت عنهما، وتناقلها الناس، وتبعهما على ذلك خلق عرفوا بالجعفرية [٢١٧] فجاء من لا يفرّق بين الحقّ والباطل ولا يعرف إلا اتّباع هواه، فخلط هذين الفرقتين مع الفرقة الجعفرية الشيعية، ونسب تلك الأقوال الشاذة إليهم بدون تفكير وتدبّر.

٢ - قولهم في المفضّل بن عمر إنّه كان يلعب بالحمام، وإنّه من أصحاب أبي الخطاب [٢١٨]، مع العلم بأنّ المفضّل هو أجلّ من ذلك، ولكنّهم لم يفرّقوا بينه وبين المفضل بن عمر الصيرفي، الذي كان من الخطابية ومن المخالفين لقواعد الإسلام، فخلطوا بين هذا وذاك ولم يهتدوا للتفرقة، ولعلّ أكثرهم يتعمّد ذلك للوقيعة في المفضّل، لأنّه شيعيّ من خواص الإمام الصادق (عليه السلام).

٣ - إنّ من المعتزلة فرقة تعرف بالهشامية، وهم أصحاب هشام بن عمر الفوطي[٢١٩]، وكان معاصراً لهشام بن الحكم، وقد ذهب الى اشياء منكرة.

---

(٢١٦) الزخرف: ٨٣ .

(٢١٧) ضحى الإسلام ج٣ ص١٤٨، انظر الانتصار ص٨١ و ٨٩ .

(٢١٨) قاموس الرجال ج٩ ص٩٣ - ١٠٤.

(٢١٩) الملل والنحل للشهرستاني ج١ ص٧٠.

وأنت عند مراجعتك لما اتّهم به هشام من تلك الأمور المفتعلة تجد أكثرها من أقوال الفوطي، لأنهّم خلطوا في ذلك، ولم يفرقوا بين هشام بن الحكم وبين هشام بن عمرو الفوطي[٢٢٠]!!

وكثير من هذا الخبط والخلط، ممّا يطول بنا الحديث عنه والحديث شجون.

ولنعد إلى الحديث عن هشام ومكانته، ونرى من الخير أن نذكر هنا وصيّة الإمام موسى بن جعفر له فهي من غرر الوصايا، وجوامع الكلم، وعلى ضوئها نأخذ صورة عن منزلة هشام. وقد اقتطفنا منها قليلاً، وهي طويلة.

وصية الإمام موسى (عليه السلام) **له**

قال الإمام موسى بن جعفر (عليه السلام) موصّياً هشاماً :

يا هشام، من أراد الغنى بلا مال، وراحة القلب من الحسد، والسلامة في الدين، فليتضرّع إلى الله في مسألته بأن يكمل له عقله، فمن عقل قنع بما يكفيه، ومن قنع بما يكفيه استغنى، ومن لم يقنع بما يكفيه لم يدرك الغنى أبداً.

يا هشام، من صدق لسانه زكى عمله، ومن حسنت نيته زيد في رزقه، ومن حسن برّه بإخوانه وأهله مُدّ في عمره.

يا هشام، لا تمنحوا الجهّال الحكمة فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم.

يا هشام، كما تركوا لكم الحكمة فاتركوا لهم الدنيا.

يا هشام، إنّ أمير المؤمنين عليه السلام كان يقول: لا يجلس في صدر المجلس إلا رجل فيه ثلاث خصال : يجيب إذا سئل، وينطق إذا عجز القوم عن الكلام، ويشير بالرأي الذي فيه صلاح أهله. فمن لم يكن فيه شيء منهن فجلس، فهو أحمق.

يا هشام، إنّ العاقل لا يحدث من يخاف تكذيبه، ولا يسأل من يخاف منعه، ولا يعد مالا يقدر عليه، ولا يرجو ما يعنّف برجائه، ولا يتقدّم على ما يخاف العجز عنه.

يا هشام، رحم الله من استحيا من الله حقّ الحياء فحفظ الرأس وما حوى، والبطن وما وعى، وذكر الموت والبلى، وعلم أنّ الجنة محفوفة بالمكاره، والنار محفوفة بالشهوات.

يا هشام، من كفّ نفسه عن أعراض الناس أقال الله عثرته يوم القيامة، ومن كفّ غضبه عن الناس كفّ الله عنه غضبه يوم القيامة.

---

(٢٢٠) هو أبومحمد الفوطي، المعتزلي، الكوفي، مولى بني صاحب ذكاء وجدال وبدعة ووبال. سير أعلام النبلاء ج١٠ ص٥٤٦ رقم ١٧٧.

يا هشام، تعلّم من العلم ما جهلت، وعلّم الجاهل ممّا علمت. عظّم العالم لعلمه ،وصغّر الجاهل لجهله ولا تطرده ولكن قرّبه وعلّمه.

يا هشام، عليك بالرفق، فإنّ الرفق يمنّ، والخرق شؤم، إنّ الرفق والبر وحسن الخلق يعمّر الديار، ويزيد في الأعمار.

يا هشام، إنّ مثل الدنيا مثل الحيّة مسّها ليّن، وفي جوفها السمّ القاتل. يحذرها الرجال ذوو العقول ،ويهوي إليها الصبيان بأيديهم.

يا هشام، إنّ الزرع ينبت في السهل ولا ينبت في الصفا، فكذلك الحكمة تعمر في قلب المتواضع، ولا تعمر في قلب المتكبر الجبّار، لأنّ الله جعل التواضع آلة العقل، وجعل التكبر آلة الجهل، ألم تعلم أنّ من شمخ إلى السقف شجّه، ومن خفض رأسه استظل تحته وأكنّه، وكذلك من لم يتواضع لله خفضه الله ومن تواضع لله رفعه.

يا هشام ، إياك ومخالطة الناس والأنس بهم، إلاّ أن تجد بهم عاقلاً ومأموناً فآنس به، واهرب من سائرهم كهربك من السباع الضارية. وينبغي للعاقل إذا عمل عملاً أن يستحي من الله. وإذا مرّ بك أمران لا تدري أيّهما خير وأصوب فانظر أيّهما أقرب إلى هواك فخالفه، فانّ كثير الصواب في مخالفة هواك.

يا هشام، من أحبّ الدنيا ذهب خوف الآخرة من قلبه. وما أوتي عبد علماً فازداد من الدنيا حباً إلاّ ازداد من الله بعداً، وازداد الله عليه غضباً.

يا هشام، إيّاك والطمع، وعليك باليأس ممّا في أيدي الناس، وأمت الطمع من المخلوقين فإنّ الطمع مفتاح للذل واختلاس العقل، واختلاق المروءات وتدنيس العرض، والذهاب بالعلم. وعليك بالاعتصام بربك والتوكل عليه، وجاهد نفسك لتردّها عن هواها، فإنّه واجب عليك كجهاد عدوك.

قال هشام: قلت أي الأعداء أوجبهم مجاهدة؟

قال(عليه السلام)**: أقربهم إليك، وأعداهم لك، وأضرهم بك، وأعظمهم لك عداوة، وأخفاهم لك شخصاً - مع دنوّه منك...**

يا هشام، من أكرمه الله بثلاث فقد لطف له: عقل يكفيه مؤنة هواه، وعلم يكفيه مؤنة جهله، وغنى يكفيه مخافة الفقر.

يا هشام، احذر هذه الدنيا واحذر أهلها، فإنّ الناس فيها على أربعة أصناف: رجل متردي معانق لهواه، ومتعلم مقرئ كلما ازداد علماً ازداد كبراً يستعلي بقراءته وعلمه على من هو دونه، وعابد جاهل يستصغر من هو دونه في عبادته، يحب أن يعظّم ويوقر، وذو بصيرة ولا يقدر على القيام بما يعرفه فهو محزون مغموم بذلك، فهو أمثل أهل زمانه وأوجبهم عقلاً.

ثم ذكر (عليه السلام) العقل وجنده والجهل وجنده. وتركنا ذلك اختصاراً.

وخلاصة القول: إنّ هشام بن الحكم قد عزّ بولائه لأهل البيت(عليهم السلام)، وناظر جميع أهل الفِرق في التوحيد والإمامة، وضحّى براحته في سبيل مبدئه، وبذل أقصى الجهد من أجل إصلاح العقيدة والقضاء على البدعة. وكان يستمدّ تعاليمه من ينبوع أهل بيت النبوّة، هداة الخلق، وأئمّة العدل. وقد لقي العنت من حسّاده ومنافسيه، وكان عرضة للخطر من قبل سلطان عصره حتى أصبح مشرّداً عن البلاد. وقد طلبه هارون الرشيد أشدّ الطلب حتى أدركه الموت بالكوفة مختفياً، وأوصى أن يحمل في جوف الليل، ويدفن بالكناسة، وتكتب رقعة على قبره: هذا قبر هشام بن الحكم - الذي طلبه أمير المؤمنين - مات حتف أنفه.

وبلغ هارون الرشيد ذلك فقال: الحمد لله الذي كفانا أمره. وكان هارون قد أخذ به خلقاً كثيراً من تلامذته وأصحابه، ومنهم إخوانه. فأفرج عنهم بعد موته وأطلقهم.(٢٢١)

لقد كان هشام من المفكرين المصلحين، الذين خدموا الأمة بإخلاص النية وصدق العزيمة ورجاحة الرأي. وله القدح المعلى في نصرة مذهب أهل البيت (عليهم السلام) وإنّك عندما تتبع آثاره الخالدة تجده يلتفت إلى النوادر من الفروع. وإلى الغوامض من المسائل، وله كلمات خالدة ذكرها العلماء في مختلف المواضيع: في التوحيد، والنبوة، والإمامة، وقد ضاق المجال عن استقصائها.

وقد كانت لي رغبة شديدة في إحياء مآثره والإحاطة بدراسة شخصيته دراسة وافية غير أني لمّا وجدت شيخنا المظفر قد كتب رسالة كبيرة قيّمة فيه. تركت الميدان لفارس الحلبة. فرحم الله هشاماً، لقد أوذي في سبيل نصرة الحقّ، وكان من (**الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ**)(٢٢٢)

وهنا ينتهي حديثنا عن أصحاب الإمام الصادق (عليه السلام)، ولم نذكر كثيراً منهم طلباً للاختصار. وستأتي الإشارة الى الأعيان منهم كهشام بن سالم الجواليقي، وهشام بن الأحمر، وهشام بن المثنى الرازي، وغيرهم، وبالله نستعين ومنه نستمد التوفيق.

---

(٢٢١) أنظر تنقيح المقال ج٣ ص٢٩٤ / ١٢٨٥٣.

(٢٢٢) الأنعام: ٨٢.

الفِرق الإسلامية

في عصر الإمام الصادق(عليه السلام)

الفِرق الإسلامية في عصر الإمام الصادق(عليه السلام)

تمهيد

لعلّ خير ما يعكس لنا أهمية الدور الذي لعبته مدرسة الإمام الصادق (عليه السلام)والنشاط العلمي الذي قامت به في ذلك العصر، واتّساع نفوذها وكثرة روّادها هو ما نجده في انتماء رجال من أهل العلم إليها، وحضورهم عنده لانتهال العلم، وأخذ الأحكام، فقد كانت مدرسته (عليه السلام) جامعة اسلامية، يؤمّها المسلمون من مختلف الطوائف، وشتّى الفرق، فهي مدار الحركة الفكرية، والمحور الذي تدور عليه آمال الموجهين وحملة الدعوة الإسلامية، وقد أثرت تعاليمه (عليه السلام)في كثير من أولئك الرجال فاعتدلوا في آرائهم.

والإمام أبو حنيفة الذي عرف بكثرة القياس وطرح أكثر الأحاديث يكشف لنا أهميّة هذه المدرسة وعظيم أثرها إذ يقول: «لولا السنتان لهلك النعمان» والسنتان هما اللتان حضر بهما عند الإمام الصادق (عليه السلام) وكان الإمام الصادق (عليه السلام)يشتدّ عليه، في كثرة القياس ويناظره في ذلك، وبهذا يتّضح أنّ أبا حنيفة في أخذه اقوال الإمام الصادق (عليه السلام)، واتّباع أمره يعدّ نفسه في نجاة من الهلكة، وربّما يكون ذلك في تركه القياس، وأخذه بالأحاديث الصحيحة.

ومهما يكن من أمر فقد حدّثنا التاريخ عن أولئك الرجال الذين ينتمون لفرق مختلفة قد حضروا عند الإمام الصادق (عليه السلام) وناظرهم، وفنّد كثيراً من آرائهم، وقد كان(عليه السلام) يتحرّى من برز منهم مخافة اشتداد خطره واستفحال أمره، فإن لم يأته كبقيّة أصحاب الفِرق والمعتقدات والأفكار الذين يقصدونه للكلام والمناظرة، وجّه أصحابه وأوصاهم بطريقة الوعظ وبمنهج الكلام الذي يختصّ بهذا الجانب فيمضي الأصحاب في حلقاتهم ودروسهم على تلك الطريقة وذلك المنهج، ومن قصده من أصحاب الفِرق والأقوال بعد سماعه ما تتحدّث به الركبان وتلهج به الألسن من علم الإمام الصادق، يَلْقَ من الإمام حججاً ساطعة وبراهين واضحة لا يملك معها الإنسان إلاّ أن يثوب الى رشده أو يكابر أو يعاند، ومن الضروري التعرّف على أهمّ

تلك الفرق الإسلامية، التي نشأت في عصره أو سبقته بدون إحاطة أو إسهاب في البيان.

الخوارج

نشأت هذه الفرقة بصفّين، عندما طلب معاوية التحكيم من علي (عليه السلام)، وهي خدعة حربية استعملها معاوية ودلّه عليها ابن العاص عندما أحسّ بالهزيمة ولمس الضعف في جيشه، وعرف تفوق علي بحقّه، وإنّ الحقّ مع علي(عليه السلام)وقد انضمّ لجيشه رجال مخلصون قد رسخ الإيمان في قلوبهم.

أراد معاوية أن يوقع الشك، ويحدث الفرقة في صفوف جيش علي (عليه السلام)وقد وقع ما أراد معاوية فقد نفرت طائفة لم يتركز الإيمان في قلوبهم ومرقوا من الدين، ولم يقبلوا تحكيم أحد في كتاب الله ورأوا أنّ التحكيم خطأ، لأنّ حكم الله في الأمر واضح جليّ، والتحكيم يتضمّن شكّ كلّ فريق من المحاربين أيّهما المحقّ؟ وليس يصحّ هذا الشكّ، لأنّهم وقتلاهم إنّما حاربوا وهم مؤمنون.

هذه المعاني المختلجة في نفوسهم صاغها أحدهم في الجملة الآتية:«لا حكم إلاّ لله» فَسَرت هذه الجملة سير البرق إلى من يعتنق هذا الرأي، وتجاوبتها الأنحاء فأصبحت شعار هذه الطائفة ـ الخوارج ـ :

وعلى أيّ حال، فقد تكوّنت هذه الفرقة من عناصر مختلفة، وظهرت منهم مخالفة علي (عليه السلام) وتجرّأوا على مقامه. ونسبوا إليه ما لا يليق بشأنه.

وقد نظّموا أُمورهم، وقاموا بأمر لم يكن وليد وقته وإنّما هو أمر مدبّر من ذي قبل، فكانت حرب النهروان وقضى الإمام علي (عليه السلام) على زعمائهم.

واستمروا على اعتقادهم وحماسهم، وكانوا يظنّون أنّهم أشدّ فرق المسلمين دفاعاً عنه، وأظهروا غضبهم على كثير من الخلفاء، واستعملوا ألفاظاً معسولة في الدعوة إلى مبادئهم، وتظاهروا بالهدف الى العدل والمساواة، ولكنّهم تلبسوا بالظلم الى أبعد حدّ، وأباحوا دماء جميع المسلمين، وخضبوا البلاد الإسلامية بالدماء. وكانوا يتهوّرون في دعوتهم، ويتشدّدون في عقيدتهم، ويرون إباحة دماء المسلمين الذين يخالفون عقيدتهم، فالمسلم المخالف لهم لا عصمة لدمه.

ومن طريف أخبارهم: أنّهم أصابوا مسلماً ونصرانياً فقتلوا المسلم وأوصوا بالنصراني، وقالوا: احفظوا ذمة نبيّكم فيه. وقتلوا عبد الله بن خباب وفي عنقه مصحف، وقالوا: إنّ الذي في عنقك يأمرنا أن نقتلك، فقرّبوه إلى شاطئ النهر فذبحوه وبقروا بطن زوجته.

وساوموا نصرانياً نخلة له، فقال: هي لكم، فقالوا: والله ما كنّا لنأخذها إلاّ بثمن، فقال لهم النصراني: ما أعجب هذا ؟

أتقتلون مثل عبد الله بن خباب ولا تقبلوا منّا ثمن نخلة؟!. (٢٢٣)

آراء الخوارج وفرقهم

اتّفق جمهور الخوارج على نظريتين :

١ ـ نظرية الخلافة: وهي أنّ الخليفة لا يكون إلا بانتخاب حرّ صحيح من المسلمين، ويستمر الخليفة ما قام بالعدل مبتعداً عن الزيغ والخطأ، فإن حاد وجب عزله أو قتله.

٢ ـ إنّ العمل جزء من الإيمان، وليس الإيمان الاعتقاد وحده، فمن لم يعمل بفروض الدين وارتكب الكبائر فهو عندهم كافر. ولم يفرّقوا بين ذنب يرتكب عن قصد وسوء نيّة وخطأ في الرأي والاجتهاد يؤدي إلى مخالفة الصواب، وبهذا كفّروا جميع فرق المسلمين وأباحوا دماءهم.

والخوارج لا يرون أن يختصّ الخليفة ببيت من العرب، فليست الخلافة في قريش عندهم، وليست لعربي دون أعجمي، والجميع فيها سواء، بل يفضّلون أن يكون الخليفة من غير قريش ليسهل عزله أو قتله.

وبهذا استمالوا العناصر غير العربية، وجلبوا الموالي إليهم، لأنّ آراء الخوارج من شأنها أن تجعل للموالي الحقّ في أن يكونوا خلفاء، لذلك التحق بهم عدد كثير من الموالي، ولولا تعصّب بعض الخوارج عليهم لازداد عددهم، لأنّ هذه الآراء تفسح المجال لتدخّل الدخلاء في الإسلام، ومع ذلك فقد تكوّنت فرقة منهم انضمّت لفرقة الخوارج، وهم اليزيدية أتباع يزيد بن أنيسة الخارجي، وادّعوا أنّ الله سبحانه و تعالى يبعث رسولاً من العجم ينزل عليه كتاباً ينسخ الشريعة المحمدية. وكذلك تكونت

---

(٢٢٣) العقد الفريد ج٢ ص٣٩٠.

فرقة الميمونية، أتباع ميمون العجردي، وأظهروا عقائد المجوس، فكانوا يبيحون نكاح بنات الأولاد وبنات أولاد الأخوة، وبنات أولاد الأخوات.

فرق الخوارج

ذُكر للخوارج فرق كثيرة قاربت العشرين فرقة على حسب اختلافهم في الآراء، وأهمّ فرقهم المشهورة :

الأزارقة

وهم أتباع نافع بن الأزرق، وكان من أكبر فقهائهم. وقد كفّر جميع المسلمين. وقال: إنّه لا يحلّ لأحد من أصحابه أن يجيبوا أحداً من غيرهم إذا دعاهم إلى الصلاة، ولا أن يأكلوا من ذبائحهم، ولا أن يتزوّجوا منهم، ولا يتوارث الخارجي وغيره، وهم مثل كفّار العرب وعبدة الأوثان، لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف. ودارهم دار حرب، ويحلّ قتل أطفالهم ونسائهم، ولا تحلّ التقية، واستحلّ الغدر بمن خالفه.

وأسقطوا الرجم عن الزاني إذ ليس له في القرآن ذكر، كما أسقطوا حدّ القذف عمّن قذف المحصنين من الرجال، مع وجوب الحدّ على قاذف المحصنات من النساء. وقالوا: يجوز أن يبعث الله نبيّاً يعلم أنّه يكفر بعد نبوّته، أو كان كافراً قبل البعثة.

وكان أصحاب نافع من أقوى فرق الخوارج وأكثرهم عدداً، خرجوا من البصرة معه، فتغلّبوا على الأهواز وما وراءها من بلدان فارس وكرمان، وقتلوا عمال تلك النواحي واشتدّت شوكتهم ووقعت حروب بينهم وبين الدولة الأموية بما لا يسع المجال لذكرها .[٢٢٤]

النجدات

وهم أتباع نجدة بن عامر الحنفي. وهم الذين خالفوا نافعاً وانفردوا بتعاليم منها: إنّ المخطئ بعد ان يجتهد معذور، وإنّ الدين أمران: معرفة الله، ومعرفة رسوله، وما عدا ذلك فالناس معذورون بجهله إلى أن تقوم عليهم الحجة، ومن أدّاه اجتهاده إلى استحلال حرام أو تحريم حلال فهو معذور. وأنّ من كذب كذبة صغيرة أو كبيرة أو

(٢٢٤) تاريخ الطبري ج٥ ص٦١٣، الكامل في التاريخ ج٤ ص١٩٥.

نظر نظرة وأصرّ عليهما فهو مشرك. ومن شرب الخمر أو زنا أو سرق غير مصرّ على ذلك، فهو مسلم. ويوجبون قتل من خالفهم من المسلمين.[٢٢٥]

الأباظيـة

وهم أتباع عبد الله بن أباض التميمي، الذي خرج أيام مروان الحمار. آخر ملوك بني أمية، ولا يزال أتباعه إلى اليوم في المغرب، ولعلّهم هم البقية من جميع فرق الخوارج الكثيرة. فقد انقرضت تلك الفرق ولم تبق منهم باقية إلاّ الأباضية، وهم على عقيدتهم في تكفير جميع المسلمين، ويعتذرون عنهم بأنّهم يذهبون إلى تكفيرهم لا على سبيل الشرك، بل يرون أنهم كفار نعمة.

ومن جملة آرائهم: أنّ دماء مخالفيهم حرام في السر لا في العلانية، ودارهم دار توحيد. وإنّهم ليسوا مشركين ولا مؤمنين، ويسمّونهم كفاراً، ولا يحلّ من غنائمهم في الحرب إلا الخيل والسلاح.

ولا يزال الأباضيون يؤلفون جماعات عديدة في أفريقية الشمالية، ويوجد فريق آخر بزنجبار بأفريقية الشرقية. أمّا الوطن الأصلي للأباضيين الذين يهاجرون إلى افريقية الشرقية فهو بلاد عمان العربية.

وقد حاولوا في السنوات الأخيرة أن يستنهضوا همّتهم ونشاطهم وأن يستعيدوا الشعور بكيانهم. وتقسم الأباضية ذاتها الى ثلاث شعب هي الحفصية، والحارثية، واليزيدية .[٢٢٦]

الصُفرية

وهم أتباع زياد بن الأصفر، وقولهم في الجملة كقول الأزارقة في أنّ أصحاب الذنوب مشركون، لكنّهم أقلّ تطرفاً منهم، وأشدّ من غيرهم، فلا يرون قتل أطفال مخالفيهم ونسائهم، والأزارقة يرون ذلك. واختلفوا في مرتكب الكبائر فلم يتفقوا على إشراكه، فمنهم من يرى أنّ ما كان من الأعمال عليه حد واقع لا يسمى صاحبه إلاّ بالاسم الموضوع له، وسمّاه الله به كالسارق والزاني، وما ليس فيه حدّ فمرتكبه كافر.

---

(٢٢٥) الفَرق بين الفِرق ص٨٧، الملل والنحل للشهرستاني ج١ ص١١٠ .
(٢٢٦) الأباضية بين الفِرق الإسلامية ص٢١ و ٢٢.

ومن زعماء الصفرية: أبو هلال مرداس، الذي خرج أيام يزيد بن معاوية بناحية البصرة، على عبيد الله بن زياد.

ومنهم: عمران بن حطان، وقد انتخبه الخوارج إماماً لهم، وهو القائل يمدح عبد الرحمن بن ملجم المرادي :

يا ضربة من منيب ما أراد بها *** إلاّ ليبلغ من ذي العرش رضوانا
إنّي لأذكره يوماً فأحسبه *** أوفى البريّة عند الله ميزانا

وأجابه جماعة، منهم عبد القادر البغدادي المتوفّى (٤٢٩ هـ) :

يا ضربة من كفور ما استفاد بها *** إلاّ الجزاء بما يصليه نيرانا
إنّي لألعنه ديناً وألعن من *** يرجو له أبداً عفواً وغفرانا
ذاك الشقيّ لأشقى الناس كلهم *** أخفّهم عند رب الناس ميزانا

وعمران بن حطان قد خرّج حديثه البخاري ووثّقه[٢٢٧]، وهذا من مزايا صحيحه وامتيازه .

العجاردة

وهم أتباع عبد الكريم بن عجرد، وكانت العجاردة مفترقة عشرة فِرق، ثم افترقوا فرقاً كثيرة، منها ما يتعلّق بالقدر وقدرة العبد، ومنها ما يتعلّق بأطفال المخالفين. وقد فارقوا الأزارقة في عدم استحلال أموال مخالفيهم.

هذا جملة القول في أهم الخوارج. وقد بلغت فرقهم عشرين في العدد، وكل فرقة تخالف الأخرى في تعاليمها وآرائها، إلا أنّهم اتفقوا على النظريتين السابقتين. كما أجمعوا على تكفير علي، وعثمان، وأصحاب الجمل، والحكمين ومن رضي بالتحكيم، وصوّب الحكمين أو أحدهما، واعترفوا بصحة خلافة الشيخين، وبهذا قد اكتسبوا الرضا من أكثر من كتب عن الفرق، فإنّك تجد اللهجة خفيفة في التعبير عنهم، وربّما وصفوا زعماءهم بالزهد والصلاح.

فالخوارج - مع عظيم إجرامهم - لا يوصفون بما وصف به الشيعة، فهم يكفّرون علياً، ولكن لا يعدّ هذا جرماً في نظر المتطرّفين، فلم يعبّروا عنهم كما يعبّرون عن الشيعة بتلك العبارات القبيحة، والألفاظ المستهجنة وهم يوالون عليّاً ويذهبون لأحقيّته بالخلافة.

---

(٢٢٧) الملل والنحل للشهرستاني ج١ ص١٢١ - ١٢٢.

وبدون شكّ أنّ حركة الخوراج كانت من أكبر العوامل التي هدّدت المسلمين بأخطار شتّى، وقد اتخذوا تكفير جميع فرق المسلمين وسيلة لنشاط دعوتهم، لأنّ ارتكاب الجرائم - بمبرر - يميل إليه أهل الشغب والأهواء .

ولو لم يكن من مبدئهم وجوب الخروج على أئمّة الجور لاستخدمتهم سياسة تلك العصور، ولعزّزت جانبهم للفتك بمن يريدون الفتك به.

ولكن ذلك الاعتقاد - وهو وجوب الخروج - هو الّذي أوجب أن تقاومهم السلطة، فتدور رحى الحرب معهم مدة من الزمن، وقد سجّل التاريخ عنها حوادث كثيرة.[٢٢٨]

المعتزلة

يطول بنا الحديث عن المعتزلة إن أردنا بيان فرقها، وأسباب افتراقها وآرائها السياسية والدينية، ونشاطها الفكري، وحياتها العقلية. وقد اختلف في تاريخ نشأتها، وتسميتها بهذا الاسم، فهل كانت على عهد الصحابة أم على عهد الحسن البصري، لاعتزال واصل بن عطاء حلقة درس الحسن؟ الى كثير من الأبحاث حول هذه الفرقة. ونحن نكتفي بإلمامة موجزة لبيان الغرض في ذلك .

الأكثر على أنّ الاعتزال نشأ في البصرة، عندما اعتزل واصل بن عطاء المتوفى سنة (١٣١ هـ) . حلقة درس الحسن البصري، لمخالفته إياه في مسألة مرتكب الكبيرة، فقال واصل: أنا أقول إنّ صاحب الكبيرة ليس بمؤمن بإطلاق، بل هو في منزلة بين المنزلتين، أي أنّ مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر، لكنّه فاسق، والفاسق يستحقّ النار بفسقه.

فِرق المعتزلة

قال الخياط في كتاب الانتصار: ليس يستحقّ أحد اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة: التوحيد، والعدل، والوعد، والوعيد، والمنزلة بين المنزلتين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإذا كمنت في الإنسان هذه الأصول الخمسة فهو معتزلي.[٢٢٩]

وافترقت المعتزلة الى فرق كثيرة، منهم:

١ ـ الواصلية وهم أصحاب واصل بن عطاء .

٢ ـ الهذيلية وهم أصحاب أبي الهذيل العلاف.

---

(٢٢٨) أنظر تاريخ الطبري ج٥ ص٦١٣ و ٥٦٤ و ٥٦٧، أنظر الكامل للمبرد ج٢ ص١٨١.

(٢٢٩) الانتصار ص١٢٠.

٣ ـ النظامية وهم أصحاب النظام ابراهيم بن سيار.
٤ ـ الحائطية وهم أصحاب أحمد بن حائط.
٥ ـ البشرية وهم أصحاب بشر بن المعتمر.
٦ ـ المعمرية وهم أصحاب معمر بن عباد السلمي.
٧ ـ المزدارية وهم أصحاب عيسى، المكنى بأبي موسى الملقب بالمزدار.
٨ ـ الثمامية وهم أصحاب ثمامة بن أشرف النمري.
٩ ـ الهشامية وهم أصحاب هشام بن عمر الفوطي.
١٠ ـ الجاحظية وهم أصحاب عمرو بن بحر الجاحظ.
١١ ـ الخياطية وهم أصحاب أبي الحسين الخياط.
١٢ ـ الجبائية وهم أصحاب أبي علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي.
وغيرهم .

كما هو مذكور في كتب أهل المقالات والفرق، وقد ذكروا لهم أقوالاً شاذة وآراء فاسدة. وقد ألّف الأشعري كتاباً في تكفير النظام.

ويتّفق المعتزلة في الاعتقاد بأنّ الله قديم. والقدم أخصّ وصف لذاته ونفوا الصفات القديمة أصلاً فقالوا: هو عالم لذاته، قادر لذاته، حيّ لذاته، لا بعلم وقدرة وحياة، هي صفات قديمة ومعاني قائمة به لأنّه لو شاركته الصفات في القدم ـ الذي هو أخصّ الوصف ـ لشاركته في الإلهية.

واتفقوا على أنّ كلامه محدث مخلوق في محل. وهو حرف وصوت كتب أمثاله في المصاحف حكايات عنه، فأينما وجد في المحل عرض فقد فني في الحال.

واتّفقوا على أنّ الإرادة، والسمع، والبصر، ليست معاني قائمة بذاته.

واتّفقوا على أنّ العبد قادر خالق لأفعاله ـ خيرها وشرّها ـ مستحق على ما يفعله ثواباً وعقاباً في الدار الآخرة، والرّب منزّه أن يضاف إليه شرّ وظلم.

واتّفقوا على أنّ الحكيم لا يفعل إلاّ الصلاح والخير، ويجب من حيث الحكمة رعاية مصالح العباد. وأما الأصلح واللطف ففي وجوبه خلاف عندهم وسمّوا هذا النمط عدلاً.

واتفقوا على أنّ المؤمن إذا خرج من الدنيا على طاعة وتوبة استحق الثواب والعوض والتفضل، ومعنىً آخر وراء الثواب. وإذا خرج من غير توبة عن كبيرة ارتكبها استحق الخلود في النار، ويكون عقابه أخفّ من عقاب الكفار، وسمّوا هذا النمط عدلاً ووعيداً.

واتّفقوا على أُصول المعرفة وشكر النعمة واجبان قبل ورود السمع. والحسن والقبيح يجب معرفتهما بالعقل، واعتناق الحسن واجب، واجتناب القبيح واجب كذلك. وورود التكاليف ألطاف للباري تعالى، أرسلها إلى العباد بتوسط الأنبياء امتحاناً واختباراً.

واختلفوا في الإمامة والقول فيها - نصّاً واختباراً - كما هو بيّن في مقالاتهم وآراء فرقهم.

ولسنا هنا بصدد الاشتغال بتفصيل أقوالهم وآرائهم. وإنّ أهمّ غرض هو معرفتهم بموجز من القول، لأنّ المعتزلة كوّنوا جوّاً فكريّاً، وبرعوا في علم الكلام، وكانت الخصومة شديدة بينهم وبين رجال الشيعة، الذين اشتهروا في هذا العلم، كما أنّ النزاع بينهم وبين الأشاعرة والمجسّمة بلغ إلى درجة الخروج عن حدود المقبول، وتعدّى إلى التهريج والاعتداء، كما هو المذكور في تاريخ عصورهم.[٢٣٠]

المرجئة وفرقهم

وهم الذين يبالغون في إثبات الوعد، وهم عكس المعتزلة المبالغين في إثبات الوعيد، فهم يرجون المغفرة والثواب لأهل المعاصي، ويرجئون حكم أثبات الكبائر إلى الآخرة، فلا يحكمون عليهم بكفر ولا فسق ويقولون: إنّ الإيمان إنّما هو التصديق بالقلب واللسان فحسب، وإنّه لا يضرّ مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، فالإيمان عندهم منفصل عن العمل. ومنهم من زعم أنّ الإيمان اعتقاد بالقلب، وإن أعلن الكفر بلسانه، وعبد الأوثان أو لزم اليهودية والنصرانية، وعبد الصليب، وأعلن التثليث في دار الإسلام، ومات على ذلك، فهو مؤمن كامل الإيمان عند الله، وهو وليّ الله، ومن أهل الجنة، ذكر ذلك ابن حزم .[٢٣١]

وكلمة الإرجاء على معنيين :

أحدهما: التأخير مثل قوله تعالى: **(قالُوا أرجِه وأخَاهُ)**[٢٣٢] أي أمهله وأخّره.

ثانيهما: إعطاء الرجاء، أمّا إطلاق اسم - المرجئة - على الجماعة بالمعنى الأول فصحيح، لأنّهم كانوا يؤخرون العمل على النيّة والعقد، وأمّا بالمعنى الثاني فظاهر، لأنّهم كانوا يقولون : لا يضرّ مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، ولقد

---

(٢٣٠) أنظر ضحى الإسلام ج٣ ص٢١ - ٢٠٧، انظر الملل والنحل للشهرستاني ج١ ص٤٩ - ١٣٠، أنظر الفصل في الملل والنحل ج٥ ص٥٧ .

(٢٣١) الفصل في الملل والنحل لابن حزم ج٣ ص٢٢٧.

(٢٣٢) الأعراف: ١١١ .

اضطربت الأقوال حول نشأة هذه الفرقة وبدء تكوينها، ولم نستطع بهذه العجالة تحديد ذلك على وجه التحقيق.

ويرى النوبختي: ولما قتل عليّ(عليه السلام) بسيف ابن ملجم المرادي واتفقت بقيّة الناكثين والقاسطين وتبعة الدنيا على معاوية فسمّوا المرجئة، وزعموا أنّ أهل القبلة كلّهم مؤمنون بإقرارهم الظاهر بالإيمان، ويرجون لهم جميعاً المغفرة[٢٣٣].

وفي الواقع أنّ هذه الفرقة سياسية، ولكنّها أخذت تخلط بالسياسة أصول الدين، فهم أعوان الأمراء والمنضوون تحت لوائهم، يؤيّدون دولتهم مع ارتكابهم المحارم، وانغماسهم بالجرائم.

وقد فسح هذا المبدأ للمفسدين والمستهترين طريق الوصول إلى غاياتهم بما يرضي نهمهم، وقد اتخذّوه ذريعة لمآثمهم، ومبرراً لأعمالهم القبيحة، وساتراً لأغراضهم الفاسدة.

وقد أيّدوا - برأيهم هذا - خلفاء الدولة الأموية، تأييداً عمليّاً، فهم في الواقع قد فتحوا باب الجرأة على ارتكاب المحارم، وأيّدوا المجرمين، ووازروا الظلمة، وهوّنوا الخطب في العقاب والمؤاخذة.

وافترقت المرجئة الى خمس فرق - كلّ فرقة تضلّل أختها - وهم :

(١) اليونسية - أصحاب يونس النميري.

(٢) العبيدية - أصحاب عبيد بن مهران الكوفي.

(٣) الغسانية - أصحاب غسان الكوفي، وهو غير غسان بن أبان المحدث، كما توهّم بعضهم، فإنّ غسان بن أبان يمانيّ وهذا كوفيّ .[٢٣٤]

(٤) الثوبانية - أصحاب أبي ثوبان المرجئ.

(٥) التومنية - أصحاب أبي معاذ التومني.

ولكلّ فرقة أقوال وآراء، ذكرها المؤلّفون في الفرق، ولا يتّسع المجال بهذا العرض للتعرّض لذكرها بأكثر من هذا.[٢٣٥]

الجبرية

---

(٢٣٣) فرق الشيعة ص٦ .

(٢٣٤) الملل والنحل للشهرستاني ج١ ص١٢٦ .

(٢٣٥) مقالات الإسلاميين للأشعري ص١٣٢ - ١٥٤.

الجبر: هو نفي الفعل عن العبد حقيقة، وإضافته الى الربّ حقيقة، وزعمت هذه الفرقة: أنّ الإنسان لا يخلق أفعاله، وليس له ممّا ينسب إليه من الأفعال شيء، فقوام هذا المذهب نفي الفعل عن العبد وإضافته إلى الربّ تعالى.

وقد اختلفت الأقوال في نشأة هذه الفرقة، ومن هو القائل بها أولاً، فقيل: إنّ أوّل من قال بهذه النحلة رجل يهودي، وقيل الجعد بن درهم، أخذها عن أبان بن سمعان، وأخذها أبان عن طالوت بن أعصم اليهودي. فهي على هذا فكرة يهودية، وقد ضلّ بها خلق كثير.(٢٣٦)

وبهذا المذهب لا يكون للإنسان كسب ولا إرادة ولا اختيار ولا تصرف، فيما وهبه الله من نعمة العقل على حسبه، فكيف يكون له مطمع في ثواب أو خوف أو عقاب؟

وقد انتشر هذا المبدأ ومبدأ المفوّضة: وهم الذين يقولون بتفويض الأفعال إلى المخلوقين، ورفعوا عنها قدرة الله وقضاءه، عكس المجبّرة الذين أسندوا الأفعال إليه تعالى، وأنّه أجبر الناس على فعل المعاصي، وأجبرهم على فعل الطاعات، وأنّ أفعالهم في الحقيقة أفعاله، فكان أثر هاتين الفكرتين سيّئاً في المجتمع الإسلامي، تصدّى الإمام الصادق (عليه السلام) للردّ على هؤلاء، وأعلن العقيدة الصحيحة والرأي السديد في التوسّط بين الأمرين فقال (عليه السلام): «**لا جبر ولا تفويض ولكن أمرٌ بين أمرين**»(٢٣٧) وخلاصته: أنّ أفعالنا من جهة، هي أفعالنا وتحت قدرتنا واختيارنا، ومن جهة أخرى، هي مقدورة لله تعالى، وداخلة في سلطانه، فلم يجبرنا على أفعالنا حتى يكون قد ظلمنا في عقابنا على المعاصي، لأنّ لنا القدرة على الاختيار فيما نفعل، ولم يفوّض إلينا خلق أفعالنا حتى يكون قد أخرجها عن سلطانه، بل له الخلق والأمر وهو قادر على كلّ شيء ومحيط بالعباد.

واعتقاد الشيعة في ذلك وسط بين المذهبين، كما بيّنه أئمّة الهدى، ودلّت عليه كلمة الإمام الصادق المشهورة.

وبالجملة، فإنّ عصر الإمام الصادق (عليه السلام) كان عصر مجادلات ونظر، واتسعت فيه دائرة الخلاف، وقد رأينا موقفه في مقابلتهم، وردع أهل الآراء الفاسدة والعقائد المخالفة للإسلام. وقام خلّص أصحابه وأعيانهم بقسط وافر من ذلك النضال دفاعاً عن تعاليم الإسلام الصحيحة. وقد مرّت بعض مناظراتهم كما احتفظ التاريخ بقليل منها.

---

(٢٣٦) مقالات الإسلاميين ج١ ص٣١٢.

(٢٣٧) التوحيد للصدوق ص٣٦٢ ح ٨.

وقبل أن نتخطّى موضوع البحث عن الفرق، يلزمنا ذكر ما يتّصل بالبحث، وتوضيح بعض الأمور التي لها صلة بالموضوع.

نسبة أبي حنيفة إلى المرجئة

ذكر أصحاب المقالات: أنّ أبا حنيفة كان من المرجئة، وحكى عنه غسان الكوفي الذي تنسب إليه الفرقة الغسانية: أنّه كان على مذهبه، ويعدّه من المرجئة، لأن أبا حنيفة كان يذهب إلى أنّ الإيمان هو الإقرار باللسان، وأنّ الإيمان لا يزيد ولا ينقص.

قال وكيع: سمعت الثوري يقول: نحن المؤمنون، وأهل القبلة عندنا مؤمنون في المناكحات، والمواريث، والصلاة، والإقرار. ولنا ذنوب ولا ندري ما حالنا عند الله؟. قال وكيع، وقال أبو حنيفة: من قال بقول سفيان هذا فهو عندنا شاك، نحن المؤمنون هنا وعند الله حقّاً. قال وكيع: ونحن نقول بقول سفيان. وقول أبي حنيفة عندنا جرأة (٢٣٨).

وعلى هذا فإنّ أبا حنيفة كان يذهب إلى أنّ العمل ليس جزءاً من الإيمان. وخالفه كثير من الفقهاء والمحدثين، الذين يرون أنّ العمل يدخل في تكوين الإيمان، من حيث تأثيره فيه بالزيادة والنقصان، وأبو حنيفة يرى أنّ الإيمان لا يزيد ولا ينقص وهو يعتبر أنّ إيمان أهل السماء وأهل الأرض واحد، كما تنصّ على ذلك الرواية عنه أنّه قال: «إيمان أهل الأرض وأهل السماوات واحد، وإيمان الأولين والآخرين والأنبياء واحد، لأنّا كلّنا آمنا بالله وحده، وصدّقناه، والفرائض كثيرة مختلفة، وكذا الكفر واحد، وصفات الكفار كثيرة وكلّنا آمنا بما آمن به الرسل...الخ» (٢٣٩).

ويُروى عنه غير هذا، كما حدّث أبو إسحاق الفزاري أنّه سمع أبا حنيفة يقول: إيمان أبي بكر الصديق وإيمان إبليس واحد، قال إبليس: يارب. وقال أبو بكر الصديق: يا ربّ.

قال أبو إسحاق: ومن كان من المرجئة ثم لم يقل هذا انكسر عليه قوله (٢٤٠).وكذلك يُحكى عنه فى مساواة إيمان آدم وإيمان إبليس.

ويقول محمد بن عمرو: سمعت أبا مسهر يقول: كان أبو حنيفة رأس المرجئة.

وقال عمر بن سعيد بن سالم: سمعت جدّي يقول. قلت لأبي يوسف: أكان أبو حنيفة مرجئاً؟ قال: نعم .

---

(٢٣٨) تاريخ بغداد ج١٣ ص٣٦٧ / ٧٢٩٧.
(٢٣٩) انظر مناقب أبي حنيفة للكردري ج٢ ص١٤١.
(٢٤٠) تاريخ بغداد : ج ١٣ ص ٢٧٣ .

قلت: أكان جهمياً؟ قال: نعم.

قلت: فأين أنت منه ؟

قال: إنّما كان أبو حنيفة مدرّساً. فما كان من قوله حسناً قبلناه وما كان قبيحاً تركناه. ومثله عن محمد بن سعيد عن أبيه .[٢٤١]

وكانت هذه التهمة وسيلة للتشنيع على أبي حنيفة، وناله كثير من العلماء بالطعن وخالفوه في مسألة الإيمان. وقد جاء عن أبي حنيفة[٢٤٢] ما يبيّن الفرق بين مذهبه ومذهب المرجئة الذين أهملوا ناحية العمل بالطاعة، وعدم ادخالها بالحساب .

تقوّلات حول فرق الشيعة

إنّ موضوع البحث عن الفرق وتعددها موضوع مضطرب شائك، ولا يستطيع الكاتب أن يجزم بكلّ ما نقله أهل المقالات، لأنّهم قد أفرطوا إلى أبعد حدّ، وتقبّلوا كلّ نسبة على حسب مفهومها السطحي بدون تثبّت وتأمّل. وقد تعصّب أكثرهم على من يخالف رأيه، فينقل عنهم آراءً على غير وجهها ولا يصح قول مخالف ما لم يؤيد بثبوته من غير طريقه. وإن هناك آراءً فردية نسبوها لجماعة لا وجود لها، وقد تعصّب أكثر الكتاب في الموضوع، فنقلوا المذاهب على خلاف الواقع، وأكثرهم قد افتعل فرقاً خيالية كقولهم في عدّ فرق الشيعة إنّ منهم الهشامية وهم فرقتان: فرقة تنسب إلى هشام بن الحكم والأخرى تنسب الى هشام بن سالم الجواليقي، ونسبوا إليهما آراءً خاطئة، وأقوالاً كاذبة.

وكذلك جعلوا من فرق الشيعة فرق الزرارية، نسبة إلى زرارة بن أعين والشيطانية نسبة الى شيطان الطاق، وهو محمد بن النعمان المعروف عند الشيعة بمؤمن الطاق. وكلّ هذا من الأمور المرتجلة التي لا حقيقة لها، وإنما هي افتعال وتقوّل بالباطل، إذ الشيعة تستمدّ من مصدر واحد، وتستقي من ينبوع أهل البيت(عليهم السلام) .

وقد شقّ على مرضى النفوس أن يبلغ رجال الشيعة درجات رفيعة في العلم بلغت حدّ التميز الذي يجتذب النفوس ويستميل العقول حتى كان لكثير منهم جماعة يعرفون باسم من يتصدرهم كجماعة زرارة، وهم في مطارحاتهم ومناظراتهم يشبعون المسائل بحثاً واستقصاءً وتدور ما بين جماعة فلان من أصحاب الإمام الصادق وجماعة فلان من أصحاب الإمام أيضاً مناقشات هي على نمط ما يجري بين حلقات

---

(٢٤١) تاريخ بغداد ج١٣ ص٣٧٥ / ٧٢٩٧.

(٢٤٢) الفقه الأكبر ص٩.

العلماء اليوم فاختلقوا من المتعلمين على زرارة والمتصلين به فرقة. فزرارة ـ كما مرّ ـ من مشاهير رجال الشيعة وهو من أصحاب الإمام الباقر والإمام الصادق وهو شيخ الأصحاب في زمانه ومتقدمهم قارئاً فقيهاً متكلّماً، ومؤمن الطاق من أحبّ الناس الى الإمام الصادق كما قال(عليه السلام)أحياءً وأمواتاً. ومؤمن الطاق المتميز بقوة التفكير وعمق النظرة ووضوح الحجة وسعة العلم، كان له دوره البارز في التوجيه والإرشاد وعقد المناظرات وخوض المجادلات، فكان حاضر الجواب حاذقاً في فنّ الكلام، شدّ إليه الأنظار; فنسبوا إليه فرقة (الشيطانية)، والتسمية تكشف عن القصد والغرض من وراء اختراع هذه الفِرق واختلاقها فاطلق لقب (شيطان الطاق) من قبل أعداء الشيعة وخصوم مؤمن الطاق ـ كما مرّ بنا ـ .

وأوضح شيء من هذا الشذوذ هو إجماعهم على وجود فرقة السبائية المنسوبة لعبد الله بن سبأ، تلك الشخصية الموهومة، وما قضيته إلاّ أُسطورة سياسية.

والشيء الذي يلزمنا التنبيه عليه هو متابعة بعض المؤلفين لبعض، فإنّ الشهرستاني قد كتب في الفرق، معتمداً على عبد القاهر البغدادي[٢٤٣]، والاسفرائيني [٢٤٤] كان تلميذ عبد القاهر وصهره، وعبارتهما في التعبير واحدة. أمّا ابن حزم فذاك فارس ميدان التعصّب والتقول على الشيعة.

قال الرازي في مناظرته مع أهل ما وراء النهر، في المسألة العاشرة عند ذكره لكتاب الملل والنحل: إنّه كتاب حكى فيه مذاهب أهل العالم بزعمه، إلاّ أنّه غير معتمد عليه، لأنّه نقل المذاهب الإسلامية من الكتاب المسمّى بالفَرق بين الفِرق، من تصانيف الأستاذ أبي منصور البغدادي، وهذا الأستاذ كان شديد التعصّب على المخالفين، ولا يكاد ينقل مذهبهم على الصحيح. ثم إنّ الشهرستاني نقل مذاهب الفرق الإسلامية من ذلك الكتاب، فلهذا السبب وقع الخلل فيه.

وعلى أيّ حال، فإنّ موضوع الفرق يحتاج الى دقّة في البحث وتأمّل في سير الحوادث والتطور. وهو إلى الآن لم ينل دراسة عادلة. وخوضاً دقيقاً وغربلة وتمحيصاً، فإنّ حصر الفرق الإسلامية بهذا العدد غير وجيه، والحديث الذي يشير إلى تعددها فيه مناقشة من حيث الدلالة والسند لاختلاف ألفاظه وإن كثرت طرقه. وعسى أن ينال هذا الموضوع دراسة دقيقة لإخراج الزوائد، وإيضاح دسائس المغرضين، وبيان خطأ المؤرخين في ذلك.[٢٤٥]

---

(٢٤٣) الفِرق بين الفَرق ص١٥ ـ ٥٤.
(٢٤٤) التبصير في الدين ص٢٤ ـ ٣٧.
(٢٤٥) ظهر الإسلام ج٤ ص١٣٢ و ١٣٤.

ومن الغريب أن ينفرد الدكتور أحمد أمين في كتابه «ظهر الإسلام»، يعدّ القرامطة والزنج من فرق الشيعة! بل لا غرابة في تجاوز الدكتور وتحدّيه للشيعة، فقد برهن على تعصّبه الشائن وتجاهله المعيب، إذ هو كما يقول الشاعر:

إن يسمعوا الخير أخفوه وإن علموا *** شرّاً أذاعوا وإن لم يعلموا كذبوا

ويؤلمني أن أقول: إنّ الدكتور يفقد توازنه عندما يتناول الشيعة بالبحث كما يتجرّد عن جميع معلوماته، ويتخلّى عن تفكيره وإدراكه، وكان بوسعه أن يدقّق ويبحث كأديب أو مؤرخ، ولكنه مقلّد للمستشرقين الذين يتقوّلون على المسلمين ويثيرون الفتن ويفتعلون الأقاويل.

كما كان بوسعه أن يثبت وأن يقارن بين عقائد الشيعة وعقائد القرامطة والزنوج، إن وجد مصدراً يذكر ذلك.

وكم كان يسعدنا لو أثبت ما أدّى إليه الحوار معه، ودون ما أقرّه على نفسه من تعصّب وتحامل، وأنجز ما وعد من إعلان العدول عن أقواله.

حول فرق الغلاة

تركنا البحث هنا عن فرق الغلاة، اكتفاءً بما مرّ في الأجزاء السابقة، وسيأتي في الجزء الرابع مزيد بيان. وقد ذكرنا هناك أنّ حركتهم كانت ضد الإسلام بصورة عامة، وضدّ أهل البيت(عليهم السلام)بصورة خاصة، لأنّ انتحالهم حبّ أهل البيت(عليهم السلام)يفتح لخصومهم طريق الوقيعة في أتباعهم، وقد وقع ذلك بدون التفات إلى التباين بين تعاليم أهل البيت(عليهم السلام)وبين ما يذهب إليه الغلاة.

وكما قلت سابقاً: إنّ الكوفة قد عرفت بالتشيّع، وهي تموج بعناصر مختلفة لكثرة المهاجرين إليها، من المدن المجاورة لها والنائية عنها، وذلك عند اتساع نشاط الحركة العلمية، فكانت جماعة المتدخلين في الإسلام يبثّون سمومهم في ذلك المجتمع، ويتناقل الناس مع مساعدة السلطة تلك الأخبار فتنسب للكوفة، والكوفة شيعية.

وقد أعلن الإمام الصادق(عليه السلام)براءته منهم، وجهر بلعنهم، وقد دخل الكوفة عدّة مرات ينشر تعاليم الإسلام الصحيحة، ويظهر للملأ فساد عقائد الغلاة، وواصل

كفاحه في مقابلتهم حتى بادت جماعتهم بتلك السرعة، وقبرها في مقرها الأخير، ولم يبق لهم أثر إلا في بطون الكتب.

وأبت نفوس من يضربون على وتر سياسة تلك العصور، ويترنحون بنغمات الهجاء والطعن على شيعة أهل البيت(عليهم السلام)، إلاّ أن يقيموا تلك الرمم البالية، ويخرجوا تلك الجيف النتنة لتكون عاراً على الإسلام، ومنظراً بشعاً، يدلّ عليه من لا يودّ إظهار محاسنه للأجيال انتصاراً لدينهم، وانتقاماً لأسلافهم (**أوْلَـئكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُاْ الضَّلاَلَةَ بِالْهُدَى وَا لْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ**)[٢٤٦] .

(٢٤٦) البقرة: ١٧٥ .

الإمام الصادق(عليه السلام)
وصاياه وَحِكَمه

تمهيد

للإمام الصادق (عليه السلام) من التراث الفكري والفكر الخوالد، والآراء والحكم والمواعظ مالا يحيط بها الإحصاء، أو تنالها يد الحصر والتتبّع إلا بجهد ومشقة.وهي على كثرتها قليلة بالنسبة إليه، لما قام به من التوجيه والإرشاد والهداية في عصر ضلّت به قافلة الأمة، وحدا بالركب غير سائقه، فقام (عليه السلام) بما يجب عليه أن يقوم به من الإرشاد والدعوة إلى الصلاح والإصلاح، يلتمس كلّ ما يجد فيه طريقاً للوصول إلى الغاية التي ينشدها، فهو حيث كان وأينما حلّ لا ينفكّ عن تأدية رسالته في الإرشاد إلى الهدى، والدعوة إلى الحق، ويحاول أن ينتصر المجتمع الإسلامي على ميوله ونزعاته، ويهذّب نفوسهم من دنس الرذائل ويحملهم على اعتناق الفضائل، ويودّ للمسلم أن يكون كما أراد الله له وجاء به النبيّ(صلى الله عليه وآله) .

فهو حريص على هداية الأمة، يواصل جهاده في مكافحة الأوضاع الشاذّة، ويعلن آراءه ضدّ نظام ذلك الحكم الجائر. ولقد كان (عليه السلام) دوماً صوت إصلاح داوي، وصرخة إرشاد عالية، يدعو الناس إلى التمسّك بمبادئ الإسلام وهدى القرآن، وقد عرف أوضاع الأمة، وما أصابها من تفكّك وهوان، ورأى أنّ الداء وراء تحكّم النّزاعات في النفوس، وأنّ الدواء هو التزام مبادىء الدين وأحكامه، وأنّ رسوخ العقيدة في القلوب قوة لأفرادالأمة، ومنعة لكيان المجتمع من تحكّم النزعات، وانتشار الرذيلة، كما أنّها سلاح فاتك يرهب ولاة الجور، فكان (عليه السلام) لا تفوته فرصة دون أن يدعو إلى اعتناق الفضائل ومحاربة الرذيلة، ليصبح المجتمع متماسكاً يستطيع أن يوحّد كلمته في مقابلة الظالمين، الذين استبدّوا بالحكم، وابتعدوا عن الإسلام. وأنّ الثورة الدموية ضدّهم لا تعود على المجتمع إلاّ بالضرر، لأنّهم أناس عرفوا بالقسوة وسوء الانتقام، ولهم أعوان يشدّون أزرهم، وأنصار يدافعون دونهم، فالإمام الصادق (عليه السلام) كان يهتمّ بإصلاح الوضع الداخلي، فكان يرسل وصاياه عامة شاملة، وينطق بالحكمة عن إخلاص وصفاء نفس، وحبّ للصالح العام ليعالج المشاكل الاجتماعية وانتظم من أصحابه رجال عهد إليهم بمهمات الإصلاح، وكلّفهم بأعمال الخير، كما كوّن منهم معلمين ورواة في ظلّ مدرسته، ومجاهدين ودعاة في

مسير ركبه. كان(عليه السلام) يدعو الناس إلى الورع عن محارم الله والخوف منه تعالى والامتثال لأوامره، والشعور بالمسؤولية أمام الله تعالى، وجعل يوم الحساب ماثلاً أمام أعينهم، مع حثّهم على التكسب وطلب الرزق كما كان يحثّ على العمل ويعمل بنفسه، وينهى عن الكسل والبطالة. ويأمر بطلب الرزق كما أمر الله تعالى.

يحدّثنا العلاء بن كامل: أنّه جاء إلى الإمام الصادق (عليه السلام) فقال له: يا أبا عبد الله، ادع الله أن يرزقني في دعة.

فقال (عليه السلام): **لا أدعو لك، أطلب كما أمرك الله ورسوله** .(٢٤٧)

وعلى أيّ حال فإنّ حكم الإمام ووصاياه تشرق على وجه الزمان إلى آخر الزمان، وقد ذكرنا في الجزء الثاني طرفاً منها، ونحن هنا نذكر بعض مالم نذكره في ذلك الجزء من تلك الوصايا القيّمة، والحِكم الخالدة، سواء كانت عامة شاملة يرسلها إلى الأطراف النائية، أم كانت وصايا خاصة لبعض الأفراد، وهي كالأولى في عمومها وشمولها، وإليك طرفاً من ذلك.

وصية عامّة إلى جميع أصحابه

صبّروا النفس على البلاء في الدنيا، فإن تتابع البلاء فيها، والشدة في طاعة الله وولايته، وولاية من أمر بولايته، خير عاقبة عند الله في الآخرة، من ملك الدنيا وإن طال تتابع نعيمها، وزهرتها وغضارة عيشها في معصية الله، وولاية من نهى الله عن ولايته وطاعته، فإن الله أمر بولاية الأئمة الذين سماهم في كتابه بقوله: (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا)(٢٤٨).

إن الله أتم لكم ما آتاكم من الخير. واعلموا أنّه ليس من علم الله ولا من أمره أن يأخذ أحد من خلق في دينه بهوى ولا رأي ولا مقاييس، قد أنزل الله القرآن وجعل فيه تبيان كلّ شيء، وجعل للقرآن وتعلم القرآن أهلاً، لا يسع أهل علم القرآن ـ الذين آتاهم الله علمه ـ أن يأخذوا فيه بهوى ولا رأي ولا مقاييس، أغناهم الله عن ذلك بما آتاهم من علمه وخصّهم به، ووضعه عندهم، وكرامة من الله أكرمهم بها. وهم أهل الذكر الذين أمر الله هذه الأمة بسؤالهم...

أكثروا ذكر الله ما استطعتم في ساعة من ساعات الليل والنهار، فإنّ الله تعالى أمر بكثرة الذكر له، والله ذاكر لمن ذكره من المؤمنين.

واعلموا أنّ الله لم يذكره أحد من عباده المؤمنين إلا ذكره بخير، فاعطوا الله من أنفسكم الاجتهاد في طاعته، فإنّ الله لا يدرك شيء من الخير عنده إلاّ بطاعته، واجتناب محارمه.

---

(٢٤٧) الكافي ج٥ ص٧٨، ح ٣ .
(٢٤٨) الأنبياء: ٧٣ .

واتبعوا آثار رسول الله وسنته فخذوا بها، ولا تتبعوا أهواءكم وآراءكم فتضلوا، فإن أضلّ الناس عند الله من اتبع هواه ورأيه بغير هدى من الله.

وأحسنوا إلى انفسكم ما استطعتم، فإن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها.

وجاملوا الناس ولا تحملوهم على رقابكم، وإيّاكم وسبّ أعداء الله - حيث يسمعونكم - فيسبّوا الله عدواً بغير علم.

واعلموا أنّه لن يؤمن عبد من عبيده حتى يرضى عن الله فيما صنع الله إليه، وصنع به على ما أحبّ وكره.

وعليكم بالمحافظة على الصلوات والصلاة الوسطى، وقوموا لله قانتينكما أمر الله المؤمنين في كتابه من قبلكم.

وعليكم بحبّ المساكين المسلمين، فإنّ من حقّرهم وتكبّر عليهم فقد زلّ عن دين الله ، والله له حاقر وماقت. وقد قال أبونا رسول الله(صلى الله عليه وآله): **«أمرني ربي بحبّ المساكين المسلمين منهم».**

واعلموا أنّه من حقّر أحداً من المسلمين ألقى الله عليه المقت منه حتى يمقته الناس، والله له أشدّ مقتاً، فاتقوا الله في إخوانكم المسلمين المساكين منهم، فإنّ لهم عليكم حقاً أن تحبّوهم، فإنَّ الله أمر نبيه(صلى الله عليه وآله)**بحبّهم، فمن لم يحب من أمر الله بحبه فقد عصى الله ورسوله، ومن مات على ذلك مات من الغاوين.**

وإياكّم والعظمة والكبر، فإنّ الكبر رداء الله تعالى، فمن نازع الله رداءه قصمه الله وأذلّه يوم القيامة.

وإيّاكم أن يبغي بعضكم على بعض، فإنّها ليست من خصال الصالحين، فإنّه من بغى صيّر الله بغيه على نفسه، وصارت نصرة الله لمن بغي عليه، ومن نصره الله غلب وأصاب الظفر من الله.

وإياكم أن يحسد بعضكم بعضاً، فإن الكفر أصله الحسد.

وإياكم أن تعينوا على مسلم مظلوم، فيدعو الله عليكم فيستجاب له فيكم. فإنّ أبانا رسول الله(صلى الله عليه وآله) **كان يقول: «إن دعوة المظلوم مستجابة».**

وليعن بعضكم بعضاً، فإنّ أبانا رسول الله(صلى الله عليه وآله) **كان يقول: «إنّ معونة المسلم خير وأعظم أجراً من صيام شهر واعتكافه في المسجد الحرام».**

وإياكم وإعسار أحد من إخوانكم فإنّ أبانا رسول الله (صلى الله عليه وآله) **كان يقول:«ليس لمسلم أن يعسر مسلماً، ومن أنظر معسراً أظلّه الله يوم القيامة بظلّه، يوم لا ظلّ إلا ظلّه».**

واعلموا أنّه ليس بين الله وبين أحد من خلقه، لا ملك مقرب، ولا نبيّ مرسل، ولا من دون ذلك كلّهم، إلا طاعتهم له، فجدوا في طاعة الله، إن سرّكم أن تكونوا مؤمنين حقّاً حقّاً، ولا قوة إلا بالله.

وإيّاكم ومعاصي الله أن تركبوها، فإنّه من انتهك معاصي الله فركبها، فقد أبلغ في الإساءة إلى نفسه، وليس بين الإحسان والإساءة منزلة، فلأهل الإحسان عند ربّهم الجنة، ولأهل الإساءة عند ربّهم النار، فاعملوا بطاعة الله، واجتنبوا معاصيه واعلموا أنّه ليس يغني عنكم من الله أحد من خلقه، لا ملك مقرب، ولا نبيّ مرسل، ولا من دون ذلك، فمن سرّه أن تنفعه شفاعة الشافعين فليطلب الى الله أن يرضى عنه.

وإياكم أن تشره أنفسكم إلى شيء ممّا حرم الله عليكم، فإنّه من انتهك ما حرم الله عليه ههنا ـ في الدنيا ـ حال الله بينه وبين الجنة ونعيمها، ولذّاتها وكرامتها الدائمة لأهل الجنة أبد الآبدين.

واعلموا أنّه بئس الحظ الخطر لمن خاطر بترك طاعة الله، وركب معصيته، فاختار أن ينتهك محارم الله، في لذات دنيا منقطعة زائلة عن أهلها، على خلود نعيم في الجنة ولذاتها، وكرامة أهلها، ويل لأولئك، ما أخيب حظّهم، وأخسر كرَّتهم وأسوأ حالهم عند ربّهم يوم القيامة! استجيروا الله أن يجيركم في مثالهم أبداً وأن يبتليكم بما ابتلاهم به ولا قوة لنا ولكم إلا به.

فاتقوا الله وسلوه أن يشرح صدوركم للإسلام، وأن يجعل ألسنتكم تنطق بالحقّ حتى يتوفاكم وأنتم على ذلك، وأن يجعل منقلبكم منقلب الصالحين ولا قوة إلاّ بالله، والحمد لله ربّ العالمين .[٢٤٩]

وصيته لعنوان البصري

وعنوان هو شيخ بصري قدم المدينة لطلب العلم، اتّصل بمالك بن أنس، ثم اتّصل بالإمام الصادق (عليه السلام)، فقال له الإمام: **إذا أردت العلم فاطلب أولاً في نفسك حقيقة العبودية .**

قال عنوان البصري: فقلت: ما حقيقة العبودية ؟

فقال الإمام الصادق (عليه السلام): **ثلاثة أشياء: أن لا يرى العبد لنفسه فيما خوله الله ملكاً لأن العبيد لا يكون لهم ملك، بل يرون المال مال الله يضعونه حيث أمرهم الله، ولا يدبر العبد لنفسه تدبيراً، وجملة اشتغاله هي فيما أمره الله به ونهاه عنه، وإذا لم ير العبد فيما خوّله الله ملكاً هان عليه الإنفاق فيما أمره الله، وإذا فرض تدبير نفسه إلى مدبّره هانت عليه مصائب الدنيا، وإذا اشتغل بما أمره الله به ونهاه عنه لا يتفرّغ إلى المراء والمباهاة مع الناس، فإذا أكرم الله العبد بهذه الثلاث هانت عليه الدنيا، فلا يطلبها تفاخراً وتكاثراً، ولا يطلب عند الناس عزّاً وعلوّاً، ولا يدع أيّامه باطله، فهذا أول درجة المتقين، قال الله تعالى: (تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ)**[٢٥٠].

---

(٢٤٩) روضة الكافي ص٣٩٧ ـ ٤٠٨.

(٢٥٠) البحار ج١ ص٢٢٤ ـ ٢٢٦ / ١٧، والآية ٨٣ من سورة القصص.

فقال عنوان: يا أبا عبد الله أوصني. فقال: **أوصيك بتسعة أشياء فإنها وصيتي لمريدي الطريق إلى الله، والله أسأل أن يوفقك لاستعمالها: ثلاثة منها في رياضة النفس، وثلاثة منها في الحلم، وثلاثة منها في العلم، فاحفظها وإيّاك والتهاون بها.**

أما اللواتي في الرياضة : فإياك أن تأكل ما لا تشتهيه فإنّه يورث الحمق والبله، ولا تأكل إلاّ عند الجوع، فإذا أكلت فكل حلالاً وسمّ الله تعالى، واذكر حديث النبي (صلى الله عليه وآله) **«ما ملأ آدمي وعاءً أشدّ شراً من بطنه، فإن كان ولابدّ فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه».**

وأمّا اللواتي في الحلم: فمن قال لك : إن قلت واحدة سمعت عشراً، فقل له: إن قلت عشراً لم تسمع واحدة، ومن شتمك فقل له: إن كنت صادقاً فيما تقوله فأسأل الله أن يغفر لي، وإن كنت كاذباً فأسأل الله أن يغفر لك، ومن وعدك بالخيانة فعدّه بالنصيحة والوفاء.

وأما اللواتي في العلم: فاسأل العلماء ما جهلت، وإيّاك أن تسألهم تعنتاً وتجربة وإياك أن تعدل بذلك شيئاً، وخذ بالاحتياط في جميع أمورك ما تجد إليه سبيلاً، واهرب من الفتيا فرارك من الأسد، ولا تجعل رقبتك للناس جسراً.[٢٥١]

وصيته (عليه السلام) **لعمرو بن سعيد**

قال عمرو بن سعيد بن هلال: قلت لأبي عبد الله الصادق (عليه السلام) إني لا أكاد ألقاك إلاّ في السنين فأوصني بشيء آخذ به، قال (عليه السلام): **أوصيك بتقوى الله وصدق الحديث، والورع والاجتهاد، واعلم أنه لاينفع اجتهاد لا ورع معه، وإيّاك أن تطمح نفسك إلى من فوقك، وكفى بما قال عز وجل: (فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلَـدُهُمْ)**[٢٥٢]. وقال عزّ وجل لرسوله: **(وَلاَتَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَامَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَا جاً مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ا لْحَيَا ةِ الدُّنْيَا)**[٢٥٣][٢٥٤].

فإن خفت شيئاً من ذلك فاذكر عيش رسول الله (صلى الله عليه وآله) **فإنما كان قوته الشعير، وحلواه التمر، ووقوده السعف إذا وجده.**

وإذا أصبت بمصيبة فاذكر مصابك برسول الله، فإنّ الخلق لم يصابوا بمثله قطّ.

وصيّته للمفضل بن عمر

قال (عليه السلام)**: «أوصيك ونفسي بتقوى الله وطاعته، فإنّ من التقوى الطاعة والورع والتواضع لله، والطمأنينة والاجتهاد والأخذ بأمره، والنصيحة لرسُله، والمسارعة في مرضاته،**

---

(٢٥١) الاثني عشرية للسيد ابن القاسم العيتاني ص٩٣، الإمام الصادق للمظفر ج٢ ص٥٨ - ٦١، نقلاً عن بحارالأنوار ج١ ص٢٢٦.

(٢٥٢) التوبة: ٥٥.

(٢٥٣) طه: ١٣١.

(٢٥٤) الكافي ج٨ ص ١٦٨.

واجتناب ما نهى عنه، فإنّ من يتقّ الله فقد أحرز نفسه من النار بإذن الله، وأصاب الخير كله في الدنيا والآخرة. ومن أمر بتقوى الله فقد أفلح الموعظة، جعلنا الله من المتقين برحمته»[٢٥٥].

ومن وصيته أيضاً ـ للمفضّل بن عمر ـ «**أوصيك بست خصال: تبلّغهن شيعتي**، قال المفضل: وماهي يا سيدي؟ قال(عليه السلام): **أداء الأمانة الى من ائتمنك وأن ترضى لأخيك ما ترضى لنفسك، واعلم أن للأمور أواخر فاحذر العواقب وأن للأمور بغتات فكن على حذر، وإيّاك ومرتقى جبل إذا كان المنحدر وعراً، ولا تعِدنّ أخاك بما ليس في يدك وفاؤه»**[٢٥٦].

وصيّته لحمران بن أعين

قال (عليه السلام): «**ياحمران أنظر إلى من هو دونك ولا تنظر إلى من هو فوقك في المقدرة، فإنّ ذلك أقنع لك بما قسم لك، وأحرى أن تستوجب الزيادة من ربّك.**

واعلم: أنّ العمل الدائم القليل على اليقين، أفضل عند الله من العمل الكثير على غير يقين.

واعلم: أن لا ورع أنفع من تجنّب محارم الله، والكفّ عن أذى المؤمنين واغتيابهم، ولا عيش أهنأ من حسن الخلق، ولا مال أنفع من القنوع باليسير المجزي، ولا جهل أضرّ من العجب»[٢٥٧].

وهكذا كان الإمام الصادق(عليه السلام) يواصل أصحابه بوصاياه القيّمة، وتعاليمه التي تدلّ على شدّة اهتمامه بتوجيه الدعوة إلى الرشاد وطريق الهدى.

وكان يرسل وصاياه العامة مع من يحضر عنده من أصحابه، ويلزمهم أن يبلّغوا من يلقونه من أصحابهم كقوله: **أقرأوا من لقيتم من أصحابكم السلام، وقولوا لهم: فلان بن فلان - يعني نفسه - يقرؤكم السلام، إني والله ما آمركم إلا بما نأمر به أنفسنا، فعليكم بالجدّ والاجتهاد.**

وإذا صلّيتم الصبح وانصرفتم فبكروا في طلب الزرق واطلبوا الحلال، فإنّ الله عز وجل سيرزقكم ويعينكم عليه»[٢٥٨].

ويحدّثنا زيد الشحام، قال: قال لي أبو عبد الله الصادق (عليه السلام): «**اقرأ من ترى أنّه يطيعني منكم السلام وأوصيكم بتقوى الله عز وجل والورع في دينكم، والاجتهاد لله وصدق الحديث، وأداء الأمانة، وطول السجود وحسن الجوار، فبهذا جاء محمد** (صلى الله عليه وآله).

أدّوا الأمانة إلى من ائتمنكم عليها برّاً أو فاجراً، فإنّ رسول الله (صلى الله عليه وآله) **كان يأمر بأداء الخيط والمخيط.**

---

(٢٥٥) خاتمة المستدرك للميرزا النوري ج٤ ص ١١٤ .
(٢٥٦) تحف العقول ابن شعبة الحراني ص ٣٦٧.
(٢٥٧) الكافي ج٨ ص ٢٤٤، ح٣٣٨.
(٢٥٨) وسائل الشيعة ج١٢ ص١٢، باب ٤ باب استحباب طلب الرزق ووجوبه ح٨.

صِلوا عشائركم، واشهدوا جنائزهم، وعودوا مرضاهم، وأدّوا حقوقهم، فإنّ الرجل منكم إذا ورع في دينه وصدق الحديث وأدّى الأمانة، وحسن خُلقه مع الناس وقيل هذا جعفري، يسرّني ذلك ويدخل عليَّ منه السرور، وقيل هذا أدب جعفر، وإذا كان غير ذلك دخل عليَّ بلاؤه وعاره»[٢٥٩].

ونقف عند هذا الحد من ذكر وصاياه التي كان يوجهها إلى أصحابه، وقد ذكرنا بعضاً منها في الجزء الثاني[٢٦٠]، ولكثرتها لا نستطيع حصرها في جزء واحد، وسنواصل نشرها إن شاء الله تعالى في بقيّة الأجزاء.

حِكَمــه (عليه السلام)

كانت وصاياه(عليه السلام) هي لغته في مخاطبة العقول وطريقيّته في تربية النفوس يستمدّها من الدين والعقيدة، ويتّجه بها الى المجتمع والأفراد.

وأما حكمه(عليه السلام) فهي خلاصة المعاني وصفوة الأفكار يقولها لمختلف الأغراض الدينية والأخلاقية والاجتماعية بخبر وأمر ووصف تنمّ عن عمق إيمانه وكمال شخصيته وعظيم خصاله، وكلّ قول يرقى الى الحكمة يأتي عن دراية وتجربة فما ظنّك بإمام يتولّى بنفسه مواجهة الأخطار التي تهدّد المجتمع من مصادرها السياسية والفكرية ويتسنّى أمر المسلمين في مرحلة تشتدّ فيها وسائل الحكام في مراقبته والإيقاع به، ويرى نفسه مسؤولاً عن الأمة مهما تزايد ظلم الحكام وجورهم فهو يدنو من المجتمع الإسلامي في عمومه وتعدّد أقطاره، ويعايش الأفراد وتصرفاتهم معايشة المصلح الموجّه والحكيم المرشد وإليك باقة من تلك الحكم الخوالد:

*** أفضل الملوك من أعطي ثلاث خصال: الرأفة، والجود، والعدل، وليس يحبّ للملوك أن يفرطوا (أي يقصروا) في ثلاث: في حفظ الثغور، وتفقد المظالم، واختيار الصالحين لأعمالهم.**

*** ثلاثة لا يعذر المرء فيها: مشاورة ناصح، ومداراة حاسد، والتحبب إلى الناس.**

*** احذر من الناس ثلاثة: الخائن، والظلوم، والنمام. لأنّ من خان لك خانك، ومن ظلم لك سيظلمك، ومن نمّ إليك سينمّ عليك.**

*** ثلاثة من تمسّك بهن نال من الدنيا بغيته: من اعتصم بالله، ورضي بقضاء الله، وأحسن الظن بالله.**

---

(٢٥٩) عوالم الإمام الصادق للبحراني ج٢ ص٦٣٥.

(٢٦٠) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة ج٢ ص ٧٥ ومابعدها.

*** كل ذي صناعة مضطر إلى ثلاث خلال يحتلب بها المكسب: أن يكون حاذقاً في عمله، مؤدياً للأمانة فيه، مستميلاً لمن استعمله.**

***إذا لم تجتمع القرابة على ثلاثة أشياء، تعرّضوا لدخول الوهن عليهم، وشماتة الأعداء بهم، وهي ترك الحسد فيما بينهم لئلاّ يتحزّبوا فيتشتت أمرهم، والتواصل ليكون ذلك حادياً لهم على الإلفة، والتعاون لتشملهم العزّة.**

***ثلاثة لايصيبون إلاّ خيراً: أولو الصمت، وتاركو الشر، والمكثرون ذكر الله عزّ وجل.**

***ورأس الحزم التواضع، فقال له بعضهم: وما التواضع؟ قال: أن ترضى من المجلس بدون شرفك وأن تسلّم على من لقيت، وأن تترك المراء وإن كنت محقّاً.**

***خذ من حسن الظن بطرف تروج به وتروح به قلبك.**

***من ظهر غضبه ظهر كيده، ومن قوي هواه ضعف عزمه، ومن أنصف من نفسه رضي حكماً لغيره.**

*** العجب يكلّم المحاسن، والحسد للصديق من سقم المودّة، ولن تمنع الناس من عرضك إلا بما تنشر عليهم من فضلك.**

*** العز أن تذلّ للحق إذا ألزمك.**

*** من أخلاق الجاهل الإجابة قبل أن يسمع، والمعارضة قبل أن يفهم، والحكم بما لا يعلم.**

*** من أدب الأديب دفن أدبه.**

*** إنّ خير ماورَّث الآباء لأبنائهم الأدب لا المال، فإنّ المال يذهب والأدب يبقى.**

*** لاتطعنوا في عيوب من أقبل إليكم بمودّة، ولا توقفوه على سيئة يخضع لها فإنّها ليست من أخلاق رسول الله** (صلى الله عليه وآله)**، ولا من أخلاق أوليائه.**

ومن حِكَمـه

العلم جُنّة. والصدق عزّ. والجهل ذلّ. وحسن الخلق مجلبة للمودة. والعالم بزمانه لا تهجم عليه اللوابس. والحزم مشكاة الظن. والله وليّ من عرفه. والعاقل غفور والجاهل ختور. وإن شئت أن تكرم فلن. وإن شئت أن تهان فاخشن. ومن كرم أصله لان قلبه، ومن خشن عنصره غلظ كبده. ومن فرّط تورّط. ومن خاف العاقبة تثبت فيما لا يعلم. ومن هجم على أمر من غير علم جدع أنف نفسه[٢٦١].

* * *

ونكتفي بهذا الموجز من البيان لبعض وصايا الإمام الصادق (عليه السلام) وحكمه، وسيأتي كثير منها في ثنايا البحث، وإنّ استقصاءنا لها يستلزم وضع مؤلف كبير في

---

(٢٦١) الإمام الصادق (عليه السلام) ، رمضان لاوند ص١٢٦ .

ذلك، لأنّها تشتمل على أمور هامة ومواعظ نافعة تتناول كلّ نواحي الحياة ومشاكل عصره، وقد بذل جهده في ايجاد قوّة فعالة تتجه نحو الخير ليحيى المسلمون حياة طيبة، ولا يحصل ذلك إلا في توثّق العلاقات بينهم، وإيجاد المحبّة في قلب المسلم لأخيه المسلم في قمع غرائز الأثرة، والابتعاد عن الرذائل واتباع المثل العليا في الإسلام.

وكان الإمام الصادق (عليه السلام) وحيد عصره في مختلف العلوم والفنون، وظهرت في شخصيّته آثار الوراثة بأجلى صورها، إذ هو رضيع ثدي الإيمان، ووليد بيت الوحي، ووارث علم النبي، وحافظ لتراثه. وكانت الآمال تتركز حول شخصيته لذلك لم نجد مدرسة اسلامية تطاول مدرسته في الشهرة، أو تماثلها في منهجها الذي سارت عليه. وقد انتشر مذهبه في أقطار الأرض، رغم تلك الحواجز التي وقفت في طريقه، فهو بقوّته القدسيّة قد ذللّ المصاعب، وصارع الحوادث وشقّ طريقه الى التقدّم.

ومهما تكن العوامل في صرف الناس عنه، فإنّها لم تؤثر أثرها المطلوب. إذ العقيدة أكبر مؤثر في تكوين العقل الإنساني ـ رقياً وانحطاطاً ـ فإنّ الناس لا يجهلون ما لأهل البيت(عليهم السلام)من الأثر العظيم في المجتمع الإسلامي، وقد منحهم النبيّ(صلى الله عليه وآله) صفة لا يشاركهم فيها أحد، وهي الاقتران بالكتاب وعدم افتراقهما إلى آخر الزمن[٢٦٢] فهم دعاة للخير وأئمّة للهدى، وسفن النجاة إذا طغت أمواج النفاق. وهم أكثر الناس زهداً في الحياة وفناءً في الله.

وقد بذلوا نفوسهم الزكيّة لحفظ تعاليم الإسلام، ولم تقف أمامهم مقاومة الأعداء. وتحمّلوا قسوة الطغاة وعنت الباغين، وجور المستبدّين، انتصاراً للحق وثورة على الباطل. وامتازوا بقوّة الإيمان وصدق النية، وأخلاص العمل في سبيل حفظ الإسلام ونشر تعاليمه واحياء مآثره، وقد قال أمير المؤمنين علي (عليه السلام): «**فأين تذهبون وأنّى تؤفكون، والأعلام قائمة والآيات واضحة والمنار منصوبة، فأين يتاه بكم بل كيف تعمهون وبينكم عترة نبيّكم وهم أزمّة الحقّ. وأعلام الدين، وألسنة الصدق**».[٢٦٣]

ويقول (عليه السلام): **انظروا أهل بيت نبيّكم فالزموا سمتهم، واتبعوا أثرهم; فلن يخرجوكم من هدى، ولن يعيدوكم في ردى.**[٢٦٤]

---

(٢٦٢) سنن الترمذي ج٥ ص٦٦٣، ح ٣٧٨٨.
(٢٦٣) نهج البلاغة، صبحي الصالح ص١١٩ - ١٢٠ / ٨٧.
(٢٦٤) شرح نهج البلاغة ص١ ج١٥٢.

ويقول الإمام الصادق(عليه السلام): **نحن أصل كلّ خير، ومن فروعنا كلّ بر. فمن البر: التوحيد، والصيام وكظم الغيظ، والعفو عن المسيء، ورحمة الفقير، وتعهّد الجار، والإقرار بالفضل لأهله، وعدّونا أصل كلّ شر، ومن فروعهم كلّ قبح وفاحشة، فمنهم: الكذب، والبخل، والنميمة، والقطيعة، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم بغير حقّه، وتعدّي الحدود التي أمر الله، وركوب الفواحش ما ظهر منها وما بطن، والزنا والسرقة وكلّ ما وافق ذلك من القبيح، وكذب من زعم أنه معنا وهو متعلق بفروع غيرنا.**(٢٦٥)

وإلى هنا ينتهي بحثنا فيما شرعنا فيه حول مدرسة الإمام الصادق (عليه السلام)وحملة فقهه، وبيان الفرق في عصره، وبيان بعض تعاليمه من حكمه ووصاياه. وننتقل الآن مع القارئ الكريم، إلى دراسة تتعلّق بالمذاهب الأربعة، من حيث الالتزام بأخذ الأحكام الشرعية عن الأئمة الأربعة دون غيرهم، ولا يصحّ العمل إلاّ بذلك. فعلينا إذاً أن ندرس القضية، ونقف على الأمر، وهل كان هذا الالتزام أمراً شرعياً قرّره الإسلام؟ وهل أنّ باب الاجتهاد مغلق بعد الأئمة الأربعة، ومتى كان هذا الألتزام؟ وبأيّ تاريخ وقع؟ وما هي أسبابه وعوامله؟

---

(٢٦٥) بحار الأنوار ج٢ ص٩٨، ح ٤٩ .

المذاهب الأربعة
التزام وآراء

تمهيد

إنّ أهمّ موضوع في تاريخ التشريع الإسلامي هو موضوع غلق باب الاجتهاد، وادعاء استحالته لأحد غير أئمّة المذاهب الأربعة: أبي حنيفة ومالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وأنّ تقليدهم لازم، ولا يصحّ العمل إلاّ بما جاء عنهم، وأنّ من المستحيل حصول ملكة الاجتهاد لأحد غيرهم; حتى أنّ البعض يرى أنّ من يقلّد غيرهم زنديق، وأنّ العمل لا يصحّ إلاّ بالأخذ عن واحد من هؤلاء الأئمة، فهم أعلم الأمة وسادات الأئمة الى غير ذلك من الإدّعاءات.

وقد تقدّم الكلام عن أسباب نشأة المذاهب وعوامل انتشارها، ولإيضاح ما لعلّه لم يتّضح من هذا الموضوع، نستعرض هنا لما يتعلّق فيه من بيان تاريخ الالتزام، بالأخذ عن الأئمة الأربعة، وبيان العوامل التي أدّت إلى الجمود الفكري، فأغلق باب الاجتهاد في وجوه المسلمين، وادّعي استحالته بعد ذلك الزمن، وأنّ من يدّعي ذلك يوصم بالجهل، ويؤاخذ بدعواه، وربّما رمي بالزندقة، ومع ذلك فإنّ البعض من أهل السنة يعارضون هذه الفكرة، ويقفون أمام هذه الدعوة بشدّة إن ساعدتهم الظروف على ذلك، فهم يوافقون الشيعة في حريّة الرأي، وعدم القول بغلق باب الاجتهاد.

ولقد أثّر هذا الالتزام بوحدة المسلمين، ففرّق كلمتهم، ونشبت بين معتنقي المذاهب حروب دموية، نتيجة للخلافات المذهبية وادعاء كلّ فريق أنّ الحقّ له دون غيره، وأنّ إمامه هو المنفرد بمنزلة العلم وأهليّة الاتباع، واندفعوا بكلّ وسيلة لرفع مقام رئيس المذهب إلى منزلة لا يدانيه فيها أحد، وتحكّم التعصّب الطائفي، وكثر الجدل، وعظم الخلاف بين أتباع أئمّة المذاهب، ودبّ التقليد في صدورهم دبيب النمل وهم لا يشعرون، وكان سبب ذلك تزاحم الفقهاء وتجادلهم فيما بينهم.(٢٦٦)

وبلغ الأمر بهم في صوغ عبارات المدح والثناء الى ما يقف العقل أمامه موقف الردّ والإنكار، كما ذهبوا الى أعلميّة هؤلاء الأئمة على جميع المسلمين، وأنّهم بلغوا درجة العصمة عن الخطأ، وأنّ الله لايقبل عمل عامل إلاّ من طريقهم وكلٌ يعتقد أفضلية إمامه على بقيّة الأئمة، وأنّ مذهبه هو الصواب.

---

(٢٦٦) حجة الله البالغة ج١ ص١٥٣.

إلى غير ذلك من التفريط والغلوّ، ممّا لم يعرفه معاصرو أولئك، ولم يجدوه هم في أنفسهم.

الالتزام بالمذاهب الأربعة

تطوّرت الدعوة الى المذاهب الأربعة وتكثرت العوامل لاتباعهم بصورة خاصة، وقد ذكرنا في الجزء الأول أسباب نشأتها وعوامل انتشارها بما لا حاجة إلى اعادته.

والغرض: أنّ الالتزام بهذه المذاهب الأربعة كان بصورة تدريجيّة، حتى أدّى ذلك على مرور الزمن إلى أن ينحصر أخذ الأحكام عنها دون غيرها من المذاهب الإسلامية على كثرتها وانتشارها.

والشيء المحصّل من جميع الأقوال أنّ الأخذ بها ولزوم التقليد كان في القرن الرابع، أمّا الالتزام بها دون غيرها ووجوب أخذ أقوالهم وترك أقوال الآخرين وعدم السماح بالاجتهاد والاستنباط يرجع تاريخه إلى سنة (٦٤٥ هـ)، وذلك عندما رأت السلطة أن تحصر الأخذ عن المشايخ الأربعة: أبي حنيفة، ومالك، والشافعي، وأحمد، فأحضر مدرسو المدرسة المستنصرية إلى دار الوزير، وتقدّم إليهم أن لا يذكروا شيئاً من تصانيفهم، ولا يلزموا الفقهاء بحفظ شيء منها، بل يذكرون كلام المشايخ تأدّباً وتبركاً بهم، وأجاب جمال الدين عبد الرحمن بن الجوزي ـ مدرس الحنابلة ـ بالسمع والطاعة، ثم مدرس المالكية سراج الدين عبد الله الشرمساحي، وقال: ليس لأصحابنا تعليقة، فأمّا النقط من مسائل الخلاف فما أرتبه.

وأما شهاب الدين الزنجاني مدرس الشافعية، وأقضى القضاة عبد الرحمن ابن اللمغاني مدرس الحنفية فإنّهما قالا ما معناه: «إنّ المشايخ كانوا رجالاً ونحن رجال» ونحو ذلك من إبهام المساواة فانتهت صورة الحال، فتقدّم الخليفة أن يلتزموا بذكر كلام المشايخ واحترامهم فأجابوه بالسمع والطاعة[٢٦٧].

وبذلك أصبح الالتزام بهذه المذاهب أمراً رسمياً لا يمكن خلافه، وقضي على غيرها من المذاهب المعمول بها في ذلك الوقت ـ على قلّة اتباعها ـ كمذهب سفيان الثوري، ومذهب داود بن علي الظاهري، حتى أدّت الحالة الى محو الجميع، وبقاء المذاهب الأربعة نظراً لما اظهرته السلطة من تهديد وتوعيد، وترغيب وترهيب «ولم يبقَ لأهل السُنة إلاّ المذاهب الأربعة السابقة، لأنّها وجدت الملوك والوزراء من

(٢٦٧) الحوادث الجامعة ص٢١٦ ـ ٢١٧.

يحمل الناس عليها، وينشيء لها تلك المدارس، ويحبس عليها تلك الأوقاف، فلما طال العهد بها على الناس أخذوا يتعصّبون لها وينكرون ما عداها من المذاهب السابقة».[٢٦٨]

التطرّف بالتزام المذهب

واتسع الخلاف وكثر الجدل، وعظمت الفرقة، وذهب كلٌّ إلى تأييد مذهبه وصواب رأيه، وإبراز صورة إمام مذهبه في صفحة الوجود بإطار الغلو والعبقرية الإدعائية لا العبقرية الواقعية، جهلاً منهم بعاقبة الأمر واتباعاً لهوى سلطان لا يروق له اتحادالأمة.

وقد اندفع المتطرّفون إلى أبعد حدّ من الشذوذ، ولم يصغوا لأهل الاعتدال والتوازن منهم، ولم يجعلوا وزناً لأقوال أئمّتهم، وما هو مأثور عنهم بأنّهم لم يصلوا إلى تلك الدرجة التي يدّعونها لهم فإنّهم بشر يخطئون ويصيبون، وأنّ أقوالهم لا قيمة لها تجاه الأثر والنصوص النبويّة، كما يأتي بيانه. ولكنّهم لم يسمعوا ذلك ووصفوهم بما تهوى انفسهم، كما وصفوا أبا حنيفة بأنّه سراج الأمة، وسيد الأئمة، ومحيي السنة، وأنّه إذا تكلّم خيّل إليك أنّ ملكاً يلقّنه، وما كلّم أحداً في باب من أبواب الفقه إلا ذل له، وإذا أشكلت مسألة على أعلم الناس سهلها عليه. كما تجد ذلك في كتب مناقبه للمكي[٢٦٩]، والكردري[٢٧٠]وغيرهما.

وإنّك لتدهش من تلك الألفاظ الفارغة، التي لا تجد فيها سوى التهجّم على الحقائق، ومخالفة الحق والواقع، إذ هي وليدة عصور متأخرة لا يعرفها معاصروه، ولم يشهد له بذلك علماء عصره، وقد كان أكثرهم ينكرون عليه ويردون فتاواه. منهم : أيوب السجستاني، وجرير بن حازم، وهمام بن يحيى وحماد بن سلمة، وأبو عوانة، وعلي بن عاصم، وسفيان الثوري، وسفيان بن عيينة، و مالك بن أنس وغيرهم، وكلماتهم في الردّ عليه مشهورة مدوّنة[٢٧١].

---

(٢٦٨) ميدان الاجتهاد ص١١.

(٢٦٩) المناقب للمكي ج١ ص٦١ ـ ٦٢، وانظر ج٢ ص٣٦ و ١٣٣ و ١٤٨ و ١٥٦.

(٢٧٠) المناقب للكردري ج١ ص ١٩١.

(٢٧١) تاريخ بغداد ج١٣ ص ٣٦٦ وما بعدها والانتقاء لابن عبد البر ص٢٧١ ـ ٢٩٨، ٥٢ باب بعض ماذمّ به أبوحنيفة، وجامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر وغيرها.

وكان هو بنفسه لا يرى ذلك، ويعترف بأنه يخطئ ويصيب، كما يتضح ذلك من أقواله المدونة والمشهورة عنه .[٢٧٢]

والشيء الذي يلفت النظر هو تكرارهم لكلمة تنسب إلى الشافعي، وقد جعلوها من أعظم المؤيّدات لأتباع مذهب أبي حنيفة وهي أنّه كان يقول: الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة. مع أنّ المشهور غير هذا. والعبارة لم تصدر إلاّ من قبل دعاة مذهب، إذ المعروف عن الشافعي أنّه كان يقول: أبوحنيفة يضع أول المسألة خطأً ثم يقيس الكتاب كله عليه.

ويقول: ما أشبه رأي أبي حنيفة إلا بخيط سحارة، وهي شيء يلعب به الصبيان، تمده هكذا فيجيء أصفر، وتمده فيجيء أخضر.

ويقول: رأيت أبا حنيفة في النوم وعليه ثياب وسخة فقال: مالي ولك؟.[٢٧٣]

وكان الشافعي يفضل مالكاً على أبي حنيفة. واشتهرت مناظرته لمحمد ابن الحسن الشيباني.

قال محمد بن عبد الحكم: سمعت الشافعي يقول: قال لي محمد بن الحسن: أيهما أعلم، صاحبنا أو صاحبكم؟ - يعني مالكاً وأبا حنيفة - قلت على الإنصاف؟ قال: نعم... قلت فانشدك الله من أعلم بالقرآن صاحبنا أو صاحبكم؟ قال: صاحبكم - يعني مالكاً.

قلت فمن أعلم بالسنّة، صاحبنا أو صاحبكم؟ قال: اللهم صاحبكم.

قلت فانشدك الله من أعلم بأقاويل أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله) والمتقدّمين، صاحبنا أو صاحبكم؟ قال: صاحبكم.

قال الشافعي: قلت فلم يبق إلاّ القياس والقياس لا يكون إلاّ على هذه الأشياء، فمن لم يعرف الأُصول على أيّ شيء يقيس؟[٢٧٤]

هذه هي أقوال الشافعي في أبي حنيفة. وتدلّنا بكل وضوح على بطلان ما نسبوه إليه «أنّ الناس عيال في الفقه على أبي حنيفة».

وكذلك أقوال أحمد بن حنبل في مدح أبي حنيفة فإنّ التتبع يرفع الوثوق بها، وقد اشتهر عنه قوله: إذا رأيت الرجل يتجنّب أبا حنيفة ورأيه والنظر فيه، ولا يطمئن إليه ولا إلى من يذهب مذهبه، ويغلو، ولا يتخذه إماما، فارجُ خيره.[٢٧٥]

---

(٢٧٢) حجة الله البالغة ج١ ص١٥٧.

(٢٧٣) آداب الشافعي لأبي حاتم الرازي ص١٧١ - ١٧٤.

(٢٧٤) آداب الشافعي لابن أبي حاتم الرازي ص١٥٩ - ١٦٠، ومناقب الفخر ص١٠١ ، ومناقب مالك، للزواوي ص١٠ - ١٢، وحلية الأولياء ج٦ ص٣٢٩ وطبقات الفقهاء ص٤٢ وغيرها.

وكان يشتدّ على أصحاب الرأي في استعمال الحيل فيقول: هذه الحيل التي وضعها هؤلاء - أبو حنيفة وأصحابه - عمدوا إلى السنن فاحتالوا في نقضها. أتوا الذي قيل لهم أنّه حرام، فاحتالوا فيه حتى أحلوه.

وقال أيضاً: انّهم يحتالون لنقض سنن رسول الله (صلى الله عليه وآله) .[٢٧٦]

وسئل أحمد عن مالك فقال: حديث صحيح ورأي ضعيف. وسئل عن أبي حنيفة فقال: رأي ضعيف وحديث ضعيف.[٢٧٧]

وما أكثر الشواهد التي تدلّ على خلاف ما يذهبون إليه، من الإفراط والاندفاع وراء العاطفة، والتمسّك بأشياء بعيدة عن الصواب. فقد كثر الجدل وعظم الخلاف «حتى آل بهم التعصّب إلى أنّ أحدهم إذا ورد عليه شيء من الكتاب والسنة على خلاف مذهبه يجتهد في دفعه بكلّ وسيلة من التأويلات البعيدة، نصرة لمذهبه ولقوله».[٢٧٨]

ونقل الرازي عن أكبر شيوخه في تفسير قوله تعالى: (**أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ القُرآنَ**) أنّه قال : قد شاهدت جماعة من مقلّدة الفقهاء قرأت عليهم آيات كثيرة من كتاب الله في بعض مسائل، وكانت مذاهبهم بخلاف تلك الآيات فلم يقبلوها، ولم يلتفتوا إليها، وبقوا ينظرون إليَّ كالمتعجب - يعني كيف يمكن العمل بظواهر هذه الآيات مع أن الرواية عن سلفنا وردت على خلافها؟ ولو تأمّلت حقّ التأمل وجدت هذا الداء سارياً في عروق الأكثرين من أهل الدنيا.[٢٧٩]

قال أبو شامة:[٢٨٠] وكانت تلك الأزمنة مملوءة بالمجتهدين، فكلّ صنف على ما رأى، وتعقّب بعضهم بعضاً مستمدّين من الأصلين: الكتاب والسنّة، وترجيح الراجح أقوال السلف المختلفة بغير هدى، ولم يزل الأمر على ماوصفت إلى أن استقرّت المذاهب المدوّنة ثم اشتهرت المذاهب الأربعة وهجر غيرها، فقصرت همم أتباعهم إلاّ قليلاً منهم فقلّدوا بعد ما كان التقليد حراماً لغير الرسل، بل صارت أقوال أئمّتهم بمنزلة الأصلين - الكتاب والسنة - وذلك معنى قوله تعالى: (**اتَّخَذُواْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ**

---

(٢٧٥) طبقات الحنابلة ج١ ص٢٤٧.

(٢٧٦) طبقات الحنابلة ج٢ ص١٥١ - ١٥٢.

(٢٧٧) تاريخ بغداد ج١٣ ص٤٢١ / ١٣٦.

(٢٧٨) أبو شامة في مختصر المؤمل ص١٤ - ١٥.

(٢٧٩) تفسير الرازي ج١٦ ص٣١، لم نعثر على هذا القول للرازي في تفسير هذه الآية ووجدناه في تفسير قوله تعالى آية ٣١ من سورة التوبة.

(٢٨٠) هو شهاب الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم المتولد في (٥٩٦ هـ) المتوفى سنة (٦٦٥ هـ).

أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللَّهِ)[٢٨١] فعدم المجتهدون وغلب المتقلّدون، وكثر التعصّب وكفروا بالرسول حيث قال: «يبعث الله في كل مائة سنة من ينفي تحريف الغالين وانتحال المبطلين»، وحجروا على ربِّ العالمين، مثل اليهود، أن لا يبعث بعد أئمّتهم وليّاً مجتهداً حتى آل بهم التعصّب إلى أنّ أحدهم إذا أورد عليه شيء من الكتاب والسنة على خلافه يجتهد في دفعه بكلّ سبيل من التأويلات البعيدة نصرة لمذهبه ولقوله . الخ[٢٨٢] .

وهنا يستوقفني الفكر طويلاً عندما أتامّل أقوال العلماء المبرّزين، الذين ينتسبون لأحد المذاهب، وأنّهم كيف كانوا يتشدّدون في النهي عن التقليد ومضارّه، وكيف كانوا يخالفون رئيس المذهب في اجتهادهم، وانّهم لم يعرفوا عن أئمة المذاهب ما يدعيه المتأخّرون عنهم من المبالغات، وذلك التشديد في وجوب تقليد إمام بعينه.

فكم الفرق بين الفريقين؟ وإن الأمر ليبعث على الاستغراب، وإنّ المتتبع يقطع ببطلان ما يذهب إليه المتأخرون، وأنّهم قد خالفوا أئمّتهم ورؤساء مذاهبهم في اتّباع تلك الأمور المبتدعة، وتعصّبهم لمذاهبهم بما لا يرضى به أولئك الأئمة الذين ادّعوا أنّهم لهم متّبعون، ووصفوهم بأقصى ما يتصور من المدح والثناء، وجعلوا تقليدهم والرجوع لأقوالهم أمراً إلزاميّاً. ولا نعلم من أين جاء هذا الالتزام، والأئمة أنفسهم ينهون عن ذلك ؟

ولجلاء الأمر نضع صورة موجزة من أقوال أئمة المذاهب .

الإمام أبو حنيفة لا يلزم بالرجوع إليه

إنّ أقوال أبي حنيفة وآثاره تدلّ على عدم الإلزام بالرجوع إليه، وأخذ قوله دون غيره، وأنّ حكمه هو الصواب لا غير، حتى أدّى الأمر إلى أن يتعصّب أكثر اتباعه في تقديم قوله على الآثار الصحيحة. وكيف ساغ لهم ذلك وهو ينهى عنه؟ كما كان ينهى عن تقليده، بما اشتهر عنه أنّه كان يقول : «إذا صحّ الحديث فهو مذهبي» [٢٨٣]

وقوله: لا ينبغي لمن لا يعرف دليلي أن يفتي بكلامي. وفي رواية: حرام على من لا يعرف دليلي.[٢٨٤]

---

(٢٨١) التوبة: ٣١.
(٢٨٢) مختصر المؤمّل للرد على الأمر الأول ص١٤ - ١٥.
(٢٨٣) حجة الله البالغة ج١ ص٥٢ و ٥٣.
(٢٨٤) الدين الخالص ج٤ ص١٨٠.

وكان يقول: هذا رأي النعمان بن ثابت - يعني نفسه - وهو أحسن ما رأيت فمن جاء بأحسن منه فهو أولى بالصواب .[٢٨٥]

وقال: هذا الذي نحن فيه رأي لا يجبر أحد عليه ولا نقول يجب على أحد قبوله بكراهية، فمن كان عنده شيء أحسن منه فليأت به[٢٨٦] .

وقيل لأبي حنيفة: إذا قلت قولاً وكتاب الله يخالفه؟ قال: اتركوا قولي بكتاب الله، فقيل: إذا كان خبر الرسول (صلى الله عليه وآله)؟ فقال: اتركوا قولي لقول رسول الله(صلى الله عليه وآله). فقيل: إذا كان قول الصحابة يخالفه؟ قال: اتركوا قولي لقول الصحابة[٢٨٧].

وقد اشتهر منع الفتوى بدون معرفة الدليل عن أكابر اصحاب أبي حنيفة.

قال عصام بن يوسف: كنت في مأتم فاجتمع فيه أربعة من أصحاب أبي حنيفة : زفر بن الهذيل، وأبو يوسف، وعافية بن يزيد، وآخر، فكلّهم أجمعوا على أنّه قال: لا يحل لأحد أن يفتي بقولنا ما لم يعلم من أين قلناه. قال الشيخ صالح بن محمد العمري: إن هؤلاء الأئمة لا يبيحون لغيرهم أن يقلّدهم بغير أن يعلموا دليل قولهم .[٢٨٨]

وقال أبو الليث السمرقندي: باب من يصلح للفتوى. قال الفقيه: لا ينبغي لأحد أن يفتي الا أن يعرف أقاويل العلماء - يعني أبا حنيفة وصاحبيه - ويعلم من أين قالوا، ويعرف معاملات الناس، فإن عرف أقاويل العلماء ولم يعرف مذاهبهم.. الخ .

وقال أبو يوسف بمثل قول أبي حنيفة وهو قوله: حرام على من لم يعرف دليلنا أن يفتي بقولنا.[٢٨٩]

الإمام مالك ينهى عن التقليد

وقد اشتهر عن مالك: أنّه كان ينهى عن التقليد والرجوع لقول أيّ أحد دون كتاب الله وسنّة رسوله. ويعلن معارضته لمن كان يتعصّب له ويدّعي أعلميته على جميع الأمة.

ويتّضح من مطاوي كلماته أنّ الحديث الذي ادّعوه في فضله، وهو حديث عالم المدينة، لم يكن يعرفه مالك، وإن كان معروفاً فلا يرى انطباقه عليه لوجود من هو أعلم منه، والمأثور عن مالك في ذلك كثير، كقوله: إنّما أنا بشر أُخطئ وأُصيب،

---

(٢٨٥) حجة الله البالغة ج١ ص١٥٢ - ١٥٣.
(٢٨٦) الانتقاء ص١٤٠ .
(٢٨٧) الوحدة الإسلامية ص٩٧.
(٢٨٨) ايقاظ همم ذوي الأبصار ص٧٢ .
(٢٨٩) الدين الخالص ج٤ ص١٨٠.

فانظروا في رأيي فكلّ ما وافق الكتاب والسنة فخذوه، وكلّ ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه[٢٩٠].

وكان مالك لا يخرج عن عمل أهل المدينة ، ويصرّح في موطنه بأنّه أدرك العمل على هذا، وهو الذي عليه أهل العلم ببلدنا. ويقول في غير موضع إذا سئل عن شيء: ما رأيت أحداً أقتدي به يفعله[٢٩١] أي يفعل ذلك الشيء المسؤول عنه.

وروى محمد بن محمد بن سنه بسنده عن مالك أنه قال: إنّما أنا بشر أُخطئ وأُصيب، فانظروا في رأيي، فكلّ ما وافق الكتاب والسنة فخذوه، وكل ما لم يوافق فاتركوه. وروى مثله عنه أحمد بن مروان المالكي.[٢٩٢]

وكان رأي مالك: أنّ من ترك قول أحد من الصحابة لقول تابعي أنّه يستتاب. وقد صرّح مالك بأنّ من ترك قول عمر بن الخطاب لقول إبراهيم النخعي أنه يستتاب. فكيف بمن ترك قول الله والرسول لقول من هو دون إبراهيم أو مثله[٢٩٣] ، وهذا على سبيل المثال لا التشخيص منه.

وقد اشتهر عن مالك كثرة قوله: لا أدري، في كثير من المسائل، وقد سئل عن ثمان وأربعين مسألة فقال في اثنين وثلاثين منها: لا أدري.

وسئل من العراق عن أربعين مسألة فما أجاب منها إلاّ في خمس.

قال أبو مصعب: قال لنا المغيرة: تعالوا نجمع كلّ ما نريد ان نسأل عنه مالكاً. فمكثنانجمع ذلك، ووجّه به المغيرة إليه، وسأله الجواب، فأجاب مالك في بعضه، وكتب في الكثير منه لا أدري.[٢٩٤]

والروايات عنه في «لا أدري» و «لا أحسن» كثيرة، حتى قيل لو شاء رجل أن يملأ صحيفة من قول مالك: «لا أدري» لفعل.

وقيل لمالك إذا قلت ـ أنت ـ يا أبا عبد الله: لا أدري، فمن يدري؟ قال: ويحك؟ أعرفتني؟ ومن أنا؟ وأيش منزلتي حتى أدري مالا تدرون؟ ثم أخذ يحتّج وقال: قد ابتلي عمر بن الخطاب بهذه الأشياء فلم يجب فيها.

وقال عبد الله بن مسلمة: دخلت على مالك ـ أنا ورجل آخر ـ فوجدناه يبكي، فسلمت عليه، فرد عليَّ ثم سكت عني وهو يبكي، فقلت: يا أبا عبد الله، ما الذي

---

(٢٩٠) الأحكام لابن حزم ج٦ ص ٧٩٠، ٨٦٠، مواهب الجليل للحطاب الرعيني ج٤ ص ٥٤، تهذيب التهذيب ج١٠ ص٨.

(٢٩١) أعلام الموقعين لابن القيّم ج٢ ص١٨٦.

(٢٩٢) الدين الخالص ج٤ ص١٨٢.

(٢٩٣) أعلام الموقعين لابن القيم ج٢ ص٢٠١.

(٢٩٤) الموافقات ج٤ ص٢٨٨.

يبكيك؟ فقال لي: يا ابن قعنب، أبكي لله على مافرط مني من هذا الرأي وهذه المسائل. وقد كان لي سعة فيما سبقت، فقلنا له: ارجع عن ذلك، فقال: وكيف لي بذلك وقد سارت به الركبان [٢٩٥].

وسأل رجل مالكاً عن مسألة، وذكر أنّه أرسل فيها من مسيرة ستة أشهر من المغرب فقال له: أخبر الذي أرسلك أنّه لا علم لي بها، قال: ومن يعلمها؟ قال مالك: من علّمه الله.

وسأله رجل عن مسألة استودعه إياها أهل المغرب، فقال: ما أدري، ما ابتلينا بهذه المسألة ببلدنا، ولا سمعنا أحداً من أشياخنا تكلّم فيها ولكن تعود، فلما كان من الغد جاء الرجل وقد حمل ثقله على بغله يقوده، فقال: مسألتي. فقال مالك: ما أدري ما هي؟ فقال الرجل: يا أبا عبد الله، تركت خلفي من يقول: ليس على وجه الأرض أعلم منك، فقال مالك غير مستوحش: إذا رجعت إليهم فاخبرهم إني لا أُحسن.[٢٩٦]

وهذا مما يدلّ على خطأ ذلك الاعتقاد الذي كوّنته عوامل غير مشروعة، وأيّدته ظروف خاصة، لذلك انكر عليهم مالك، إذ هو لم يعرف من نفسه ما قد ادعاه فيه غيره، وكذلك لم يكن يعرف المتصلون بمالك، والذين عرفوا منزلته كما عرفه الناؤون عنه، وأخذوا عنه صورة مكبّرة رسمتها يد المبالغة والغلو فأنكر مالك عليهم ما يدّعونه فيه من العصمة والوصول الى درجة الإحاطة بكلّ العلوم. واتسع الأمر بعد زمن مالك حتى أصبح قوله يقدّم على الكتاب والسنة كما أشرنا لذلك.

الإمام الشافعي ينهى عن التقليد

وكذلك الإمام الشافعي كان ينهى عن التقليد، ويدعو إلى العلم من طريقه. وقد روي عنه انّه قال: مثل الذي يطلب العلم بلا حجّة كمثل حاطب ليل، يحمل حزمة حطب وفيه أفعى تلدغه، وهو لا يدري. ذكره البيهقي.[٢٩٧]

وقال إسماعيل بن يحيى المزني في أول مختصره: اختصرت هذا من علم الشافعي ومن معنى قوله: لأقرّبه على من أراده، مع إعلامية نهيه - أي الشافعي - عن تقليده وتقليده غيره، لينظر فيه لدينه، ويحتاط فيه لنفسه.[٢٩٨]

---

(٢٩٥) الوحدة الإسلامية ص١٠٧.
(٢٩٦) الموافقات لأبي إسحاق الشاطبي: ٤ / ٢٨٧ - ٢٨٨.
(٢٩٧) مناقب الشافعي، للبيهقي ج٢ ص١٤٣.
(٢٩٨) أعلام الموقعين ج٢ ص١٨١.

ومختصر المزني هذا قد أصبح للشافعية فيه اعتقاد وتمسّك شديد، وامتلأت به البلدان، حتى أنّ المرأة كانت إذا جهزت للدخول على زوجها حمل في جهازها مصحف ونسخة من مختصر المزني.[٢٩٩]

وقال ابن حجر في توالي التأسيس[٣٠٠]: قد اشتهر عن الشافعي: «إذا صحّ الحديث فهو مذهبي». قال ابن القيم: هذا صريح في مدلوله، وأنّ مذهبه مادلّ عليه الحديث لا قول له غيره، ولا يجوز ان ينسب إليه ما خالف الحديث، فيقال: هذا مذهب الشافعي، ولا يحلّ الإفتاء بما خالف الحديث على انّه مذهب الشافعي، ولا الحكم به، صرّح بذلك جماعة من أئمّة أتباعه.

وقد اعترف الشافعي بعدم إحاطته بالأخبار الصحيحة، كما روي عن أحمد بن حنبل أنّه قال: قال الشافعي: أنتم أعلم بالأخبار الصحاح منا، فإذا كان خبر صحيح فأعلمني حتى أذهب إليه[٣٠١] ، ولذلك قال أبو ثور: إنّ الشافعي ما كان يعرف الحديث وإنّما كنّا نوقفه عليه ونكتبه.

وقال الربيع: سمعت الشافعي يقول: ما من أحد إلاّ وتذهب عليه سنة لرسول الله (صلى الله عليه وآله) وتعزب عنه، فمهما قلت من قول، وأصّلت من أصل فيه عن رسول الله خلاف ما قلت، فالقول ما قاله رسول الله وهو قولي، وجعل يردّد هذه الكلمات; وقال أيضاً: أجمع الناس على أنّ من استبانت له سُنّة رسول الله(صلى الله عليه وآله)لم يكن ليدعها لقول أحد[٣٠٢]، وستأتي زيادة بيان لهذه الأقوال عند بحثنا عنه.

الإمام أحمد يحارب التقليد

وكذلك الإمام أحمد بن حنبل فإنّ المأثور عنه والمشهور من أقواله أنّه كان يحارب التقليد، ويحثّ الناس على طلب الحكم من دليله، ويقول: كثرة التقليد عمى في البصيرة.[٣٠٣]

وقال أبو دواد، قلت لأحمد: الأوزاعي هو اتبع من مالك؟ فقال أحمد: لا تقلّد دينك هؤلاء، ماجاء عن النبيّ وأصحابه فخذ به .[٣٠٤]

---

(٢٩٩) مختصر المؤمل ص٣٥ .

(٣٠٠) توالي التأسيس ص١٠٩، ط دار الكتب العلمية بيروت سنة ١٤٠٦ هـ .

(٣٠١) البداية والنهاية ج٩ ص٣٢٧، وطبقات الحنابلة ج١ ص٢٨٢، وآداب الشافعي لابن أبي حاتم ص٩٥، وميزان الشعراني ج١ ص٢٦ ومجموعة الرسائل المنبرية ج٣ ص٩٩.

(٣٠٢) أعلام الموقعين ج٢ ص٢٦٣ .

(٣٠٣) جلاء العينين للآلوسي ص١٠٥.

(٣٠٤) أعلام الموقعين ج٢ ص١٨١.

وكان ينهى عن الكتابة عنه ويقول: لا تكتبوا عني ولا تقلدوني، ولا تقلّدوا فلاناً وفلاناً، وخذوا من حيث أخذوا.[٣٠٥]

وقال أحمد أيضاً : لا تقلدني، ولا تقلد مالكاً، ولا الثوري ولا الأوزاعي، وخذ من حيث أخذوا. وقال : من قلة فقه الرجل ان يقلّد دينه الرجال .[٣٠٦]

قال صاحب المنار : وقد كان هذا الإمام الجليل متأخراً قليلاً عن «الأئمة الثلاثة» وإن أدرك بعضهم وصحب أحدهم وكان قد رأى بوادر التزام تقليد الذين تكلّموا في الأحكام وكتبوا فيها، وعلم أنّ مالكاً «رحمه الله» قد ندم قبل موته إذ نقلت أقواله وفتاواه قبل موته، ولذلك لم يدون مذهباً واقتصر على كتابة الحديث، ولكن أصحابه جمعوا من أقواله وأجوبته وأعماله ما كان مجموعه مذهباً، كما قال العلاّمة ابن القيم .[٣٠٧]

وقال سلمة بن المسيّب: سمعت أحمد بن حنبل يقول: رأي الأوزاعي ورأي مالك، ورأي أبي حنيفة كله رأي، وهو عندي سواء وإنّما الحجة في الآثار![٣٠٨]

يقول السيد صديق حسن، بعد نقله لأقوال أئمة المذاهب في النهي عن تقليدهم: فإنّهم - رضي الله عنهم - قد نهوا عن الرأي والتقليد، وصرّح بعضهم بأن الاستحسان بدعة ولكنّ مقلّديهم باللسان دون الجنان، لم يرضوا بهذا النهي; وقالوا نحن مقلدوكم شئتم أو أبيتم - وهم والله يعلم - أنّهم كاذبون.[٣٠٩]

والشيء الذي نودّ التنبيه عليه هنا أنّ أتباع أحمد قد تمسّكوا بتقليده والأخذ بأقواله، بل جعلها بعضهم كأقوال النبيّ(صلى الله عليه وآله)، وهي بمثابات ما يُروى عن النبي (صلى الله عليه وآله) من الآثار .[٣١٠]

هذا ما أردنا ذكره في هذا العرض الموجز عن أئمة المذاهب، ونحن لا نريد أن نحطّ من كرامة واحد منهم، أو نتعصّب عليه، ولكنّي كما قلت سابقاً : إنّ من الحقّ والإنصاف أن نعطي شخصيّة كلّ واحد من أئمة المذاهب حقّها من الدراسة المتجردة عن التعصّب والتحيّز، وأن لا ننقاد للعواطف ولننظر الواقع بعين تبصر الحقائق كما هي.

---

(٣٠٥) مختصر المؤمل لأبي شامة ص٣١.
(٣٠٦) أعلام الموقعين ج٢ ص١٨٢.
(٣٠٧) الوحدة الإسلامية ص١١٧.
(٣٠٨) الإيقاظ للغلاف ص٢٨.
(٣٠٩) الدين الخالص ج٤ ص٣٧٣.
(٣١٠) طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ج٢ ص١٧٦.

وبدون شك أنّ ذلك التعصب الطائفي قد أوجد مشاكل اجتماعية فرّقت الكلمة وكدّرت صفو الأخوة. وما أحوج المسلمين الى الإلفة والاتحاد! وهي دعوة رفع الأئمة بها أصواتهم، وكانت تعاليمهم تحثّ على الوحدة والاتفاق. فالتعصّب ينافي المبادئ الصحيحة ويدعو الى الفرقة. ونحن بأمسّ الحاجة الى التفاهم من طريق العلم والواقع.

ولا يتسنى لنا حصول الغرض إلاّ برفع تلك الزوائد التي أوجدتها عوامل التعصب، وأن لا نقيم وزناً لعوامل السياسة التي قضت على المسلمين باتساع شقّة الخلاف، فهي تساعد الضعيف ليقوى على مقابلة خصمه، فإذا ما بلغ الغاية أو كاد سحبت يد المساعدة خلسة لتضمّها للجانب الآخر، وهكذا على ممرّ الزمن واختلاف العصور.

أسباب التعصب المذهبي وتطور الدعوة

والغرض أنّ التعصب قد شوّه وجه الحقيقة، وقلب الأمور عن واقعها، ولعلّ أسباب ذلك تعود الى مايلي :

١ - كان لتطور الدعوة إلى الالتزام بالمذاهب الأربعة، أثر في تحيّز كلّ جانب إلى المذهب الذي يعتنقه، ممّا يؤدّي إلى الاندفاع بنوع من التعصّب وراء طلب المؤيدات لذلك المذهب، بدون التفات إلى مؤاخذة، أو إستناد لأمر ملموس. وكانت الظروف تساعد على تنمية تلك الاندفاعات، إذ وجدت نشاطاً ساذجاً في المجتمع، وقبولاً في العقول المتبلبلة فكالت المدح لها جزافاً ما شاءت بدون حساب.

٢ - إنّ التزاحم على مناصب الدولة من قضاء وتولي حسبة، كان يؤدي إلى المجادلة والمناضلة والتحزّب، ولا يحصل من وراء ذلك إلا خلاف وتباعد، وادعاء كلّ الحقّ في جانبه، وأنّ مذهبه هو المذهب الذي لا يقبل الله عملاً إلاّ به، وأنّ رئيس المذهب هو المتفرد بعلوم الإسلام لا غير، لتكون له الغلبة على غيره. وقد تزلّفوا للأمراء والخلفاء طلباً للحصول على ذلك المنصب «ولذلك تجد الوطيس لم يُحم إلاّ بين الحنفية والشافعية، لأنّ المناصب كانت محصورة فيهم»[٣١١]

(٣١١) الوحدة الإسلامية للسيد محمد رشيد رضا ص٣٧ .

٣ - مزاحمة المذهب الجعفري وانتشاره في المجتمع الإسلامي، مع بذل الجهد من السلطات في معارضته، والقضاء على المنتمين إليه مرّةً، وبتشجيع غيره من المذاهب تارةً أخرى، مما يبعث معتنقيها على التفاني في التعصّب لها، والتحامل على هذا المذهب الذي فرض نفسه على المجتمع بدون مشجّع مادي.

وقد أفصح التاريخ عن كثير من ذلك ممّا لا حاجة لذكره الآن. ومن المناسب أن نختم هذا الفصل بما ذكره الأستاذ السيد محمد رشيد رضا، في جواب الأسئلة التالية الموجّهة إليه من باريس، من صديقه أحمد زكي بك وهي :

١ - متى أُقفل باب الاجتهاد؟ وماذا ترتب على هذا الإقفال من المنافع والمضارّ ؟

الجواب: زعموا أنه أُقفل بعد القرن الخامس، ولكنّ كثيراً من العلماء اجتهدوا بعد ذلك، فلم يكونوا يعملون إلاّ بما يقوم عندهم من الأدلة، ولا يخلو زمن من هؤلاء، كما صرّح بذلك علماء الشافعية.

ولولا خوفهم من حكومات الجهل; لبيّنوا للناس مفاسد التقليد الذي حرّمه الله. ودعوهم إلى العمل بالدليل كما أمر الله، وقد علمت الحكومة العثمانية - منذ عهد قريب - بأنّ بعض علماء الشام يحملون تلاميذهم على ترك التقليد والعمل بالدليل، فشدّدت عليهم النكير حتى سكتوا عن الجهر بذلك .

ولا نعرف في ترك الاجتهاد منفعة ما، وأما مضاره فكثيرة وكلّها ترجع الى إهمال العقل وقطع طريق العلم، والحرمان من استقلال الفكر. وقد أهمل المسلمون كلّ علم بترك الاجتهاد فصاروا الى ما نرى.

٢ - ما معنى قولهم أُقفل باب الاجتهاد ؟

الجواب: معناه انّه لم يبق في الناس من تتوفر فيه شروط المجتهد، ولا يرجى أن يكون ذلك في المستقبل، وإنّما قال هذا القول بعض المقلّدين، لضعف ثقتهم بأنفسهم، وسوء ظنّهم بالناس، وزعمهم أنّ العقول دائماً في تدلَّ وانحاط، وغلوّ في تعظيم السابقين.

وقد رأيت أن تلك الشروط - أي شروط الاجتهاد - ليست بالأمر الذي يعزّ مثاله، وتعلم أنّ سُنّة الله تعالى في الخلق الترقي إلا أن يعرض مانع، كما يعرض لنمو الطفل مرض يرجعه القهقرى. كان آخر الأديان أكملها.

٣ - مامعنى هذه العبارة: قفل باب الاجتهاد، عند العامة وعند أهل التحقيق؟

الجواب : العامة يقلّدون آباءهم ورؤساءهم في قولهم: إنّ أهل السنة ينتمون إلى أربعة مذاهب من شذّ عنها فقد شذّ عن الإسلام. ولا يفهمون أكثر من هذا.

وأمّا المشتغلون بالعلم أو السياسة، فالضعفاء المقلّدون منهم يفهمون من الكلمة ما فسرناها به في جواب السؤال السابق، ويحتجّون على ذلك بأنّ الناس قد أجمعت كلمتهم على هذه المذاهب، فلو أُجيز للعلماء الاجتهاد لجاؤونا بمذاهب كثيرة، تزيدالأمة تفريقاً، وتذهب بها في طرق الفوضى.

والمحقّقون، يعلمون أنّ منشأ هذا الحجر هو السياسة، فالسلاطين والأمراء المستبدّون لا يخافون إلاّ من العلم، ولا علم إلاّ بالاجتهاد فقد نقل الحافظ ابن عبد البر وغيره الاجماع على أنّ المقلد ليس بعالم، ونقله عنه ابن القيم في (أعلام الموقعين) وهو ظاهر، إذ العالم بالشيء هو من يعرفه بدليله، وإنّما يعرف المقلد أنّ فلاناً قال كذا فهو ناقل لا عالم. وربما كانت آلة (الفوتغراف) خيراً منه.[٣١٢]

(٣١٢) أعلام الموقعين ج٢ ص١٦٨ - ١٨١ .

آراء حول الاجتهاد
والتقليد

آراء حول الاجتهاد والتقليد

حول الاجتهاد والتقليد

أُغلق باب الاجتهاد في وجوه المسلمين، وأصبح الالتزام بالمذاهب الأربعة لازماً، حتى جعلت أحكام الإسلام مقصورة على الأئمة الأربعة دون غيرهم، لأنّ درجة الاجتهاد مستحيلة على أيّ أحد من علماء الأمة - كما يقولون - مع سهولة الوصول إليها، وقد اتّضحت لنا الأسباب التي دعت الى هذا الالتزام وقد وقفنا على الأمور التي أدّت الى قفل باب الاجتهاد. ومعناه الضربة القاضية على حرّية الفكر بل على الإسلام، الذي جاء للناس كافة ليساير مختلف العصور والشعوب.

يقول الأستاذ عبد المتعال الصعيدي: وإنّي أستطيع أن أحكم بعد هذا بأنّ منع الاجتهاد قد حصل بطرق ظالمة، وبوسائل القهر والإغراء بالمال، ولاشكّ أنّ هذه الوسائل لو قدرت لغير المذاهب الأربعة - التى نقلّدها اليوم - لبقي جمهور يقلدها أيضاً، ولكانت الآن مقبولة عند من ينكرها، فنحن إذاً في حلّ من التقيّد بهذه المذاهب الأربعة التي فرضت علينا بتلك الوسائل الفاسدة، وفي حلّ من العود الى الاجتهاد في أحكام ديننا لأنّ منعه لم يكن إلاّ بطريق القهر، والإسلام لايرضى إلاّ بما يحصل بطريق الرضى والشورى بين المسلمين، كما قال تعالى: (**وأمرُهُم شُورَى بَيْنَهُم**).[٣١٣]

وقد ذكرنا فيما سبق عرضاً موجزاً لأقوال العلماء الأعلام من الأمة في الإنكار على غلق باب الاجتهاد، ومنع المسلمين من الاهتداء بهدى القرآن وصحيح الحديث، والاقتصار على أقوال المذاهب الأربعة، وليس من الصحيح الاعتقاد بأنّهم أحاطوا بأسرار القرآن وعلوم الحديث، فدوّنوها فى كتبهم أو لقنوها لتلامذتهم، مع انّ كلماتهم تدل على عدم بلوغهم تلك الدرجة من الكمال، ولا ارتياب بأنّه لو فسح في أجل أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، وعاشوا الى اليوم، لداموا مجتهدين مجدّين يستنبطون لكلّ قضيّة حكماً، وكلّما زاد تعمّقهم زادوا فهماً وتدقيقاً.

إلى آخر ما تعرضنا لذكره من الآراء والأقوال في الإنكار على غلق باب الاجتهاد، ومنعه وهو سرّ تأخّر المسلمين، وهو الباب المرن الذي عندما قفل تأخّر

---

(٣١٣) ميدان الاجتهاد ص١٤.

المسلمون بقدر ما تقدّم العالم، فأضحى ما وضعه السابقون لا يمكن أن يغيّر ويبدل. لاعتبارات سياسية.

وعلى أيّ حال فإنّ هناك طائفة من العلماء يحاولون رفع ذلك الجمود الفكري وفتح باب الاجتهاد الذي دعت السياسة لإقفاله، ولم يعرف هناك دليل شرعي يؤيده ما ذهب إليه المقلّدون والقائلون بلزومه، ووجوب الرجوع إلى المذاهب الأربعة دون غيرها من علماءالأمة.

وقد عقد ابن القيّم فصلاً طويلاً في أعلام الموقعين [٣١٤] استقصى فيه أدلة القائلين بذلك وإبطالها بالأدلة القويّة، كما قد ألّفت رسائل عديدة لهذا الغرض، وكلّها تدعو الى التحرر من تلك القيود التي أخذت بأعناق العلماء، وإذا رفع أحد منهم صوته بالدعوة إلى رفع تلك القيود ألقي في غيابة السجن، ولقي العذاب والتنكيل، لأنّ السلطان كان مؤيداً لأهل التقليد، لأنّهم آلة السياسة

وأعوان الرياسة، فكان صوت المصلحين بينهم خافتاً ومقامهم خافياً.

وها نحن أولاء نلقي نظرة خاطفة حول الاجتهاد والتقليد ونقف على شروط الاجتهاد، كما وقفنا على كلمات الأئمة من الدعوة إليه والنهي عن التقليد ونستطرد حجج القائلين به.

الاجتهـاد

الاجتهاد في اللغة: بذل المجهود واستفراغ الوسع في فعل من الأفعال، ولا يستعمل إلاّ فيما فيه كلفة، فيُقال: اجتهد في حمل حجر الرحى، ولا يُقال: اجتهد فى حمل خردلة. ثم صار هذا اللفظ في عرف العلماء مخصوصاً ببذل الفقيه وسعه في طلب العلم بأحكام الشريعة.

والاجتهاد التام: أن يبذل الوسع في الطلب بحيث يحسّ من نفسه بالعجز عن مزيد طلب[٣١٥].

وقال في كشّاف اصطلاحات الفنون[٣١٦]: «الاجتهاد في اللغة استفراغ الوسع في تحصيل أمر من الأمور مستلزم للكلفة والمشقّة، وفي اصطلاح الأصوليين: استفراغ الفقيه الوسع في تحصيل ظنّ بحكم شرعيّ. والمستفرغ وسعه في ذلك التحصيل يُسمى مجتهداً بكسر الهاء» ثم ذكر بعد ذلك بحثاً في التعريف والقول بتجزئ

---

(٣١٤) أعلام الموقعين ج٢ ص٢٦٠ ـ ٣٩٤.

(٣١٥) المستصفى للغزالي ص٣٤٢.

(٣١٦) موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم للتهاوني ج١ ص١٠١، مادة الاجتهاد.

الاجتهاد - أي جواز كونه في بعض الأحكام دون بعض - وشروط المجتهد فقال: للمجتهد شرطان :

١ - معرفة الباري تعالى وصفاته وتصديق النبيّ بمعجزاته، وسائر ما يتوقف عليه علم الإيمان، كلّ ذلك بأدلة إجمالية وإن لم يقدر على التحقيق والتحصيل، على ماهو دأب المتبحرين في علم الكلام.

٢ - ان يكون عالماً بمدارك الأحكام وأقسامها، وطرق اثباتها ووجوه دلالتها، وتفاصيل شرائطها ومراتبها، وجهات ترجيحها عند تعارضها، والتقصّي عن الاعتراضات الواردة عليها فتحتاج الى معرفة حال الرواة، وطرق الجرح والتعديل، وأقسام النصوص المتعلقة بالأحكام، وأنواع العلوم الأدبية من اللغة والصرف وغير ذلك، هذا في حقّ المجتهد المطلق الذي يجتهد في الشرع.

وجعل الشاطبي في الموافقات العمدة فيها: فهم العربية متناً وأسلوباً، ومعرفة مقاصد الشريعة، وأجاز تقليد المجتهد لغيره في الفنون التي هي مبدأ الإجتهاد، كأن يقلّد المحدثين في كون هذا الحديث صحيحاً وهذا ضعيفاً، من غير أن يعرف هو حال الرواة وطرق الجرح والتعديل.[٣١٧]

ومن الأقوال ما يجمع بين التزام الاجتهاد والتقليد، وهي مما اقتضاه الحال في مواجهة تحرير المسائل ومقالات المتأخرين في الأصول، حيث ينمّ تصريحهم عن رغبة في الاجتهاد أو عمل به بالفعل، وقد ورد هنا قول محمد ابن عبدالعظيم الرومي الموردي الحنفي في الفصل الأوّل من كتابه (القول السديد) الذي ألّفه سنة (١٠٥٢ هـ): إعلم أنّه لم يكلّف الله أحداً من عباده بأن يكون حنفياً أو مالكياً أو شافعياً أو حنبلياً، بل أوجب عليهم الإيمان بما بعث محمداً(صلى الله عليه وآله) والعمل بشريعته، غير أنّ العمل بها متوقف عليها. والموقوف له طرق، فما كان منها ممّا يشترك بها العوام وأهل النظر كالعلم بفريضة الصلاة والزكاة والصوم والحج والوضوء إجمالاً، وكالعلم بحرمة الزنا والخمر واللواطة وقتل النفس وغير ذلك ممّا علم من الدين بالضرورة، فلذلك لا يتوقف فيه على اتباع مجتهد ومذهب معين، بل كلّ مسلم عليه اعتقاد ذلك. فمن كان في العصر الأوّل فلا يخفى وضوح لك في حقّه، ومن كان في الأعصار المتأخرة فلوصول ذلك الى علمه ضرورة من الاجماع والتواتر وسماع الآيات والسنن، أي الأحاديث الشريفة المستفيضة المصرّحة بذلك في حقّ من وصلت إليه، وأما ما لا يتوصل إليه إلاّ بضرب من النظر والاستدلال، فمن كان قادراً عليه

---

(٣١٧) الموافقات ج٤ ص١٠٩.

بتوفر الآلة وجب عليه فعلاً كالأئمة المجتهدين(رضي الله عنهم) ومن لم يكن له قدرة عليه; وجب عليه الاتباع الى من يرشده الى ما كلّف به ممّن هو أهل النظر والاجتهاد والعدالة.

التقليد

التقليد: هو قبول قول بلا حجة. وليس من طرق العلم لا في الأصول ولا في الفروع، إلاّ أنّه لما كان الظن في الفروع كافياً للعمل وفي الأصول غير كاف جاز في الفروع دون الأصول.

وقال قوم: إنّ طريق معرفة الحقّ التقليد، وإنّ ذلك هو الواجب، وإنّ النظر والبحث حرام.(٣١٨)

قال الذين جوّزوا التقليد أيضاً في الأصول: أنّ النظر لو كان واجباً لفعله الصحابة وأمروا به، ولكنّهم لم يفعلوا، ولو فعلوا لنقل عنهم كما نقل النظر في الفروع.

ودليل الجمهور في منع التقليد في الأصول: انعقاد الإجماع على وجوب العلم بالله تعالى، ولا يحصل ذلك بالتقليد لإمكان كذب المقلّد، إذ أنّ صدقه إنّما يُعرف بالضرورة أو النظر، والأوّل منتف، وإذا عُلم ارتفع التقليد.

بين طائفتين

ها نحن ذا بعد هذا البيان الموجز للاجتهاد والتقليد نقف بين طائفتين من المسلمين، وكلّ واحدة تخالف الأخرى فيما تذهب إليه من حيث الاجتهاد والتقليد، وأنَّ النزاع لا يزال يشتدّ، كلّما اتسع الفكر وانتشر العلم ورفعت القيود كانت كفّة القائلين بالجواز أرجح.

وإنّ استقصاء حجج كلّ من الطرفين يستدعي الإطالة في الموضوع والخروج عن شرط الكتاب، ولكنّا نكتفي بالإشارة للبعض منها، والاطلاع على التفصيل في الكتب المختصّة بذلك. وأنّ أكثرها فائدة واستقصاء هو كتاب «الدين الخالص» للسيد صديق حسن وكتاب «أعلام الموقعين» لابن القيم الجوزية فليراجع من أراد الوقوف على ذلك .

---

(٣١٨) أصول الفقه لمحمد الخضري ص٣٦٩ .

حجّة المقلّدين

لقد سرت روح التقليد سرياناً عاماً بعد أن كان مريد الفقه يشتغل أولاً بدراسة الكتاب، ورواية السنة اللّذين هما أساس الاستنباط ، أمّا في هذا الدور - أي دور غلق باب الاجتهاد - فأصبح مريد الفقه يتلقّى كتب إمام معيّن، ويدرس طريقته التي استنبط بها ما دوّنه من الأحكام، فإذا أتمّ ذلك صار من العلماء الفقهاء. ومنهم من تعلو به همّته فيؤلّف كتاباً في أحكام إمامه. ولا يستجيز الواحد منهم لنفسه أن يقول في مسألة من المسائل قولاً يخالف ما أفتى به إمامه. كأنّ الحقّ كلّه نزل على لسان إمامه وقلبه، حتى قال طليعة فقهاء الحنفية في هذا الدور، أبو الحسن عبيد الله الكرخي: كلّ آية تخالف ما عليه أصحابنا فهي مؤوّلة أو منسوخة، وكلّ حديث كذلك فهو مؤوّل أو منسوخ. وبمثل هذا أحكموا دونهم أرتاج باب الاختيار.

والتزم كلّ منهم مذهباً معيّناً لايتعدّاه، ويبذل كلّ ما أوتي من مقدرة في نصرة ذلك المذهب جملة وتفصيلاً. مع أنه لا يخطر ببال هؤلاء الفحول ثبوت العصمة لأيّ إمام في اجتهاده، وقد كان الأئمة أنفسهم يعترفون بجواز الخطأ عليهم، وأن تكون هناك سُنة لم يطّلعوا عليها.[٣١٩]

وعلى هذا سارت قافلة الزمن، ولم يكن هناك طريق لرفع ذلك التحجير. وإيقاف تسريات تلك الروح. ومن يحاول الاجتهاد والاتصال بالأدلّة الشرعية يكون نصيبه النكال والتعذيب، ويُرمى بالبدعة والضلالة. وقد وقع ذلك لكثير من العلماء.

وعلى أيّ حال فقد احتجّ القائلون بلزوم التقليد بأُمور :

١ - قوله تعالى: **(فاسألُوا أهلَ الذِكر اِن كُنتُم لاَ تَعلَمُون)**[٣٢٠] وبقوله تعالى: **(أطِيعُوا اللهَ وَأطِيعُوا الرَّسُولَ وَأولِي الأمر مِنكُم)**[٣٢١] وقالوا: إنَّ أهل الذكر وأُولي الأمر هم العلماء.

٢ - إنّ النبي (صلى الله عليه وآله) أرشد إلى التقليد وسؤال من لا يعلم لمن يعلم، فقال في حديث صاحب الشجة: **ألا سألوا إذ لم يعلموا إنّما شفاء العيّ السؤال؟**[٣٢٢]

---

(٣١٩) تاريخ التشريع الإسلامي ص٤٢٤ - ٤٢٦ .

(٣٢٠) الأنبياء: ٧ .

(٣٢١) النساء: ٥٩.

(٣٢٢) أخرجه أبو داود وابن ماجة عن جابر قال: خرجنا في سفر فأصاب رجلاً منا حجر فشجه في رأسه ثم احتلم، فسأل أصحابه: هل تجدون لي رخصة في التيمم فقالوا: ما نجد لك رخصة، فاغتسل فمات، فلما قدمنا على رسول الله (صلى الله عليه وآله) أخبر بذلك، فقال : قتلوه قتلهم الله ألا سألوا إذ لم يعلموا . الحديث، سنن أبي داود ج١ ص٨٥، مستدرك الوسائل ج٢ ص ٥٢٨ ح ٢٦٣١.

٣ - تصريح الشافعي بتقليده لعمر: في الضبع بعير، أي كفّارة قتل الضبع بعير، أنّه قال: قُلته تقليداً لعمر، وفي مسألة بيع الحيوان بالبراءة من العيوب، تقليداً لعثمان. وفي مسألة الجد مع الأخوة، تقليداً لزيد. وعنه - أي عن زيد - قبلنا أكثر الفرائض. وهذا أبو حنيفة ليس معه في مسائل الآبار إلاّ تقليد من تقدّمه من التابعين فيها. وهذا مالك لا يخرج عن عمل أهل المدينة، وقال محمد بن الحسن الشيباني: يجوز للعالم أن يقلّد من هو أعلم منه، ولا يجوز له أن يقلد من هو مثله.(٣٢٣)

٤ - استدلّوا بقول عمر: إنّي لأستحي من الله أن أُخالف أبا بكر. وقال لأبي بكر: رأينا تبع لرأيك (٣٢٤) إلى آخر ما أوردوه من الاحتجاج لذلك. وأنت ترى أنّ حججهم خارجة عن محل النزاع.

أما الآيات فهي عامّة، فما الدليل على تخصصها بالأربعة، وأنّه لا يجوز سؤال غيرهم؟ وأنّ جميع ما ذكروه لا يصلح لإثبات المدّعى. وقد أجاب عنه مانعو التقليد وفنّدوا ما ذهبوا اليه.

وقال أبو عمر: يقال لمن قال بالتقليد : لم قلت به وخالفت السلف في ذلك فإنّهم لم يقلّدوا؟

فإن قال : قلت لأنّ كتاب الله لا علم لي بتأويله، وسنة رسول الله (صلى الله عليه وآله) لم أحصها، والذي قلدته قد علم ذلك، فقلدت من هو أعلم مني.

قيل له: أمّا العلماء إذا أجمعوا على شيء من تأويل الكتاب، أو حكاية عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) أو اجتمع رأيهم على شيء فهو الحقّ لا شكّ فيه، ولكن قد اختلفوا فيما قلّدت فيه بعضهم دون بعض، فما حجّتك في تقليد بعضهم دون بعض وكلّهم عالم؟ ولعلّ الذي رغبت عن قوله أعلم من الذي ذهبت إلى مذهبه.

فإن قال: قلّدته لأنّي أعلم أنّه على صواب.

قيل له: علمت ذلك بدليل من كتاب الله أو سُنّة أو اجماع ؟

فإن قال: نعم. أبطل التقليد وطولب بما ادّعاه من الدليل.

وإن قال: قلدته لأنّه أعلم مني. قيل له : فقلد كلّ من هو أعلم منك، فإنك تجد من ذلك خلقاً كثيراً، ولا تحصي من قلّدته إذ علّتك فيه أنّه أعلم منك.

فإن قال: قلّدته لأنّه أعلم الناس.

---

(٣٢٣) أعلام الموقعين ج٢ ص١٨٥.

(٣٢٤) أعلام الموقعين ج٢ ص١٨٣.

قيل له: إذاً أعلم من الصحابة وكفى بقول مثل هذا قبحاً!! إلى أن يقول : ولا خلاف بين أئمة الأمصار في فساد التقليد.[٣٢٥]

وعلى أيّ حال فإنّ روح التقليد قد سرت وأُشرب في قلوب المقلّدين حبّ التعصّب للمذهب الذي يتّبعونه، وحكموا بخلوّ الأرض من القائمين لله بحجة، وقالوا: لم يبق في الأرض عالم منذ الأعصار المتقدّمة.

فقالت طائفة: ليس لأحد أن يختار بعد أبي حنيفة، وأبي يوسف، وزفر بن الهذيل، ومحمد بن الحسن الشيباني، والحسن بن زياد اللؤلؤي، وهذا قول كثير من الحنفية.

وقال بكر بن العلاء القشيري: ليس لأحد أن يختار بعد المائتين من الهجرة.

وقال آخرون: ليس لأحد أن يختار بعد الأوزاعي، وسفيان الثوري، ووكيع ابن الجراح، وعبد الله بن المبارك.

وقالت طائفة: ليس لأحد أن يختار بعد الشافعي.

وعند هؤلاء أنّ الأرض قد خلت من قائم لله بحجة، ولم يبق فيها من يتكلّم بالعلم، ولم يحلّ لأحد بعدُ أن ينظر في كتاب الله و لا سُنّة رسوله لأخذ الأحكام منها، ويقضي ويفتي بما فيهما حتى يعرضه على قول مقلّده ومتبوعه، فإن وافقه حكم به وافتى به، وإلاّ ردّه ولم يقبله.

وهذه أقوال - كماترى - قد بلغت من الفساد والبطلان والتناقض والقول على الله بلا علم، وإبطال حججه، والزهد في كتابه وسُنّة رسوله .[٣٢٦]

وإنّ منهم من أقام رؤساء المذاهب مقام الأنبياء، بل إنّ من أتباعهم من قدّمهم عليهم عند تعارض كلامهم مع الحديث الصحيح، فإنّهم يردّون كلام النبيّ المعصوم مع اعتقادهم صحة سنده، لقول نقل عن إمامهم، ويتعلّلون باحتمالات ضعيفة كقولهم: يحتمل أن يكون الحديث نسخ، ويحتمل أنّ عند إمامنا حديثاً آخر يعارضه.

ولا شكّ أنَّ هؤلاء المقلّدين قد خرجوا بغلوهم في التقليد عن التقليد، لأنّهم لو قلّدوا الأئمة في آدابهم وسيرتهم وتمسّكهم بما صحّ عندهم من السنّة; لما ردّوا كلام المعصوم لكلام غير المعصوم، الذي يجوز عليه الخطأ والجهل بالحكم، وكانوا يأمرون بأن يُترك قولهم إذا خالف الحديث. بل تسلق هؤلاء الغالون - بمثل ذلك - إلى القرآن نفسه، وهو المتواتر القطعي والإمام المبين.

---

(٣٢٥) أعلام الموقعين ج٢ ص١٧٩.

(٣٢٦) أعلام الموقعين ج٢ ص٢٥٦ - ٢٥٧ .

وتجرّأ بعضهم أنّه لا يجوز لأحد أن يأخذ دينه من الكتاب، لأنّه لا يفهمه، وإنّما يفهمه رجال الدين، فيجب عليه أن يأخذ بكلّ ما قالوا وإن خالف الكتاب، ولا يجوز له أن يأخذ بالكتاب إذا خالف ما قالوا، بل لا يجوز لأحد أن يقول: هذا حلال وهذا حرام، لأنّ الله قال كذا، أو لأن رسول الله قال كذا، بل لأنّ فلاناً الفقيه قال كذا!![٣٢٧]

وجملة القول إنّهم انقسموا إلى فئتين : فئة ترى بقاء القديم على قدمه والمحافظة على إبقاء ما قرّر في تلك العصور، حتى عدّوا محاولة الخروج عن ذلك ضلالاً وبدعة.

وفئة ترى وجوب حلّ تلك القيود وإطلاق حريّة الفكر والرجوع إلى أُصول استنباط الحكم، وكلّما طال الزمن اتّسع نشاط هذا الرأي وكثر الإنكار على من يقول بغلق باب الإجتهاد.

ذكروا يوماً في مجلس السيد جمال الدين الأفغاني[٣٢٨] قولاً للقاضي عياض، واتخذوه حجة، واشتدّ تمسّكهم بذلك القول حتى أنزلوه منزلة الوحي، بأنّه لايأتيه الباطل لا من خلفه ولا من أمامه.

فقال جمال الدين: يا سبحان الله! إن القاضي عياض قال ما قاله على قدر ما وسعه عقله، وتناوله فهمه وزمانه، أفلا يحق لغيره أن يقول ما هو أقرب للحق، وأوجه وأصح من قول القاضي عياض أو غيره من الأئمة؟

وذكروا أن باب الاجتهاد مسدود لتعذر شروطه، فتنفس جمال الدين الصعداء وقال: مامعنى باب الاجتهاد مسدود؟ وبأيّ نصّ سدّ باب الاجتهاد، أو أيّ إمام قال لا ينبغي لأحد من المسلمين بعدي أن يجتهد ليتفقه بالدين؟! وأن يهتدي بهدي القرآن، وصحيح الحديث، أو ان يجدّ ويجتهد لتوسيع مفهومه منها، والاستنتاج بالقياس على ما ينطبق على العلوم العصرية وحاجيات الزمان وأحكامه، ولا ينافي جوهر النص؟

إنّ الله بعث محمداً رسولاً بلسان قومه العربي يفهمهم ما يريد إفهامهم، وليفهموا منه مايقوله لهم (**وَمَا أرسَلنَا مِن رَسُول إلاّ بلِسان قومِهِ**).[٣٢٩]

---

(٣٢٧) الوحدة الإسلامية ص٤٥ ـ ٤٦.

(٣٢٨) السيد جمال الدين بن صفتر أو (صفدر) الأسدآبادي «أسدآبادي» مدينة قرب همدان، ولد سنة (١٢٥٤ هـ) (١٨٣٨ م) وتوفي يوم الثلاثاء ٩ مارس سنة (١٨٩٧ م ١٣١٤ هـ) بالاستانة، وينتهي نسبه الى الحسين بن علي (عليهم السلام)، وعشيرته قوية في الأفغان، وهم محلّ احترام وتقدير الأفغانيين، ونشأ جمال الدين بينهم وسافر الى البلاد الإسلامية يدعو للاصلاح، ولقي أذىً كثيراً في سبيل ذلك. من أعلام النهضة ورجال الحرية، ترك منهجه واضحاً عند الكثيرين، وكان له الفضل في بعث روح الفكر وتجديد حركتها بالتصدّي للجمود والتعصّب.

(٣٢٩) إبراهيم: ٤.

وقال: **(إنَّا أنزَلنَاهُ قُرآناً عَرَبياً لَعَلَّكُم تَعقِلُون)**[٣٣٠] وفي مكان آخر **(إنّا جَعَلنَاهُ قُرآناً عَربيّاً لَعَلَّكُم تَعقِلُون)**.[٣٣١]

فالقرآن ما أُنزل إلاّ ليفهم، ولكي يعمل الإنسان بعقله لتبديل معانيه. وفهم أحكامه، والمراد منها.[٣٣٢]

وكان تلميذه الشيخ محمد عبده[٣٣٣] يدعو لفتح باب الاجتهاد، وينكر الجمود على القديم، ويدعو لحلّ تلك القيود، وإطلاق حريّة الفكر والرجوع الصحيح إلى قواعد الدين. وكان يناضل عن هذه الفئة بلسانه وقلمه، وإليك بيان وجهة نظره في قوله :

(وارتفع صوتي في الدعوة إلى أمرين عظيمين: الأول تحرير الفكر من قيد التقليد، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف، والرجوع في كسب معارفه من ينابيعها الأولى، واعتباره من موازين العقل البشري التي وضعها الله لتردّ من شططه، وتقلّل من غلطه وخبطه، لتتمّ حكمة الله في حفظ نظام العالم الإنساني، وأنّه على هذا الوجه يعدّ صديقاً للعلم، باعثاً على البحث في أسرار الكون، داعياً إلى احترام الحقائق الثابتة، مطالباً بالتعويل عليها في آداب النفس واصلاح العمل.[٣٣٤]

وقام السيد رشيد رضا تلميذ الشيخ محمد عبده في المطالبة بفتح باب الاجتهاد، وشدّد النكير على من يذهب إلى غلقه، في لزوم اتباع مذهب معين، ومن أقواله: «ولا نعرف في ترك الاجتهاد منفعة ما، وامّا مضاره فكثيرة، وكلّها ترجع إلى إهمال العقل، وقطع طريق العلم، والحرمان من استغلال الفكر، وقد أهمل المسلمون كلّ علم بترك الاجتهاد، فصاروا إلى ما نرى» .[٣٣٥]

وذكر : «أنّه لولا خوفهم - أي العلماء - من حكومات الجهل لبيّنوا مفاسد التقليد الذي حرّمه الله، ودعوا الناس إلى العمل بالدليل كما أمر الله، وقد علمت الحكومة

---

(٣٣٠) يوسف: ٢ .
(٣٣١) الزخرف: ٣ .
(٣٣٢) خاطرات جمال الدين للمخزومي ص١٧٧ - ١٧٨.
(٣٣٣) هو الشيخ محمد بن عبده خير الدين المتوفى ٨ جمادى الاولى سنة (١٣٣٣ هـ) (١٩٠٥ م) كان حامل لواء نهضة العلم في مصر، وهو تلميذ السيد جمال الدين الافغاني وله آثار قيمة وذكر جميل.
(٣٣٤) أعلام الإسلام ص٩٩.
(٣٣٥) الوحدة الإسلامية ١٣٧.

العثمانية منذ عهد قريب، بأن بعض علماء الشام يحملون تلاميذهم على ترك التقليد، والعمل بالدليل، فشددت عليهم النكير حتى سكتوا عن الجهر.[٣٣٦]

ويقول الدكتور أحمد أمين: وقد أُصيب المسلمون بحكمهم على أنفسهم بالعجز وقولهم بإقفال باب الاجتهاد، لأنّ معناه أنّه لم يبق في الناس من تتوفر فيه شروط المجتهد، ولا يرجى أن يكون ذلك في المستقبل، وإنّما قال هذا القول بعض المقلدين لضعف ثقتهم بأنفسهم وسوء ظنّهم بالناس، وزعمهم عكس ما يقول أصحاب النشوء والارتقاء من دعواهم أن العقل دائماً في تدن وانحطاط، وغلوهم في تعظيم السابقين... [٣٣٧].

وقد تقدّم في الجزء الأوّل[٣٣٨] بعض ما يتعلق بمسألة الاجتهاد والتقليد، وذكرنا هناك آراء كلٍّ من الفريقين من العلماء المعاصرين وغيرهم.

التلفيق

وهو الأخذ برأي إمام في مسألة، والعدول عن رأيه إلى رأي غيره في مسألة أُخرى. وقد وقع الخلاف في جوازه ومنعه.

وقال الشاطبي: إنّه ليس للمقلّد أن يتخيّر في الخلاف، كما إذا اختلف المجتهدون على قولين، فوردت كذلك على المقلّد، فقد يعدّ بعض الناس القولين بالنسبة إليه مخيّراً فيهما، كما يخيّر في خصال الكفارة، فيتبع هواه وما يوافق غرضه إلى أن يقول : وقد أدّى إغفال هذا الأصل إلى أن صار كثير من مقلدة الفقهاء يفتي قريبه أو صديقه بما لا يفتي به غيره من الأقوال، اتباعاً لغرضه وشهوته، أو لغرض ذلك القريب وذلك الصديق. ثم أورد قصصاً عن القضاة والمفتين الذين طلبوا الرخص في الفتوى، نزولاً لرغبة السلطان أو الأصدقاء أو الأقارب، كقصّة قاضي قرطبة الذي قضى بما يرضي المخلوقين، وقصّة يحيى بن لبانة عندما عزل عن القضاء لسقوط عدالته، ولكنّه عاد الى المنصّب عندما أفتى الخليفة بما يرضيه.[٣٣٩]

وأجاز ذلك آخرون. وقد نسبوا التخير في القولين، وتتبع الرخص لأكثر أصحاب الشافعي. وقد منع الحنفية ذلك، ولكنّه واقع عندهم في أكثر الفتاوى. واستدل

---

(٣٣٦) الوحدة الإسلامية ص٤٥.
(٣٣٧) يوم الإسلام ص١٨٩.
(٣٣٨) الإمام الصادق(عليه السلام) والمذاهب الأربعة الجزء الأوّل ص٢٥٣ ـ ٢٥٨ .
(٣٣٩) الموافقات ج٤ ص١٣٧ ـ ١٤١.

المجوزون بما فعله أبو يوسف من التلفيق، وذلك أنّه لمّا صلّى بالناس الجمعة فأخبر بوجود فأرة في ماء الحمام الذي كان قد اغتسل منه للجمعة، فقال: نأخذ بقول إخواننا من أهل المدينة: «إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثاً».[٣٤٠]

وكان أبو يوسف ومحمد بن الحسن - وهما عماد المذهب الحنفي - يكبّران في العيدين تكبير ابن عبّاس، لأنّ هارون الرشيد كان يحبّ تكبير جدّه[٣٤١].

قال الأستاذ السيد محمد رشيد رضا في تعليقته على قول الشاطبي في الاعتصام في الوجه الثامن من الوجوه التي جعلها لمعرفة الانحراف عن السُنة والميل للبدعة : «ومن فروع هذه البدعة أنّ بعضهم يستحل أن يجعل المرجّح لأحد القولين في الفتوى ما يعطيه المستفتون من الدارهم، فإذا جاء مستفتيان في مسألة واحدة فيها خلاف يطلب أحدهما الفتوى بالجواز أو الحل، والآخر يطلب الفتوى بالمنع أو الحرمة، يفتي من كان منهما أكثر بذلاً للمفتي، فهو تارة يفتي بالحلّ وتارة يفتي بالحرمة، والقاعدة في ذلك ما صرّح به بعض الفقهاء في بعض الكتب التي تدرّس في الأزهر: «نحن مع الدراهم قلةً وكثرةً» فإذا كان القولان المتناقضان صحيحين في المذهب; جاز أن يكون السحت هو المرجّح في الفتوى، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم أ هـ [٣٤٢].

وقال الشيخ محمد عبدالله درّاز شارح الموافقات: بل أخرجوا الأمر عن كونه قانوناً شرعيّاً وعدّوه متجراً، حتى كتب بعض المؤلّفين في الشافعية ما نصّه: « نحن مع الدراهم كثرةً وقلةً» .[٣٤٣]

نسبة المذهب إلى أبي حنيفة

وقبل أن نترك الكلام حول الاجتهاد والتقليد لا بدّ لنا من الإشارة لأمور:

إنّ المذهب الحنفي لم يكن ينتسب لأبي حنيفة لأنّه مرجع جميع أحكامه ومصدر فقهه، ولكن تلك النسبة اصطلاحية. فإنّا نجد أنّ المذهب قد تكوّن من مجموعة أقوال وآراء لأبي حنيفة ولأصحابه من بعده،

---

(٣٤٠) القول السديد ص٢٤ .
(٣٤١) حجة الله البالغة ج١ ص١٥٨.
(٣٤٢) كتاب الاعتصام ج٣ ص٢٦٨.
(٣٤٣) الموافقات ج٤ ص١٣٥.

وأنّ أصول المذهب مشتملة على أقوال أبي يوسف[٣٤٤]، وأبي حنيفة، ومحمد بن الحسن .

وكان أبو يوسف ومحمد بن الحسن يجتهد كلّ منهما، وربّما يتفق مع قول أبي حنيفة أو يخالفه، كما أنّ أبا يوسف ومحمد بن الحسن كانا يختلفان في كثير من المسائل، على أنّا نقطع بأنّ كثيراً من الحوادث والوقائع لم يكن لأبي حنيفة فيها رأي، ولكن استنبطها المجتهدون المتأخرون عنه، بل لم تكن فيها رواية عن أبي يوسف وغيره من الطبقة الأولى من مجتهدي المذهب، فنسب تلك المسائل التي استخرجها المتأخرون إلى المذهب باعتبار أنّ هؤلاء مجتهدون في المذهب فحسب، وإن كانت لهم ملكة الاستنباط والاستدلال والقوّة على الاجتهاد.

ومن مجموع تلك الأقوال التي صدرت عن أبي حنيفة وأصحابه، وما خرّجه المتأخرون تكوّن المذهب الحنفي، فأصبح المجموع ينسب لأبي حنيفة.

والظاهر أنّ منعهم اجتهاد أيّ أحد، والالتزام بقول إمام المذهب، لا يعود لأبي حنيفة وحده، وإنّما هو لأبي حنيفة وأصحابه معاً.

طريق الأصول للمذاهب

إنّ أصول الفقه للمذاهب قد اتفّقت طريقتهم في الأصول في الجملة، وإنّ أصولهم لم تكن كأصول المذهب الشافعي، فهو يعدّ في الواقع أصلاً لأصولهم وإن خالفوه في كثير منها.

فالحنفية قد اتفقت طريقة استنباطهم في الجملة مع أصول الاستنباط عند الشافعي، وكذلك المالكية اتّحدت طريقتهم مع أكثر ما جاء في رسالة الشافعي، والخلاف بينهم وبينه أكثر ممّا بيّنه وبين الحنفية، وقد تجاوز الخلاف التفصيلات الى بعض الأصول العامة، فعمل أهل المدينة حجة عندهم. وقد شدّد الشافعي عليه في ردّه في مواضع كثيرة من كتاب الأم.

والحنابلة قد أخذوا بأصول الشافعي، ولكنّهم لم يتصوروا إجماعاً غير إجماع الصحابة، وفي التحقيق أنّهم وإن خالفوا الشافعي في ظاهر الأصل فإنّهم لم يتعدوا عن روح الرأي عند الشافعي، لأنّ الشافعي وإن اطلق حجّية الإجماع فلم يفرضها في

(٣٤٤) بحثنا في الجزء السابع في سيرة أبي يوسف وافتائه بحسب رغبة المستفتي.

عصر ولا في أمر، فالفرق في الإجماع بين الشافعي وأحمد ليس كبيراً، وإن كان في ظاهر القول لا يبدو صغيراً.

ومن هذا نرى المذاهب الأربعة تتلاقى أصولهم وتتقارب ينابيع استنباطهم، ولا تتباعد وإن جاءت الفروع مختلفة اختلافاً كبيراً في بعض الأحيان.[٣٤٥]

الشيعة والاجتهاد

كان من المناسب ذكر شروط الاجتهاد عند الشيعة في هذا البحث، ولكن رأينا تأخير ذلك لمحلّه، عند ذكرنا لنهضة الشيعة العلميّة، وأنّهم لم يخضعوا لنظام السلطة في غلق باب الاجتهاد، إذ لم يكن تعليمهم يدخل تحت نظام الدولة، ولم تخضع مدارسهم لذلك المنهج الذي سارت عليه أكثر المدارس الإسلامية، بل ساروا على منهج أهل البيت(عليهم السلام)في عدم مؤازرة الدولة، وباب الاجتهاد عندهم لم يغلق، ولا زال مفتوحاً، وهذا ممّا يفاخر به الشيعة سائر جماعات المسلمين اليوم.[٣٤٦]

ومن الخطأ القول بأنّ الشيعة تقدّم أقوال الأئمة على نصّ الكتاب وحديث الرسول (صلى الله عليه وآله)، كيف وأنّ أئمة أهل البيت(عليهم السلام)هم حملة علم الكتاب وسنة رسوله، فهم المبلّغون لهما، وهم أصدق الناس حديثاً وأتقاهم وأشدّهم خوفاً من الله، وأزهدهم في الحياة الدنيا.

وإنّ الغلوّ الذي يدّعونه على الشيعة في أهل البيت(عليهم السلام)، إنّما هو دون الغلوّ المدَّعى لأبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، من إعطاء أقوالهم وآرائهم منزلة تهجر النصوص القرآنية والأحاديث النبوية في جانبها، وسيتضّح ذلك في بحث الفقه إن شاء الله.

---

(٣٤٥) الشافعي لأبي زهرة ص٣٣٠.

(٣٤٦) الشافعي لأبي زهرة ص٣٣٤.

الخلاصة

إنّ تفرّق المسلمين واختلافهم في المذاهب، وتعصّب كلّ لمذهبه والانتصار له قد ملأ جوّ العالم الاسلامي بفتن يتّبع بعضها بعضاً، وكان التعصّب والتحزّب وراء أن يشهر المسلمون سيوفهم بعضهم على بعض، والسبب الذي حلّل دماءهم وأموالهم وأعراضهم، وحرّف الكتاب والسُنة ثم صيرهما كالعدم بسدّ باب الاجتهاد.

ثم ترتّب على هذا الافتراق تقويم كلّ لعمود الشقاق، وصار كلّ منهم يعتزّ بمن مال إليه من الملوك على خصمه، وعظمت المجادلة واشتدّت المناضلة. وأسباب ذلك ترجع إلى التزلّف للأمراء والخلفاء، والتزاحم على منصب القضاء، كما ذكر ذلك الغزالي وغيره، وقد شدّد النكير على من ينتقل من مذهب لآخر .

وحدث من وراء ذلك فتن ومشاغبات بين المذاهب، كما حدث للسمعاني [٣٤٧] عندما انتقل من مذهب النعمان الى مذهب الشافعي، فقامت الحرب على ساق واضطرمت بين الفريقين نيران فتنة كادت تملأ ما بين خراسان والعراق، واضطرب أهل مرو لذلك اضطراباً، وذلك في سنة (٤٦٨ هـ) وأدّى الأمر الى غلق باب الجامع، ورفعوا الأمر للسلطان فنفاه من مرو، ولم يعد إليها إلا بعد مدّة[٣٤٨]. وكثير أمثال السمعاني قد واجهوا مصائب عند تحوّلهم من مذهب إلى مذهب.

وأدّى الخلاف بين المذاهب الى رمي بعضهم بعضاً بالكفر، كما صرّح القشيري في كلامه للوزير عندما أراد حلّ مشكلة الخلاف بين الحنبلية والشافعية. وكان القشيري زعيم الشافعية، فقال للوزير: أيّ صلح يكون بيننا؟ إنّما يكون الصلح بين مختصمين على ولاية أو دين أو تنازع في ملك. فأمّا هؤلاء فإنّهم يزعمون أنّا كفّار، ونحن نزعم أن من لا يعتقد ما نعتقده كافر، فأيّ صلح يكون بيننا؟.[٣٤٩]

وذهب بعضهم الى لزوم تعزير من انتقل من مذهب لمذهب، وعدم قبول شهادته كما اشتهر بين الحنفية: من أنّ الحنفي إذا انتقل إلى مذهب الشافعي يعزّر، وإذا كان بالعكس يخلع، وقيل: لا تقبل شهادته، [٣٥٠] ومنعوا اقتداء بعض أهل المذاهب

---

(٣٤٧) هو منصور بن أحمد التميمي أبو المظفر السمعاني المتوفى سنة (٤٨٩ هـ) بمرو كان حنفي المذهب فنشر المذهب الشافعي مدعياً : إنّ الله أمره بذلك في الرؤيا; إذ رأى ربّ العزّة المقام فقال له: عد الينا، فأوّل ذلك بأنه أراد مذهب الشافعي.

(٣٤٨) طبقات الشافعية ج٤ ص٢٣ ـ ٢٥ .

(٣٤٩) ذيل طبقات الحنابلة لابن رجب ج١ ص٢٢.

(٣٥٠) ايقاظ همم ذوي الابصار : ٧٦ .

بالبعض الآخر، بل تجد الحنفي في كثير من البلاد لا يصلّي خلف الشافعي. وكسر بعضهم سبابة مصلّ لرفعه إياها في التشهد; لأنّ ذلك محرّم عندهم، كما ذهب إليه الكيداني وغيره من الحنفية، واختلفوا في تزويج الحنفية بالشافعي، لقول بعضهم: لا يصح ذلك لأنّها تشكّ في إيمانها، يعني أنَّ الشافعية وغيرهم من الأشعرية يجوّزون أن يقول المسلم: أنا مؤمن إن شاء الله. وقال آخرون: يصحّ نكاحها - أي الشافعية - قياساً على الذمّية.(٣٥١) الى غير ذلك من الأمور البعيدة عن روح الإسلام ولا يقرّها أولئك الأئمة ولا يرضون بها.

وبهذا الاختلاف وقع من الفتن بين المختلفين في الفروع وفي الأصول ما سوّد وجه التاريخ، وكدّر صفو الأخوة، وذهب بجهود المصلحين أدراج الرياح، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العليّ العظيم.

وفي الحقيقة إنَّ مبعث ذلك إنّما هو حبّ الرياسة والأثرة، وشغب المتدخلين في صفوف المسلمين لإيقاظ نار البغضاء والحقد، ولو رجعنا إلى الواقع; نجد ذلك الشذوذ والتطرّف الذي ارتكبه المتعصّبون بعيداً كلّ البعد عن الدين.

ولم يكن الأمر ليصل الى هذا الحد من التطاحن والتفرق لولا الأخذ بأساليب الحكام والميل الى سبلهم في حماية أشخاصهم ومصالح ملكهم، وقد كان غلق باب الاجتهاد من تصرّفات الحكام بعد أن تمكّن غيرهم من توجيه الأحداث كما يشاؤون والتدخّل في معتقدات الناس وأفكارهم وحتى يأمنوا جانب العلماء خشية مضيهم على ما ركّبه الله فيهم من آلة العقل وأداة التفكّر فيقولوا أو يفتوا بما يضرّ الجور ويقف بوجه الظلم فأغلقوا الباب الذي كان يمكن أن يتسلل منه هذا الخطر وبذلك دخلت الأمة في دور من الجمود والحجر - وصفنا جانباً منه في الأجزاء السابقة وسنأتي على صور منه فيما يأتي من أجزاء - ولم يخضع الشيعة لمثل هذه السياسة التعسّفية، وإنّما بقي للعقل مكانته فكيف تهمل الوسيلة من وسائل التدبّر والحكمة التي - بضبطها بقواعد الاستخدام الشرعية المستمدّة من الكتاب والسنّة - تنتج أحكام ليس فيها شطط الرأي ولا ميل الهوى ومن نتائج البعد عن العقل ومجافاة الصواب انقياد المسلم لما ارتأها الحكّام لمصلحتهم واتفقت الأدلّة على منافاته لروح الأخوة الإسلامية.

---

(٣٥١) الوحدة الإسلامية ص١٤٥ - ١٤٦.

وبعد أن مرّت تلك الأدوار وما فيها - وفي ذمّة التأريخ ذلك - فنحن اليوم أحوج ما نكون إلى الوحدة والتفاهم، لرفع تلك الأشواك التي غرست في طريق التفاهم المسلم مع أخيه، لأنّا في مشاكل أمام خصوم الإسلام لا يحلّها إلا الاتحاد والرجوع إلى الأمر الأول، واتّباع أوامر الرسول (صلى الله عليه وآله) وتعاليم القرآن، وأخذ العلم من أهله، وأن نعرف الحقّ حقّاً فنتّبعه والباطل باطلاً فنتجنّبه، لنعيش عيش سعادة وهناء تحت ظلال الدين الحنيف.

وإلى الله نبتهل أن يجعل كلمة الإسلام هي العليا، وأن يجمع شمل المسلمين وينصرهم على خصومهم الذين يكيدون لهم ويسعون في تفريق كلمتهم، وما النصر إلاّ من عند الله.

(وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَتَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا)[٣٥٢] .

(٣٥٢) آل عمران: ١٠٣.

الإمام الشافعي

الإمام الشافعي

تمهيد

مرّ بنا من قبل أنّ البحث عن حياة أئمّة المذاهب الأربعة معقد يحتاج إلى مزيد من العناية; لكثرة الحكايات والقصص التي لا تتّسق مع الواقع ولا أثر لها في تمييز الطابع الذي طبع عليه، لذلك نرى من الحقّ علينا أن نتناول دراسة حياة كلّ واحد منهم من طرقها المختلفة، لكي يتسنّى لنا الوقوف على الواقع بعد التمحيص والتثبّت في جميع ما ورد بمختلف المصادر، من أمور متباينة وأقوال متناقضة، كان مبعثها اندفاع بعض معتنقي المذهب وراء العاطفة، والخروج عن حدود الواقع، إذ العاطفة تغلب على العقل فتعطّله، وتطغى على الواقع فتخفيه، وتجعل الأمور الوهمية كحقائق لا تقبل النقاش والجدل، وبذلك تضاعفت تلك الصعوبات التي تقف أمام الباحث، وها نحن أمام البحث عن حياة الإمام الشافعي، وقد وقفنا على كثير من الزوائد فأهملنا ذكرها، وإنّ من الغريب أن يجمد بعض أساتذة العصر الحاضر على ما وقفوا عليه في دراسة حياة الإمام الشافعي بدون تمحيص، وكان الواجب يقضي عليهم أن يتتبعوا الحقائق التاريخية ولا يقتنعوا بكلّ ما ورد، واليك مثلاً من ذلك :

الأستاذ علي فكري الأمين الأول لدار الكتب المصرية يحدّثنا أنّ الشافعي سافر إلى العراق في حياة الإمام مالك ودخل الكوفة واجتمع بأبي يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني، وجرت بينهم مناظرات ومسائل، ونزل في الكوفة ضيفاً على محمد بن الحسن ونسخ كتبه. ثم ذكر رحلته إلى بلاد فارس وما حولها من بلاد العجم، ثم سافر الى بلاد ربيعة ومضر وشمال العراق حتى وصل الى جنوب بلاد الروم - وهي الأناضول الآن - وعرّج على حرّان وأقام فيها زمناً، ثم سافر منها إلى فلسطين وأقام في الرملة في جنوب بيت المقدس. وقد استغرقت هذه السياحة حولين كاملين من سنة (١٧٢ هـ) إلى سنة (١٧٤ هـ) . ثم رجع إلى المدينة لرؤية مالك. إلى آخر ما ذكره.[٣٥٣]

وجميع ما ذكره لا أصل له، والأستاذ عوّل على مخيّلته أو على كتب لا يعتمد عليها. وكان بوسعه - وهو الأمين الأول لمكتبة عامة - أن يراجع ويبحث وينقّب عن مصادر يستمدّ منها ما يكتب.

---

(٣٥٣) أحسن القصص ج٤ ص٧٣ - ٨٧.

كان بوسع الأستاذ أن يقف على الحقائق التاريخية، وأن يعلم أنّ رحلة الشافعي كانت لبغداد لا للكوفة، وذلك سنة (١٨٤ هـ)، وهي الرحلة الأولى، وأنّ وفاة أبي يوسف كانت سنة (١٨٢ أو ١٨٣ هـ)، أي قبل دخول الشافعي لبغداد بأكثر من سنة.

وكان بوسع الأستاذ أن يعرف وفاة الإمام مالك وهي سنة (١٧٩ هـ)، وأنّ رحلة الشافعي سنة (١٨٤ هـ)، ليتّضح له أنّ رحلة الشافعي كانت بعد وفاة مالك بخمس سنوات.

ولعلّه استند في بعض ما نقله إلى الرحلة التي وضعها عبد الله بن محمد البلوي، وهي مكذوبة لا أصل لها، كما نصّ على ذلك حفّاظ الحديث، كأبي نعيم، والفخر الرازي، وابن حجر وابن القيم وغيرهم. وكثيراً من الأمور التي تخالف الواقع أوردوها على علاّتها في ترجمة الشافعي بدون تثبّت وترو.

وعلى أيّ حال فإنّ من الحقّ أن نتناول دراسة حياة الإمام الشافعي من مختلف المصادر، ولنا الحقّ في التنبيه إلى بعض ما يخالف الواقع خدمة للعلم وطلباً للحقّ، والله هو المسدّد للصواب.

نسبه ونشأته

أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب ابن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف.

ولد سنة (١٥٠ هـ) نهار الجمعة آخر يوم من رجب، وقيل في اليوم الذي مات فيه أبو حنيفة، وقيل غير ذلك على اختلاف الأقوال.

واختلفوا في محل ولادته فقيل بغزة، أو عسقلان، أو اليمن وهنا قول شاذ: أنّه ولد بمكة، وقد اجهد أصحاب المناقب أنفسهم بالجمع بين هذه الروايات ولا حاجة لذكرها هنا.

أما وفاته فكانت سنة (٢٠٤ هـ) بمصر، وحمل على الأعناق من فسطاط حتى دفن في مقبرة بني زهرة، وتعرف بتربة ابن عبد الحكم وفيه يقول الشاعر :

أكرم به رجلاً ما مثله رجلٌ *** مشارك لرسول الله في نسبه

أضحى بمصر دفيناً في مقطمها *** نعم المقطم والمدفون في تربه

والمطلب الذي ينتهي اليه الشافعي هو أحد أولاد عبد مناف الأربعة، وهم: المطلب وهاشم وعبد شمس جد الأمويين ونوفل. والمطلب هو الذي ربّى عبد المطلب ابن أخيه هاشم جد النبي(صلى الله عليه وآله).

فالشافعي بهذا السياق قرشيّ النسب، يلتقي مع النبي(صلى الله عليه وآله) في عبد مناف. هذا ما عليه الأكثر.

وذهب بعضهم أنّ الشافعي لم يكن قرشيّاً بل كان قرشيّاً بالولاء. فهو مولى لهم وليس منهم، لأن شافعاً جدّه كان مولىً لأبي لهب، فطلب من عمر أن يجعله من موالي قريش فامتنع، فطلب من عثمان ذلك ففعل، فعلى هذا التقدير يكون الشافعي من موالي قريش، كما ذكر ذلك بعض المالكية والحنفية[٣٥٤].

وأما أمّه فهي من الأزد وكنيتها أم حبيبة كما ذكر ذلك الساجي، والأبري والبيهقي والخطيب والاردستاني وغيرهم.

وقيل: إنّها أسدية، مستدلّين على ذلك بما روي عن الشافعي: أنّه لما قدم مصر سأله بعضهم أن ينزل عنده فأبى وقال: أنزل على أخوالي الأسديين فنزل عليهم.[٣٥٥]

وقيل : إنّها فاطمة بنت عبد الله، أو عبيد بن الحسين بن الحسن بن علي بن أبي طالب، قال الرازي: وهذا القول شاذّ رواه الحاكم، وضعّفه البيهقي، وذهب المقري الى نفيه، ولكنّ السبكي ذهب الى تأييده وليس له شاهد على ذلك.[٣٥٦]

وقيل أيضاً: إنّها فاطمة بنت عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أو أنها بنت عبدالله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط.[٣٥٧]

وعلى أيّ حال أنّ الادعاء بكرامة قرشية علويّة مخالف لما عليه الإجماع وعلماء النسب، ولكنّ ذلك تعصب محض وادعاء يخالف ما جاء عن الشافعي في عدّة روايات: أنّ أمّه أزدية لا قرشية وانعقد الإجماع على ذلك.

أمّا أبوه إدريس فلم يفصح التاريخ عن شيء من حياته وسيرته ووفاته، ولم يحتفظ إلا بالاسم فقط; فليس له ترجمة في جميع الكتب التي ذكرت الشافعي، ولا في غيرها من كتب الحديث والرجال والأدب.

وبذلك حرمنا معرفة كثير من الأمور التي نودّ أن نعرفها عن حياة إدريس والد هذا الإمام العظيم. وقد ذكر بعضهم أشياء مرتجلة لا صحّة لها كقول هداية الله الحسيني :إنّ والد الشافعي سلّمه للتفقه إلى مسلم بن خالد الزنجي مفتي مكة، وهذا غير صحيح بالإجماع، لأنّ جميع الروايات متضافرة على أنّ الشافعي نشأ يتيماً في

---

(٣٥٤) مناقب الشافعي للفخر الرازي ص٣ - ٥ وهامش الانتقاء لابن عبد البر ص٦٦ والشافعي لمحمد أبوزهرةص١٥.

(٣٥٥) طبقات الشافعية ج ١ ص١٠٠.

(٣٥٦) تهذيب التهذيب ج٩ ص٢٣ / ٥٩٥٠.

(٣٥٧) مناقب الرازي ص٦ وطبقات السبكي ج١ ص١٠٠ - ٢٤٩ وتوالي التأسيس ص٤٦، ومشارق الأنوار للعدوي ص١٨١ وإسعاف الراغبين للصبّان وغيرها.

حجر أمه، وتولّت تربيته عندما خشيت عليه الضيعة فأرسلته الى مكة وهو ابن عشر سنين.

فالشافعي إذاً لم يَتَرَبَّ في ظلال أبيه ولم يتولّ ذلك إلا أمّه، ولا نعلم أنّه عرف أباه وحدّث عنه، كما لا نعلم هل ولد الشافعي في حياة أبيه أم أنّه مات أبوه وهو حمل في بطن أمه؟ وهل أنّ إدريس كان في مكة ورحل الى اليمن. وما هي أسباب رحلته؟ كلّ ذلك مجهول وفي ذمة التاريخ.

وجاء في مقدمة كتاب الأم: أنّ والد الشافعي كان رجلاً حجازياً فقيراً خرج مهاجراً من مكة الى الشام وأقام بـ «غزة» و«عسقلان» ببلاد فلسطين، ثم مات بعد ولادة الشافعي بقليل.

ولكن هذا القول لم يستند الى نصّ تاريخي، وأيّاً كان فالروايات مختلفة والأقوال متفرّقة في ولادته ومحلّها، وهجرته ووقتها وكذلك رحلاته المتعددة وتحصيله للعلم بأيّ زمن. فهل كان من صغر سنه أم بعد نشأته. وكذلك دخوله إلى مكة فقيل: إنّه لما بلغ من العمر سنتين وأصبح قرة عين والدته، فرأت أمّه أن تحمله الى مكة المكرمة، صوناً لنسبه من الضياع إذا بقي في غزة فهاجرت به، ونزلت بجوار الحرم بحيّ يقال له «شعب الخيف» ولمّا ترعرع أرسلته أمه الى الكتاب وحفظ القرآن وعمره سبع سنوات. وقيل: إنّ الشافعي ولد بغزة وحمل إلى عسقلان ودخل مكة وهو ابن عشر .[٣٥٨]

طلبه العلم في مكة

كان دخول الشافعي الى مكة وهو صغير السن، ولمّا ترعرع سلّمته أمّه إلى الكتّاب فحفظ القرآن الكريم، وتعلّم الكتابة، وكان حريصاً على استماع الحديث، وكان يكتب على الخزف مرة وعلى الجلود أخرى.

وخرج الى البادية فلازم هذيلاً، وحفظ الأشعار وكان يرحل برحيلهم وينزل بنزولهم، فرجع الى مكة ينشد الأشعار ويذكر الآداب والأخبار، وقد تأثر بالبداوة واكتسب من هذيل فصاحتهم، كما يحدّث عن نفسه .[٣٥٩]

ويظهر أنّ مقامه في البادية كان أكثر من عشر سنين، وفي إحدى الروايات أنّه أقام عشرين سنة[٣٦٠] وفي أخرى سبع عشرة سنة، كما حدّث هو عن نفسه[٣٦١].

---

(٣٥٨) تهذيب الكمال ج٢٤ ص٣٥٥ / ٥٠٤٩.

(٣٥٩) معجم الأدباء ج١٧ ص٢٨٤ ـ ٢٨٥ .

وفي هذه المدة لم تكن له شهرة علمية ولم يتجه لطلب الفكر ولم يعرف به.

قال النووي: كان الشافعي في ابتداء أمره يطلب الشعر وأيام العرب والأدب ثم أخذ في الفقه، ثم ذكر سبب ذلك.[٣٦٢]

وأفاد كثيراً من ملازمته أهل البادية، وظهر عليه ذلك بقدرته الشعرية وتمكّنه من اللغة والمعرفة بفنونها ممّا لا يخفى في بعض إجاباته وأقواله وما روي عنه من شعره.

وقد صرّح الشافعي بسبب اتّجاهه لطلب الفقه فيما يروى عنه أنّه قال بعد أن ذكر ابتداء تعلّمه للقرآن والكتابة في مكة: ثم إنّي خرجت عن مكة فلزمت هذيلاً في البادية أتعلّم كلامها، وآخذ طبعها، وكانت أفصح العرب، فبقيت فيهم سبع عشرة سنة، أرحل برحيلهم وأنزل بنزولهم، فلمّا رجعت إلى مكة جعلت أنشد الأشعار وأذكر الآداب والأخبار وأيام العرب، فمرّ بي رجل من الزبيريين من بني عمّي، فقال لي: يا أبا عبد الله، عزّ عليّ أن لا يكون مع هذه اللغة وهذه الفصاحة والذكاء فقه [٣٦٣]. فهو لهذا الحدّ وطول ذلك الزمن لم يعرف الفقه، وكان قول الزبيري سبباً لتوجيهه إلى طلب الفقه والحديث، فقصد لمجالسة مسلم بن خالد الزنجي مفتي مكة المتوفى سنة (١٨٠ هـ) وهو أوّل شيوخ الشافعي.

وروى النووي عن مصعب بن عبد الله الزبيري، قال: كان الشافعي في ابتداء أمره يطلب الشعر وأيام العرب، ثم أخذ في الفقه، وكان سبب ذلك: أنّه كان يسير يوماً وخلفه كاتب لأبي فتمثّل الشافعي ببيت شعر فقرعه الكاتب بسوطه ثم قال: مثلك يذهب بمروته؟ أين أنت من الفقه؟ فهزه ذلك فقصد مجالسة مسلم بن خالد الزنجي.[٣٦٤]

والذي نستظهره من مجموع الروايات، أنّ اتّجاه الشافعي لطلب العلم كان في العقد الثالث من عمره، وعلى رواية ابن كثير أنّ بقاءه في البادية عشرين سنة. فيكون طلبه للفقه في العقد الرابع، أي بعد تجاوزه الثلاثين من عمره، فتكون ملازمته لمسلم بن خالد الزنجي قصيرة جداً.

---

(٣٦٠) البداية والنهاية لابن كثير ج١٠ ص٢٥٢ .

(٣٦١) معجم الأدباء ج١٧ ص٢٨٤ ـ ٢٨٥.

(٣٦٢) تهذيب الأسماء واللغات ج١ ص٤٦.

(٣٦٣) معجم الأدباء ج١٧ ص٢٨٤ وتهذيب الأسماء ج١ ص٤٦ والحلية ج٩ ص٧٠.

(٣٦٤) تهذيب الأسماء واللغات ج١ ص٤٦ .

فما يُروى عن الحميدي، أنّه قال: سمعت خالداً الزنجي وقد مرّ على الشافعي وهو يفتي، وهو ابن خمس عشرة سنة، فقال: يا أبا عبد الله، إفت فقد آن لك أن تفتي، فإنّه لا أصل له; نظراً لما بين أيدينا من الأدلة التاريخية المصرّحة بأنّ الشافعي لم يعرف بالفقه إلا من بعد مدة طويلة، مع أنّ الحميدي لم يدرك مثل هذا التاريخ. قال الخطيب البغدادي بعد نقل هذه الحكاية: «وليس ذلك بمستقيم، لأنّ الحميدي كان يصغر عن إدراك الشافعي وله تلك السن».[٣٦٥]

ومن الغريب إرسال ذلك إرسال المسلّمات، وقد جعلوا هذا النقل من المؤيّدات لعلم الشافعي وعلوّ منزلته، لأنّه كان يفتي وهو ابن خمس عشرة سنة. وبعضهم يرجع إلى الوراء فيقول: إنّه كان يفتي وهو ابن عشر سنين، وكلّ ذلك غير صحيح; لأنّ المشهور عن الشافعي أنّه قدم مكة وهو ابن عشر سنين أو أكثر وتعلّم القرآن فيها، وانصرف إلى حفظ الأشعار، ولازم هذيلاً، وكان مقامه في البادية أكثر من عشر سنين، وقيل عشرين سنة، وقيل سبع عشرة سنة كما تقدّم بيانه.

ومهما يكن من أمر فإنّ الشافعي لم يعرف الفقه والحديث وهو في مكة، ولكنه اتّصل بعد ذلك بمالك بن أنس، ورحل إلى المدينة لتعلّم الفقه والحديث، وواصل دراسته فكانت له تلك الشهرة بعد مدة طويلة.

قال ابن حجر: انتهت رياسة الفقه في المدينة إلى مالك، ورحل الشافعي إليه ولازمه، وأخذ عنه، وانتهت رياسة الفقه إلى أبي حنيفة، فأخذ عن صاحبه محمد حملاً ليس فيها شيء إلاّ وقد سمعه عليه، فاجتمع له علم أهل الرأي وعلم أهل الحديث.

وكان محمد يواسيه بالبر ويتعاهده بالأعطيات بخمسين ديناراً فما فوقها بين حين وآخر، وبمحمد اكتمل بدر الشافعي، وبه تخرّج حتى أصبح له شأن في العلم...[٣٦٦]

طلبه العلم في المدينة

اتّجه الشافعي لطلب الفقه، وحضر على بعض علماء مكة كخالد الزنجي وسعيد بن سالم القداح، واشتهر مالك بن أنس في المدينة وشاع ذكره، فتاقت نفس الشافعي إلى الهجرة للمدينة طلباً للعلم والحضور عند مالك بن أنس، فأخذ وصية من والي مكة إلى والي المدينة يطلب منه إيصال الشافعي إلى مالك.

---

(٣٦٥) تاريخ بغداد ج٢ ص٦٤.
(٣٦٦) الانتقاء ص٦٩.

قال الشافعي: فأوصلت الكتاب إلى الوالي، فلما أن قرأه قال: يافتى، إنّ مشيي من جوف المدينة إلى جوف مكة حافياً راجلاً أهون عليَّ من المشي الى باب مالك بن أنس، فلست أرى الذلة حتى أقف على بابه، فقلت: أصلح الله الأمير إن رأى يوجه إليه ليحضر، قال: هيهات ليت إنّي إذا ركبت أنا ومن معي وأصابنا من تراب العقيق نلنا بعض حاجاتنا.

قال: فواعدته العصر وركبنا جميعاً فوالله لكان كما قال. فتقدّم رجل فقرع الباب، فخرجت إلينا جارية سوداء، فقال لها الأمير: قولي لمولاك إنّي بالباب، فدخلت فأبطأت ثم خرجت فقالت: إنّ مولاي يقرؤك السلام ويقول: إن كانت لك مسألة فارفعها في رقعة يخرج إليك الجواب، وإن كان للحديث فقد عرفت يوم المجلس فانصرف. فقال: قولي له إنّ معي كتاب والي مكة إليه في حاجة مهمة، فدخلت وخرجت وفي يدها كرسيّ فوضعته ثم إذا أنا بمالك قد خرج وعليه المهابة، فرفع إليه الوالي الكتاب.[٣٦٧]

وهنا يحدّثنا الشافعي عن انتقاد مالك له بحمله الكتاب من الوالي وتأثّره من ذلك، يقول الشافعي: إنّ مالكاً عندما قرأ الكتاب رمى به من يده، ثم قال: سبحان الله أو صار علم رسول الله يُؤخذ بالوسائل؟ فأجابه الشافعي معتذراً وأخبره بقصّته.

اتّصل الشافعي بمالك وأخذ عنه وقرأ الموطأ، ولا نعرف بالضبط متى كان قدوم الشافعي إلى المدينة وحضوره عند مالك وكم كانت سنّه يوم ذاك والأخبار مضطربة مشوّشة جداً لانكاد نلمس الواقع منها، فالحكايات الواردة عن الشافعي مختلفة، فمرّة أنّه اتّجه لمالك بعد عودته من البادية، وأُخرى بعد وفاة خالد الزنجي.

وعلى أيّ حال: فالمحصّل من مجموع الروايات أنّه قدم على مالك وقد تجاوز عمره الثلاثين سنة. وما يرويه ابن حجر في مناقب الشافعي أنّه حضر عند مالك وعمره ثلاث عشرة سنة هو خطأ بيّن ونقل بدون تثبّت، إذ لا خلاف بأنّ وروده على مالك كان بعد عودته من البادية، وقد مكث فيها مدة تزيد على خمس عشرة سنة .

ومن المحقّق أنّ ملازمته لمالك كانت أربع سنوات وتوفي مالك سنة (١٧٩هـ) فيكون عمر الشافعي (٢٩ سنة). وبقي الشافعي بعده في ضنك من العيش، وبسبب ذلك كانت رحلته إلى اليمن مع واليها وليس له ما يستعين به من المال فرهن داره وأخذ ثمنها.[٣٦٨]

---

(٣٦٧) معجم الأدباء ج١٧ ص٢٧٥ ومناقب الفخر الرازي ص١٠ .

(٣٦٨) مناقب الشافعي، للبيهقي ج١ ص١٠٥ - ١٠٦.

ولاية الإمام الشافعي

نشأ الشافعي يتيماً في حجر أمّه كما تقدّم، ولمّا اتصل بمالك اتّسعت حاله بواسطته، لأنّه كان يرعاه ويقوم بشؤونه، فلما توفي مالك سنة (١٧٩ هـ) اشتد الأمر عليه وضاقت حالته، فاتفق أنّ والي اليمن قدم المدينة فكلّمه بعض القرشيين في أن يصحبه. فأخذه ذلك الوالي معه واستعمله في أعمال كثيرة[٣٦٩]. فبقي في العمل خمس سنوات، وبهذه المدة كان متّجهاً للعمل والولاية، وخمد ذلك النشاط الذي في نفسه نحو الاتجاه لطلب العلم، لأنّه مشغول في تدبير شؤون السلطان ومعاملة الناس إلى سنة (١٨٤ هـ) وهي السنة التي قدم فيها لبغداد المرة الأولى بسبب المحنة واتهامه بالميل للعلويين. وأنّ مطرفاً كتب إلى الرشيد: إن أردت اليمن لا تفسد عليك فاخرج محمد بن إدريس فحمل الى بغداد، وقد جاء عن الشافعي: أنّه نقل من اليمن إلى ولاية نجران فأحسن السيرة هناك.[٣٧٠]

الإمام الشافعي في بغداد

قدم الشافعي العراق ثلاث مرات: الأولى سنة (١٨٤ هـ) حمل من اليمن إلى بغداد بسبب اتهامه بالميل للعلويين، والثانية سنة (١٩٥ هـ) بعد أن مات هرون الرشيد، والثالثة سنة (١٩٨ هـ).

أمّا الأولى: فكانت بسبب اتّهامه بالميل للعلويين، أو أنّ عامل اليمن تغيّر عليه وثقل مقامه هناك، لأنّ الشافعي كان يعارض ظلم ذلك الوالي وينبّه الناس على مؤاخذته. وأنّ الشافعي أحسن إدارة العمل ونال ثناء الناس ممّا أوجب تغير قلب الوالي عليه واتهامه بالميل للعلويين، وذلك أعظم جرم تعاقب عليه الدولة، وإن كان هذا الاتهام وتلك القضية أشبه شيء بالأساطير.

وعلى أيّ حال فقد حمل الشافعي إلى بغداد بتهمة المخالفة للدولة والانضمام لجانب العلويين. وتعرّض بتلك التهمة إلى خطر شديد، ولكنّه دافع عن نفسه، وتوسّط له الفضل بن الربيع وتشفّع له، فنجا بعد أن قتل من كان معه. وسيأتي البحث عن أسباب التشيّع وعن ميله للعلويين.

---

(٣٦٩) مناقب الفخر الرازي ص ١٠.

(٣٧٠) مناقب الشافعي، للبيهقي ج١ ص١٠٦ - ١٠٧.

وإذا أردنا البحث عن محنة الشافعي وقدومه لبغداد، وما قابل به الرشيد عند اجتماعه، ومناظرته مع محمد بن الحسن الشيباني، فالأمر يستدعي إطالة البحث واتساع شقّة المناقشة، للمناقضات في تلك الرحلة المروية عن الشافعي. ففي بعضها: أنّه ناظر أبا يوسف [٣٧١]، وهذا غير صحيح لأنّ وفاة أبي يوسف كانت سنة (١٨٢ ـ ١٨٣ هـ) أي قبل ورود الشافعي بسنتين أو بأكثر من سنة.

وفي بعضها: أنّ محمد بن الحسن انتصر للشافعي، وأخرى أنّه حرّض الرشيد على قتله، ووصفه بأنه يريد الخروج على الدولة، وأنّ الرشيد سأل أبا يوسف عن صدق هذه الدعوة فأيّدها.

وهناك اختلاف في حمله الى العراق، هل كان من اليمن أم من مكة؟ فابن عبد البر، يروي بسند عن المزني عن الشافعي أنّه قال: رفع إلى هارون الرشيد أنّ بمكة قوماً من قريش استدعوا رجلاً علوياً كان باليمن، فاجتمع إليه من قريش فتية جماعة، يريدون أن يبايعوه ويقوموا به، فأمر الرشيد يحيى بن خالد بن برمك أن يكتب إلى عامله بمكة أن يبعث إليه ثلاثمائة رجل كلّهم من قريش، مغلولة أيديهم الى أعناقهم. قال الشافعي: فأشخصت فيمن أشخص مغلولاً، فلما وردنا العراق أتي بنا إلى دار يحيى بن خالد وقال لنا: يامعشر قريش، قد رفع عليكم أمر كبير وعسى الله أن ينجيكم من البلاء إن كنتم قد بغي عليكم، والذي أراه أن تقدموا من أنفسكم رجلاً يخاطب الرشيد عنكم وعن نفسه، فقالوا كلّهم: هذا الشافعي يخاطبه. ثم حكى عن نفسه دفاعه عنها وعنهم، فكانت النتيجة أن عفى الرشيد عن الجميع وأمر لهم بجائزة.[٣٧٢]

وبصورة أخرى: إنّه حمل من الحجاز مع تسعة من العلويين فضربت أعناقهم، ونجا الشافعي وأكرمه الرشيد.

وفي الحلية : أنّ السّبب في حمله من اليمن : أنّ خارجيّاً خرج على هارون الرشيد، فأرسل الرشيد إليه جيشاً فقبض عليه وحمل الى العراق ومعه الشافعي، وأحضروا جميعاً وأمر بقتلهم، فعرض الشافعي عليه قصّته مع الخارجي، وبيّن له نسبه، وذكر كلاماً استحسنه الرشيد وطلب اعادته، وقال له: كثّر الله في أهل بيتي مثلك [٣٧٣]. وعفى عنه، إلى آخر الاختلاف في الصور، والزمان والأسباب .

---

(٣٧١) الحلية ج٩ ص٨٥.
(٣٧٢) الانتقاء ص٩٦.
(٣٧٣) الحلية ج٩ ص٨١.

ومهما يكن من أمر فإنّ الغرض من اتساع هذا الحادث، وإيراده بصور مختلفة هو التعصّب للشافعي، ووصفه بعلوّ المنزلة واتّساع العلم وقوة الحجة، ونبوغه على القرشيين، كما رأيت في الصورة المتقدمة بأن أولئك القرشيين الذين حملوا معه وكانوا ثلاثمائة رجل كأنّ الله سلب منهم كلّ موهبة الدفاع عن النفس، وقوّة الحجة، وطلاقة اللسان، وبلاغة البيان وهم أهله، فليس لهم قابلية على الدفاع، ولم يملكوا من الشجاعة والجرأة قليلاً أو كثيراً فيها، وانفرد الشافعي بالجرأة وقوّة البيان وثبات القلب، وهو شاب قد تجاوز الثلاثين من عمره، وحاشى قريشاً أن يمثّلوا موقفاً كهذا الموقف، ولكن دائرة الاختراع واسعة، والتقوّلات لا حدّ لها. وقد اعترف الشافعي نفسه بقصوره عن إدارك منزلة الطالبيين وإحجامه عن الكلام بحضورهم كما يُروى: أنّه حضر الشافعي مجلساً فيه بعض الطالبيين فقال: لا أتكلم في مجلس أجدهم أحقّ بالكلام مني، ولهم الرياسة والفضل.[٣٧٤]

وقد وضع عبد الله بن محمد البلوي صورة لهذه الرحلة تتضمن أشياء كثيرة لا أصل لها [٣٧٥] وهي طويلة، ذكر فيها دخول الشافعي على الرشيد مقيداً بالحديد، وسؤال الرشيد له بمختلف العلوم والفنون، وجواب الشافعي له، ووعظه، وبكاء الرشيد ومن حضر، إلى آخر ما فيها من الأمور المكذوبة التي لا تمت بالواقع وقد نص ابن حجر [٣٧٦] وابن قيم الجوزية [٣٧٧] وغيرهما على وضعها.

وخلاصة القول: انّ مجموع الروايات في محنة الشافعي وحمله لبغداد مضطربة كلّ الاضطراب، وتشتمل على أشياء لا صحة لها، كما تشتمل على ما لا يصحّ صدوره من الشافعي كما نقلوا عنه في جوابه للرشيد - عند الدفاع عن نفسه من تهمة المبايعة للعلويين - أنّه قال للرشيد: أأدع من يقول أنّي ابن عمّه (يعني الرشيد) وأصير إلى من يقول إنّي عبده (يعني العلويين)؟...

إنّ هذا من التجني على الحقائق والتهجّم على الواقع بأن ينسب العلويين إلى اتخاذ المسلمين عبيداً، وأنّهم يسيرون تحت طغيان الأنانية التي لا توضّح لهم إلاّ طريق الاستعباد للناس، والاستعلاء عليهم والاحتقار لهم، وحاشاهم من ذلك وهم أبعد ما يكون عن اتّصافهم بما يخالفون ما طبعوا عليه، من اتباع نظم الإسلام، وأنّ الناس عندهم سواسية لا يتفاضلون إلاّ بالأعمال الصالحة، وهم لم يكونوا كغيرهم ممن ولي

---

(٣٧٤) الفهرست لابن النديم ص٢٩٥.
(٣٧٥) الحلية ج٩ ص٨٥ - ٩١ ومناقب الفخر الرازي ص٢٣ - ٢٧.
(٣٧٦) مناقب الشافعي لابن حجر ص٧١.
(٣٧٧) مفتاح السعادة ص٥٦٥.

أمر المسلمين الذين لا يشعرون إلاّ بوجودهم الخاص، ولا يفكرون إلاّ نحو مايعود عليهم بالنجاح، ولا يرون إلاّ مصلحة أنفسهم، ولا يقيمون لمصالح الأُمة وزناً.

كلّ هذا لم يكن له أثر عند العلويين، وحاشاهم من إرتكاب ما يخالف نظام الإسلام وأحكامه. وصدور مثل هذا القول من الشافعي، تقوّل عليه بالباطل، ولا يصحّ ذلك عنه. وقد صح عنه أنّه بايع ليحيى بن عبد الله بن الحسن المثنى.

قال ابن العماد: قام يحيى بن عبدالله بن الحسن المثنى وبثّ دعاته في الأرض، وبايعه كثير من أهل الحرمين واليمن ومصر والعراقين، وبايعه من العلماء محمد بن إدريس الشافعي، وسليمان بن حرير.(٣٧٨)

وفي هذه المحنة التي امتحن بها الشافعي كان له أُسوة بمن قبله من أئمة المذاهب، فأبو حنيفة قتل مسموماً بدعوى أنه لم يقبل القضاء، ومالك بن أنس ضرب بالسياط لفتوى تخالف رأي السلطان، وليس ببعيد أنّ مخترع هذه المحنة أراد مساواة الشافعي بمن قبله وبمن بعده، فإنّ أحمد بن حنبل امتحن في مسألة خلق القرآن، وكذلك قالوا إنّ الشافعي امتحن باتهامه بالميل للعلويين وذكروها بصورة موسعة وألفاظ مختلفة. وهي من تصرّف كتاب المناقب والمنتصرين للمذهب.

الإمام الشافعي في مصر

قدم الشافعي إلى مصر سنة (١٩٨ هـ)، ونزل بالفسطاط ضيفاً كريماً على محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، فأكرم مثواه وآزره، وكانت لمحمد بن عبد الله مكانة في مصر ورياسة علمية، وكان أهل مصر لا يعدلون به أحداً، وتأكّدت بينه وبين الشافعي مودة وإخاء، وقام في معاونة الشافعي ومؤازرته ونشر علمه. وكان قدوم الشافعي إلى مصر في صحبة الوالي من قبل المأمون، وهو العباس بن موسى بن العباس، فلقى هناك إقبالاً من المالكية، لأنّه من أشهر تلامذة مالك بن أنس، وكان يقول: هذا قول أُستاذنا (يعني مالكاً).

ولما استقل بآرائه ووضع الكتب في الردّ على مالك، تنكر له المالكية وعارضوه وأرادوا إخراجه من مصر واتهموه بالتشيع مرة، وبمقاومة السلطة أُخرى، حتى اغتالوه فمات بسبب ضربة على رأسه سنة (٢٠٤ هـ).

---

(٣٧٨) شذرات الذهب ج١ ص٣٢٨.

والذي يظهر أن الشافعي عاد إلى مكة وبقي مدة، ثم رجع سنة (٢٠٠ هـ) وفيها سطع نجمه وكثر أتباعه رغم تعصّب الحنابلة عليه وإيذائه له.[٣٧٩]

(٣٧٩) تاريخ المذاهب الإسلامية لأبي زهرة ص٢٣٧.

مناقبه

إنّ من الحقّ والإنصاف أن نعطي شخصية كلّ واحد من أئمة المذاهب الأربعة حقّها من الدراسة والعناية العلمية، وأن نتناول سيرهم من غير تعصّب وتحيّز، وننظر إلى ما كتب عنهم بعين تبصر الحقيقة، وتبرز جوهر تلك الشخصيات التي أخذت محلّها من التشريع الإسلامي.

ومهما يكن من أمر فإنّ المؤثرات الاجتماعية والأحداث السياسية تشوه سير البحث، ولا يستنتج الباحث منها الغاية المطلوبة، إذ أنّ أكثرها مبالغات أوجدها التعصّب الطائفي، عندما كثر الجدل وعظم الخلاف بين أنصار المذاهب، وخاصة المؤرخين والراوين الذين ساروا على ما تقتضيه ظروفهم المعاشية أو السياسية لا لما يقتضيه واقع الأئمة الملموس، وقد وصفوهم بصفات بعيدة عن الحقيقة، إذ جعلوهم في أعلى درجة من الكمال، وأرفع منزلة من العلم. بحيث يمتنع على أيّ مخلوق أن يصل إلى تلك المنزلة.

ولا حاجة بنا إلى إعادة النظر في الأمور، ولسنا نرغب أن نستقصي القول فيما ادعي للشافعي من تلك المناقب الموضوعة، نعم لا بدّ لنا من التعرّض للأحاديث التي استدلوا بها على تقديم الشافعي على غيره، وترجيح مذهبه على سواه، في لزوم الأخذ به، ووجوب اتّباعه، والاقتداء به، وإلى القارئ طرفاً من تلك الأحاديث :

١ ـ من يرد هوان قريش أهانه الله.

٢ ـ من أحبّ قريشاً أحبّه الله، ومن أبغض قريشاً أبغضه الله.

٣ ـ إذا اجتمعت جماعات من قريش فالحقّ مع قريش، وهي مع الحقّ.

٤ ـ إنّما نحن وبنو المطلب هكذا ـ وشبك بين أصابعه.

٥ ـ أمان أهل الأرض من الاختلاف الموالاة لقريش.

٦ ـ هذا الأمر في قريش، لا يعاديهم أحد إلا أكبّه الله على منخريه.

٧ ـ الأئمة من قريش.

٨ ـ إنّ الله يبعث لهذه الأمة على كلّ مائة سنة من يجدّد لها دينها.[٣٨٠]

---

(٣٨٠) سنن أبي داود ج٤ ص١٠٩ / ٤٢٩١.

وبهذه العمومات بنوا حصر الأخذ عن الشافعي ووجوب الرجوع إليه.

قال السبكي بعد إيراد هذه الأحاديث: والغرض الأعظم تبيين أنه - أي الشافعي - قرشيّ مطلبي، وذلك أمر قطعي، ومن أجله سقنا ما أوردناه من الأحاديث. ثم يمضي في الاستدلال على انحصار هذه الأحاديث وتخصيص عموماتها في الشافعي، وهي حصر المبتدأ بالخبر.[٣٨١]

والواقع غير هذا، فإنّ هذه الأحاديث مع فرض صحّتها هي عامة شاملة، ولا سبيل إلى حصرها بالشافعي، والاستدلال بها غير وجيه. وقد فرّعوا على هذه الأحاديث أشياء كثيرة :

منها حرمة نسبة الخطأ للشافعي في مسألة ما، لأنّ ذلك إهانة له، وإهانة القرشي غير جائزة.

ومنها وجوب الحذر من معاندة الشافعي وبغضه وعداوته .[٣٨٢]

ومنها لزوم تقديم الشافعي، والابتداء بذكره لقول النبي (صلى الله عليه وآله) «قدّموا قريشاً وتعلّموا من قريش». إلى آخر ما هنالك من أمور أثبتوها في تقديم الشافعي على غيره.

وكان إمام الحرمين، وابن السمعاني، والكيا الهراسي، وغيرهم يقولون لتلامذتهم: يجب عليكم التقيّد بمذهب إمامكم الشافعي، ولا عذر لكم عند الله تعالى في العدول عنه.[٣٨٣]

ومهما يكن من أمر فإنّ هذه الأحاديث لاتنهض حجة على المطلوب، وليس فيها ما يصلح لإثبات المدّعى، وقد أجاب عنها أصحاب المذاهب الأُخرى بأجوبة كثيرة، منها :

١ - إنّ المراد بحديث «قدّموا قريشاً» إنّما هو في الخلافة لا العلم.

٢ - إنّ قوله: «تعلّموا من قريش ولا تعلموها» فهذا الخبر لا أصل له.

وكيف يظن به - عليه الصلاة والسلام - أن يقول: أتركوا جهال قريش على جهلهم فلا تعلّموها، هذا محال.

---

(٣٨١) طبقات الشافعية ج١ ص١٠١.

(٣٨٢) مناقب الفخر ص١٣٦.

(٣٨٣) ميزان الشعراني ج١ ص٤٠.

ثم قالوا: إنّ الشافعي كان قرشيّاً، ولم يكن له معلم من قريش وإنّما أخذ علمه من غير قريش، كمالك بن أنس، ومحمد بن الحسن، وخالد الزنجي، وهؤلاء من غير قريش .[٣٨٤]

٣ - وقال ابن الجوزي: فأمّا قوله : قدّموا قريشاً فقد قال إبراهيم الحربي: سئل أحمد بن حنبل عن ذلك، فقال: يعني الخلافة .

ويقول : فإن قالوا - أي الشافعية - إنّ الشافعي كان فصيحاً فمسلّم، وذلك لا يعطي التقدّم على غيره، لأنّ التقدّم بكثرة العلم. على أنّه قد أخذ عليه كلمات فقالوا: قد قال: ماء مالح. وإنّما يقال ماء ملح .

وقال: إذا أشلا كلباً يريد «أغراه» وإنّما الإشلاء عند العرب الاستدعاء. وقال: ثوب يسوى كذا، والعرب تقول: يساوي. ثم ذكر ابن الجوزي أدلة ترجيح أحمد بن حنبل على الشافعي بالعلم.[٣٨٥]

وصفوة القول: إنّ ادعاء الشافعية بالأحاديث، في لزوم اتباع الشافعي لا يقرّها المنطق الصحيح، وأنّ جميع حججهم لاتنهض في إثبات المدّعى. على أنّنا نناقش في أصل لزوم الرجوع إلى مذهب معيّن، وأنّه أمر لا دليل عليه. وقد بيّنا ذلك في البحث السابق، بإشارة موجزة حول الاجتهاد والتقليد.

فإذا كان أصل الإلتزام لا أصل له فلا حاجة إلى هذا التكلّف. كما لا حاجة إلى ذكر كثير من المناقب التي أسندوها للشافعي وغيره من منامات وغيرها، تدلّ بمؤدّاها على لزوم اتباعه والأخذ بمذهبه.

والخلاصة: أنّ أتباع كلّ إمام قد أحاطوا شخصية إمامهم بهالة من التقديس، وسلكوا سبلاً مختلفة وطرقاً متعددة، لإقامة الدليل على أعلمية إمامهم، وأولويته بالاتّباع دون غيره، فنشبت خلافات وظهرت ضغائن ومرّت الأمة نتيجة ذلك بفترة محزنة، توتّرت فيها العلاقات الاجتماعية، وصبغت بالحدّة والعنف.

ولقد كان الهدف الأوّل لاختراع تلك الأمور ونشرها هو إثبات أعلمية ذلك الإمام، وأهليّته للاتّباع، لينتشر المذهب ويكتب له النجاح.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل امتدّت الحركة الادعائية هذه لترتكز على قاعدة قوية يكون لها أثرها في رسوخ المذهب وثبوته في القلوب، وذلك ادّعاؤهم بالبشائر

---

(٣٨٤) مناقب المكي ج٢ ص١٤٣ - ١٤٥.
(٣٨٥) مناقب أحمد ص٥٠٢.

النبويّة، فكلّ سلك جانباً من الادّعاء على صاحب الرسالة، وقد ساهم القصاصون وأعوان السلطة بنشر تلك الأكاذيب.

شيوخه وتلامذته

تلقّى الشافعي الفقه والحديث على شيوخ من مكة، والمدينة، واليمن، وبغداد، وقد ذكر ابن حجر منهم عدداً يتجاوز الثمانين[٣٨٦]، أمّا غيره فاقتصر على المشهورين منهم. ونحن نشير اليهم هنا بترجمة قصيرة وهم تسعة عشر: خمسة من مكة، وستة من المدينة، واربعة من اليمن، واربعة من العراق. وقد ترك الفخر الرازي ذكر محمد بن الحسن الشيباني تعصّباً، ولا مجال لتركه فإنّ الشافعي قد اعترف بأخذه العلم عنه، وأنّه حمل عنه علماً كثيراً ونمت مواهبه في ملازمته، ويعدّ في الواقع من أشهر شيوخه، بعد مالك بن أنس، وأوّل شيخ تلقّى الشافعي عنه العلم هو :

١ - مسلم بن خالد المخزومي أبو خالد المكي، المعروف بالزنجي المتوفى سنة (١٨٠ هـ) وهو من موالي مخزوم، وهو أوّل شيوخ الشافعي ، وابتدأ بأخذ الفقه والحديث عنه، ثم انتقل إلى المدينة وحضر عند مالك، ولم يكن مسلم بن خالد ممّن يعتمد عليه في الحديث، فقد طعن عليه وضعّفه كثير من الحفاظ، كأبي داود، وأبي حاتم، والنسائي، خرّج حديثه ابن ماجة وأبو داود .[٣٨٧]

٢ - سعيد بن سالم القداح، أبو عثمان الخراساني، ثم المكي المتوفى سنة (١٧١ هـ) وكانت له حلقة مسلم بن خالد الزنجي، بعد أن توفي مسلم، وقد أخذ الشافعي عنه وروى حديثه، وكان سعيد يُرمى بالإرجاء (أي أنّه من المرجئة).[٣٨٨]

٣ - داود، بن عبد الرحمن العطّار المتوفى سنة (١٧٥ هـ).

قال الشافعي: ما رأيت أورع منه، ووثّقه ابن معين .[٣٨٩]

ولم تكن ملازمة الشافعي له كغيره من شيوخه، ولعلّ أخذه عنه كان قليلاً.

٤ - سفيان بن عيينة ابن أبي عمران المتوفى سنة (١٩٨ هـ)[٣٩٠]تقدّمت ترجمته في هذا الكتاب في اسماء تلامذة الإمام الصادق(عليه السلام)، وهو من رؤساء المذاهب البائدة[٣٩١].

---

(٣٨٦) تهذيب التهذيب ج٩ ص٢٣ / ٥٩٥٠.
(٣٨٧) تهذيب التهذيب ج١٠ ص ١١٥، ٢٢٩، والخلاصة ص٣٢١ وغيرهما .
(٣٨٨) تهذيب التهذيب ج٤ ص٣١ / ٢٤٠٨.
(٣٨٩) تهذيب الكمال ج٨ ص٤١٣ / ١٧٧١ .
(٣٩٠) تهذيب التهذيب ج٤ ص١٠٦ / ٢٥٤٤.
(٣٩١) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة الجزء الأوّل ص٩٢ و ٢١٤.

٥ - مالك بن أنس الأصبحي المتوفى سنة (١٧٩ هـ)[٣٩٢]، تقدّمت ترجمته في الجزء الأول والثاني[٣٩٣].

٦ - عبد الله بن نافع الصائغ، مولى بني مخزوم المتوفى سنة (٢٠٦ هـ).[٣٩٤]

٧ - يحيى بن حسان بن حيان، البكري المصري المتوفى سنة (٢٠٨ هـ).[٣٩٥]

٨ - إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى أبو اسحق المدني المتوفى سنة (١٨٤ هـ)[٣٩٦].

وقد أكثر الشافعي من الرواية عنه. وهو عندهم ضعيف. وقد رموه بالكذب. وطعنوا على الشافعي بالأخذ عنه، ولكن الشافعي كان يرى إبراهيم صدوقاً، وإنّما رمي بالكذب لغايات هناك، وقد روى الربيع بن سليمان عن الشافعي أنّه كان يقول: لئن ينحر إبراهيم من بعد أحبّ إليه من أن يكذب وكان ثقة في الحديث.

وإبراهيم هذا كان من تلامذة الإمام الصادق (عليه السلام) وخرّيج مدرسته، وكان يروي أحاديث أهل البيت(عليهم السلام)، وله مؤلف مبوّب في الحلال والحرام على مذهب أهل البيت، وهو أستاذ الواقدي، وكتب الواقدي أكثرها مأخوذة عنه. وحيث كان الشافعي يعتمد على كتبه ورواياته، فكان مرة يصرّح باسمه ومرة أخرى يورّي عنه فيقول: حدثني الثقة، حدثني من لا اتهمه.[٣٩٧]

٩ - حماد بن أسامة الكوفي، مولى بني هاشم المتوفى سنة (٢٠١ هـ).[٣٩٨]

١٠ - وكيع بن الجراح بن مليح الرواسي، أبو سفيان الكوفي المتوفى سنة (١٩٦ هـ).[٣٩٩]

١١ - إبراهيم بن سعد الأنصاري الزهري، المتوفى سنة (١٨٣ هـ) تقدّمت ترجمته في تلامذة الإمام الصادق (عليه السلام).[٤٠٠]

١٢ - محمد بن الحسن الشيباني القاضي، تلميذ أبي حنيفة، قال الشافعي: حملت عن محمد بن الحسن الشيباني حمل بختي (نوع من الابل، ليس عليه إلاّ سماعي) وقال: كان محمد بن الحسن جيد المنزلة، فاختلفت إليه فلزمته وكتبت كتبه.[٤٠١]

---

(٣٩٢) نزهة الفضلاء ج٢ ص٧٢٦ / ٣٦٢.
(٣٩٣) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة الجزء الأوّل ص٢٢٧، والجزء الثاني ص١٢٠ و٢١٥ و٣٩٠.
(٣٩٤) سير أعلام النبلاء ج٦ ص١٠٥ / ١٦٣٤.
(٣٩٥) تهذيب التهذيب ج١١ ص١٧٤ / ٧٨٥١ .
(٣٩٦) تذكرة الحفاظ ج١ ص ٢٤٦.
(٣٩٧) ميزان الاعتدال ج١ ص١٨٢ / ٢١٩.
(٣٩٨) تهذيب التهذيب ج٣ ص٣ / ١٥٦٢.
(٣٩٩) ميزان الاعتدال ج٧ ص١٢٦ / ٩٣٦٤.
(٤٠٠) سير أعلام النبلاء ج٧ ص٥٥١ / ١٢٥٣.
(٤٠١) آداب الشافعي لأبي حاتم ص٢٣ - ٣٢.

ولذلك قالوا: إنّ محمد بن الحسن اغزر منه - أي من الشافعي - علماً وأخطر أثراً، وإنّ علم الشافعي راجع إليه ومأخوذ عنه.

١٣ - عبد الوهاب بن عبد المجيد بن الصلت البصري المتوفى سنة(١٩٤ هـ)[٤٠٢]، تقدّمت ترجمته في هذا الكتاب في تلامذة الإمام الصادق(عليه السلام).[٤٠٣]

١٤ - هشام بن يوسف أبو عبد الله قاضي صنعاء، المتوفى سنة (١٩٧ هـ) وهو من الأبناء، سمع معمراً، وابن جريح، وأخذ عنه ابن المدايني، توفي قبل عبد الرزاق بن همام .[٤٠٤]

١٥ - إسماعيل بن إبراهيم الأسدي القرشي. مولاه أبو بشر البصري المتوفى سنة (١٩٣ هـ) ويعرف بابن عليّة. وهي أمه، مولاة لبني أسد بن خزيمة ولمّا ولي إسماعيل بن عليّة القضاء كتب إليه ابن المبارك :

ياجاعل العلم له بازياً *** يصطاد أموال المساكين
تحتال للدنيا ولذاتها *** بحيلة تذهب بالدين
فصرت مجنوناً بها بعد ما *** كنت دواء للمجانين
أين رواياتك فيما مضى *** عن ابن عون وابن سيرين
أين رواياتك في سردها *** في ترك أبواب السلاطين
إن قلت أكرهت فذا باطل *** زل حمار العلم في الطين[٤٠٥]

تلامذته ورواة مذهبه

نقل مذهب الشافعي عن طريقين: أحدهما تلامذته. والثاني كتبه، أمّا رواة مذهبه فمنهم من العراق. ومنهم من مصر [٤٠٦] والعراقيون هم:

١ - خالد اليماني الكلبي، أبو ثور البغدادي المتوفى سنة (٢٤٠ هـ) وقد تقدّمت ترجمته في المذاهب البائدة، والحقّ أنّ عدّه في رواة مذهب الشافعي غير صحيح، فإنّ الرجل كان مجتهداً مطلقاً، وله مذهب قد اعتنقه كثير من الناس، واشتهر الأخذ به

---

(٤٠٢) تهذيب الكمال ج١٨ ص٥٠٣ / ٣٦٠٤ .
(٤٠٣) الإمام الصادق والمذاهب الأربعة الجزء الثاني ص١١٢، تهذيب الكمال ج١٨ ص٥٠٣ / ٣٦٠٤.
(٤٠٤) طبقات فقهاء اليمن للجعدي ص٦٧.
(٤٠٥) تهذيب التهذيب ج١ ص٢٧٨.
(٤٠٦) الانتقاء لابن عبد البر ص١٠٤ - ١١٥، وتوالي التأسيس لابن حجر ص٣٧ - ٤٣ ومناقب الشافعي للرازي : ص١٣، وطبقات الشافعية ج١ ص١٨٦ - ٢٩٩.

في القرن الثاني، ولكنه اندرس، شأنه شأن غيره من المذاهب التي لم تحظ بتشجيع فيكتب لها البقاء، وله كثير من المسائل قد خالف فيها الشافعي، وسيأتي بيانها.

٢ - الحسن بن محمد بن الصباح الزعفراني البغدادي المتوفى سنة (٢٦٠هـ) وهو أثبت رواة المذهب القديم للشافعي، وكان يذهب مذهب أهل العراق، فتركه وتفقه للشافعي.

٣ - الحسن بن علي الكرابيسي تفقه أولاً على مذهب العراقيين، ثم تفقه للشافعي وسمع منه ومن غيره وقد تجنب الناس روايته; لأنّ أحمد بن حنبل طعن عليه في مسألة اللفظ، لأنّه كان يقول: لفظي بالقرآن مخلوق.

٤ - أحمد بن عبد العزيز البغدادي كان من كبار أصحاب الشافعي الملازمين له ببغداد، ثم صار من أصحاب ابن داود وتبعه على رأيه، وله مسائل خالف بها الشافعي.

٥ - أبو عبد الرحمن أحمد بن محمد بن يحيى الأشعري البصري، كان يشبّه بالشافعي ويوصف به، لأنه انتصر للمذهب ودافع عن أصحابه، لمكانته من السلطان، وعلو منزلته في الدولة، فقد كان رفيع المنزلة عندهم، له جاه عظيم. وقد أجهد نفسه في نصرة مذهب الشافعي وانتشاره، حتى وصف بما اشرنا إليه.

٦ - أحمد بن محمد بن حنبل إمام المذهب الحنبلي، - ستأتي ترجمة حياته - .

والشيء الذي نودّ الإشارة اليه هو أنّ الحنابلة يجعلون الشافعي تلميذ أحمد بن حنبل، ويعدّونه في عداد من أخذ عنه وتعلّم منه، ويستدلّون بقول أبي حاتم: إنّ أحمد بن حنبل أكبر من الشافعي. تعلّم الشافعي أشياء من معرفة الحديث من أحمد بن حنبل، وكان الشافعي فقيهاً، ولم تكن له معرفة بالحديث، فربّما قال لأحمد هذا الحديث محفوظ؟ فإذا قال أحمد: نعم، جعله أصلاً وبنى عليه.

وقال إسحق بن حنبل: كان الشافعي يأتي أبا عبد الله أحمد بن حنبل عندنا ههنا عامة النهار يتذاكرون الفقه.

وقال أبو بكر الأثرم فيما كتبه إلى المروزي: واخبرت أنّ الشافعي له معرفة بالحديث ممّا تعلمه منه - أي من أحمد بن حنبل - .

وعن عبد الله بن أحمد قال: قال لنا الشافعي: أنتم أعلم بالحديث والرجال مني، فإذا كان الحديث صحيحاً فأعلموني أن يكون كوفياً، أو بصرياً، أو شامياً، حتى أذهب اليه اذا كان صحيحاً.

هكذا ذكر ابن رجب في طبقات الحنابلة [٤٠٧] وقال ابن الجوزي: وممّن حدث عن أحمد بن حنبل الشافعي، وقد ذكره في عداد تلامذته. ولكنّ الشافعية جعلوا أحمد بن حنبل تلميذاً للشافعي.[٤٠٨]

٧ - داود بن علي الظاهري، إمام أهل الظاهر، أخذ عن الشافعي، ولكنه لم يكن من رواة المذهب وناشريه، بل كان له مذهب مستقل وله أتباع، ولا زال مذهبه معمولاً به مدة من الزمن وكان من أشهر علماء المذهب ابن حزم صاحب كتاب المحلّى.

المصريون

وانتشر مذهب الشافعي في مصر أكثر من غيره، لأنّ أصحاب الشافعي في مصر قاموا بنشر المذهب، وتأليف الكتب، وقد ساعدت الظروف على ذلك كما يأتي، فكان للشافعي أصحاب من مصر لهم يد في نشر مذهبه، وله تلامذة كثيرون، كان أشهرهم :

١ - يوسف بن يعقوب البويطي أو يعقوب المصري، المتوفى سنة (٢٣١هـ) في سجن بغداد، لأنّه لم يقل في مسألة خلق القرآن.

وكان البويطي من أكبر أصحاب الشافعي، وناشري مذهبه، وهو خليفته على حلقة درسه، وكان الشافعي يحيل عليه في الفتيا إذا جاءته مسألة، ويعدّ في الواقع من أكبر أنصار المذهب ودعاته، فقد كان يدني الغرباء ويقرّبهم، ويعرّفهم فضل الشافعي وكتبه، حتى كثر الطالبون لكتب الشافعي، وكان يقول: كان الشافعي يأمر بذلك ويقول لي: أصبر للغرباء. وغيرهم من التلاميذ حتى كثر أتباعه وقوي انتشار المذهب، فحسده ابن أبي الليث الحنفي، قاضي مصر وعاداه، وبسبب ذلك أخرجه أيام المحنة في خلق القرآن، وحمل مع من حمل من أهل مصر، وحبس ببغداد ومات في السجن سنة (٢٣١ هـ) .[٤٠٩]

---

(٤٠٧) طبقات الحنابلة ج١ ص٢٨٠ - ٢٨٢.

(٤٠٨) مناقب الشافعي للبيهقي ج٢ ص٢٥١ - ٢٦٠، طبقات الشافعية لابن قاضي شهبة ج١ ص٥٦.

(٤٠٩) طبقات الشافعية للسبكي ج٢ ص١٦٢ - ١٦٥ / ٣٩.

٢ - إسماعيل بن يحيى المزني أبو إبراهيم المصري، المتوفى سنة (٢٦٤ هـ)، كان من أكبر أنصار الشافعي وناشري مذهبه، حتى قال الشافعي في حقّه: المزني ناصر مذهبي. وقال أيضاً في وصفه: لو ناظر الشيطان لغلبه .[٤١٠]

وله في مذهب الشافعي كتب كثيرة، منها: الجامع الكبير، والجامع الصغير والمختصر، والمنثور، والمسائل المعتبرة، والترغيب في العلم، وكتاب الوثائق، وكتاب نهاية الاختصار .

واشتهر كتاب المختصر بين الناس وامتلأت به البلدان، وكان للناس فيه اعتقاد شديد حتى أنّ المرأة إذا جهّزت للدخول على زوجها حمل في جهازها مصحف ونسخة مختصر المزني[٤١١]، وكان المزني من المجتهدين في المذهب، وممّن له حرية الاستنباط. وكان ممن ينهى عن التقليد والجمود كما جاء في مقدمة المختصر .

٣ - الربيع بن سليمان بن عبد الجبار بن كامل المرادي المتوفى سنة (٢٧٠ هـ) كان من موالي مراد، ومؤذّن جامع الفسطاط، وهو راوي كتب الشافعي، وثّقوه في الحديث على غفلة فيه، وتُقدم روايته على غيره، فلو تعارض هو والمزني في رواية قدّم أصحاب الشافعي روايته على رواية المزني، وقد رحل الناس إليه لتلقي كتب الشافعي، وكان الشافعي يحبه حتى قال له: لو قدرت ان اطعمك العلم لأطعمتك إياه .[٤١٢]

٤ - الربيع بن سليمان بن داود الجيزي، أبو محمد الأزدي مولاهم المصري المتوفى سنة (٢٥٦ هـ)، روى عن الشافعي أحاديثاً، ولم يرو كتبه، وكان ضعيفاً في الحديث .[٤١٣]

ومن المصريين أيضاً: حرملة بن يحيى بن حرملة، أبو حفص المصري المتوفى سنة (٢٦٦ هـ) صحب الشافعي وروى عنه كتباً لم يروها الربيع بن سليمان. ومنهم :

قحزم بن عبد الله بن قحزم، أبو حنيفة القبطي المتوفى سنة (٢٧١ هـ) صحب الشافعي وأخذ عنه وكتب كثيراً من كتبه، وروى عنه عشرة أجزاء في السنن والأحكام.[٤١٤]

---

(٤١٠) طبقات الشافعية للسبكي ج١ ص٢٣٨

(٤١١) مختص المؤمل لأبي شامة ص٣٥ .

(٤١٢) طبقات الشافعية، للسبكي ج٢ ص١٣٢ - ١٣٤ / ٢٩.

(٤١٣) طبقات الشافعية، للسبكي ج٢ ص١٣٢ / ٢٨.

(٤١٤) طبقات الشافعية، للسبكي ج٢ ص١٦٠ / ٢٧.

يونس بن عبد الأعلى الصدفي المصري ولد سنة (١٧٠ هـ) وتوفي سنة (٢٦٤ هـ) وسمع الحديث من ابن عيينه وابن وهب، وتفقّه على الشافعي، وانتهت إليه رياسة العلم المصري. وفيه يقول الشافعي: ما رأيت بمصر أحداً أعقل من يونس بن عبد الأعلى .[٤١٥]

محمد بن عبد الله بن الحكم المتوفى سنة (٢٦٨ هـ)، كان من أصحاب الشافعي، وكان أهل مصر لا يعدلون به أحداً. قال المزني: نظر إليه الشافعي فأتبعه بصره، وقال: «وددت لو أنّ لي ولداً مثله وعليَّ ألف دينار». وقال أبو إسحاق الشيرازي: انتهت إليه رياسة العلم بمصر، وكانت بينه وبين الشافعي مؤاخاة صادقة، ومودة صافية. ولما مرض الشافعي، وأحس بدنوّ منيّته، وطلب إليه أصحابه أن يذكر من يخلفه في حلقته أشار إلى البويطي، دون ابن عبد الحكم، وكان قد استشرف لها وأرادها، فأغضبه ذلك وترك مذهب الشافعي، وانتصر لمذهب مالك، وأخذ يرد على الشافعي، فهو إذاً من تلامذة الشافعي ولم يكن من ناشري المذهب.[٤١٦]

هؤلاء هم أشهر أصحاب الشافعي، الذين انتشر بهم علمه بما ألّفوا وصنّفوا.

كتبه وآثاره

يمتاز الشافعي عن غيره من أئمة المذاهب الأربعة بنسبة الكتب التي عرف انّه صنّفها بنفسه، فكان عليها اعتماد المتمذهبين بمذهبه كرسالة أدلة الاحكام، وهي رسالة أُصولية، وكتاب اختلاف الحديث، وكتاب المسند، والأمالي، ومجمع الكافي، وعيون المسائل، والبحر المحيط، وهذه الكتب الأربعة تعرف بالقديم.

وإنّ من سبقه من الأئمة لم يظهر له مثلما ظهر للشافعي، فمالك بن أنس له كتاب الموطأ فحسب، وأبو حنيفة ليس له شيء من التأليف إلاّ ما يقال من نسبة كتاب العالم والمتعلّم، وقد تقدّم الخلاف في ذلك، وسيأتي الكلام حول كتب الإمام أحمد.

أمّا أهم كتاب ينسب إلى الشافعي فهو كتاب «الأم» المطبوع في ستة مجلدات، وهو المرجع لفقه الشافعي قديمه وجديده.

وأهمّ شيء نودّ الوقوف عليه في هذا البحث هو: هل الأم من تأليف الشافعي أو هو لغيره ونسب إليه؟

---

(٤١٥) طبقات الشافعية، لابن قاضي شهبة ج١ ص٧٢ / ١٧.

(٤١٦) توالي التأسيس ص٢٥٨.

كتاب الأم

لقد وقع الخلاف حول هذا الكتاب، وكثر الجدل في نسبته للشافعي، وأنّه أكبّ على تأليفه بنفسه، فبعضهم يذهب إلى ذلك. والبعض الآخر ينفي ذلك، ويذهب إلى عدم نسبته للشافعي.

ونحن إذا أردنا أن نلحظ الكتاب في قراءة موضوعية نجد أنّنا كثيراً ما نصطدم بعبارات توجب التشكيك في صحة القول بأنّ الشافعي هو مؤلّف هذا الكتاب. ولعلّ من الخير أن نضع بين يدي قرائنا المحترمين، بعضاً من الشواهد على ذلك:

منها : افتتاح كثير من فصوله بهذه العبارة: «أخبرنا الربيع، قال: قال الشافعي كما ورد في مطلع الجزء الأول وكثير من فصول الكتاب، وفي كتاب الحيض والاستحاضة في عدّة موارد، وفي ص ٥٨ [٤١٧] قال: قال الربيع: قال الشافعي، وهو الذي نقول به: انّ أقل الحيض يوم وليلة، وأكثره خمسة عشر.

وفي كثير من فصول الكتاب، يحكي الربيع بن سليمان أقوال الشافعي وآراءه كما في ص ٦٠ ج ١ وكذلك في ص ٦٧ و ٧٢ و ٧٣ إلى غير ذلك.[٤١٨]

وإنّ المؤيدات لنفي دعوى تأليف الشافعي كثيرة لا تحصى، ففي ص ٧٤ في باب الأذان قال الربيع: أخبرنا الشافعي قال: أخبرنا إبراهيم بن محمد [٤١٩]وغيره، عن جعفر بن محمد (عليه السلام) إلى أن يقول : قال الشافعي: وبهذا كلّه نأخذ[٤٢٠].

ومن أهمّ المؤيدات، أنّ الربيع كان ينصّ في بعض الموارد على سماعه من الشافعي، وفي بعضها أنّه لم يسمع ذلك منه. وورد في باب غسل الميت ص ٢٤٨ أخبرنا الربيع بن سليمان أنّه قال: لم أسمع هذا الكتاب من الشافعي، وإنما أقرأه على المعرفة.[٤٢١]

وتقع في الكتاب عبارة: قيل للشافعي فأجاب بكذا، كما تكثر فيه عبارة: «سألت الشافعي بكذا فأجاب بكذا» كما في السؤال عن ولوغ الكلب في الإناء ج ٧ ص ٩٤ وغيره .[٤٢٢]

---

(٤١٧) كتاب الأم ج١ ص٢٤٩ طبعة بيروت .

(٤١٨) كتاب الأم ج١ ص٢٥٨، ٢٥٩ وج٢ ص١٣ طبعة بيروت .

(٤١٩) ابراهيم بن محمد بن أبي يحيى هو أحد تلامذة الإمام الصادق (عليه السلام)، ومن أكبر شيوخ الشافعي وقد أكثر الرواية عنه وستأتي ترجمته.

(٤٢٠) كتاب الأم ج٢ ص٧٤ .

(٤٢١) كتاب الأم ج٣ ص٤٢٣.

(٤٢٢) كتاب الأم ج١ ص٥٨ .

ويأتي أيضاً: قلت للشافعي كذا فأجابه بكذا. إلى آخر ما هنالك من الشواهد والتعليقات للربيع وللبويطي، كما في ج ٥ ص ٥٩، ١٤٤، ١٤٥، ١٨٣، أكبر دليل على ذلك .[٤٢٣]

ويجد المتتبع لفصول الكتاب، صراحة في عدم تأليف الشافعي لهذا الكتاب، كما في باب الصلح، والحوالة، والوكالة، والوليمة، وإقرار الوارث وغيرها.

وعلى أيّ حال: فإنّ للقول في عدم نسبة الكتاب للشافعي مجالاً. وأنّه لم يؤلّفه بنفسه، ولا أكبّ على كتابته، ولكن أقرب الاحتمالات: إنّ الكتاب هو مجموعة آرائه وأقواله دوّنها تلامذته، كغيره من أئمة المذاهب، مع زيادات في التخريج على أصول المذهب. و على الأقل فإنّ القطع بعدم نسبة جميع الكتاب للشافعي لا مجال لإنكاره، فهو إمّا تأليف البويطي أو الربيع بن سليمان. وقد أيّد ذلك الغزالي في الأحياء وأبو طالب المكي في قوت القلوب.

قال أبو حامد الغزالي :كان الشافعي (رحمه الله) أخا محمد بن عبد الحكم، وكان يقرّبه ويقبل عليه ويقول: ما يقيمني بمصر غيره، فاعتلّ محمد فعاده الشافعي (رحمه الله)فقال :

مرض الحبيب فعدته *** فمرضت من حذري عليه

وأتى الحبيب يعودني *** فبرئت من نظري إليه

وظنّ الناس من صدق مودتهما أنّه يفوض أمر حلقته إليه بعد وفاته، فقيل للشافعي في علّته التي مات فيها: إلى من نجلس بعدك يا أبا عبد الله؟ فأستشرف له محمد بن عبد الحكم وهو عند رأسه ليومئ إليه، فقال الشافعي سبحان الله! أيُشك في هذا! أبو يعقوب البويطي. فانكسر لها محمد، ومال أصحابه إلى البويطي، مع أنّ محمداً قد حمل عنه مذهبه كلّه.

لكن البويطي كان أفضل وأقرب إلى الزهد، فنصح الشافعي لله وللمسلمين وترك المداهنة، ولم يؤثر رضا الخلق على رضا الله تعالى.

فلما توفي، انقلب محمد بن عبد الحكم عن مذهبه، ورجع إلى مذهب أبيه. ودرس كتب مالك. وآثر البويطي الزهد والخمول، ولم يعجبه الجمع والجلوس في الحلقة، واشتغل بالعبادة، وصنّف كتاب الأم الذي ينسب الآن إلى الربيع بن سليمان ويعرف

---

(٤٢٣) كتاب الأم ج٥ ص٥٩، ١٤٤، ١٤٥ و ١٨٣.

به، وإنّما صنّفه البويطي، ولكن لم يذكر نفسه فيه، ولم ينسبه إلى نفسه، فزاد الربيع فيه وتصرّف.[٤٢٤]

هذا هو النصّ الذي أورده الغزالي، على نفي نسبة كتاب الأم للشافعي، وإنّما ألّفه البويطي، ثم نسبه الربيع بن سليمان الى نفسه، وزاد فيه وتصرف. والغزالي هو من أئمة الشافعية الذين عليهم المعوّل.

وقال أبو طالب المكي: إنّ البويطي هو الذي ألّف كتاب الأم وأعطاه الربيع، وصار يُعرف به لأنه اعتزل الناس بالبويطة من سواد مصر، وصنّف كتاب الأم الذي ينسب الآن للربيع بن سليمان ويعرف به، و إنّما هو جمع البويطي، لم يذكر نفسه فيه، وأخرجه إلى الربيع فزاد فيه .[٤٢٥]

وهذا نصّ صريح في تأكيد المدّعى، وقد مرّت العصور على نسبة الكتاب للشافعي، وأنّه أكبّ على تأليفه، مع وجود هذه النصوص والشواهد التي يتجلى منها عدم صحة هذه النسبة، لمن يتتبع فصول الكتاب، من وجود تلك العبارات الدالة بصراحة على نفي تلك النسبة كما قدّمناه، وكذلك في بقيّة الأبواب المسبوقة بعبارة «أخبرنا الربيع بن سليمان قال: أخبرنا الشافعي»، كما في باب الصلح، والحوالة، والوكالة، والوليمة، وإقرار الوارث وغيرها.[٤٢٦]

وتسمية هذا الكتاب باسم الأم تسمية جديدة، وأحياناً ما يرد ذكره في الكتاب ولعلّه من فعل الشرّاح.[٤٢٧]

وبهذه الأمور أصبح التشكيك في نسبة الكتاب للشافعي، بل جزم أكثرهم بأنّ الشافعي لم يؤلّفه. وحقيقة أنّه جامع لأقواله وآرائه التي لم يقصد منها تصنيف كتاب بعينه ولو قدّم كذلك لسلّم ما فيه من علم من التشكيك ورفع عنه التردد.

الاختلاف حول كتاب الأم

وقد ثار الخلاف في مصر حول هذه المسألة، وكثر الجدل فيها، وهو: هل أنّ كتاب «الأم» ألّفه الشافعي أو ألّفه البويطي؟

---

(٤٢٤) الإحياء ج٢ ص١٩٠.
(٤٢٥) قوت القلوب للمكي ج٤ ص١٣٥.
(٤٢٦) كتاب الأم ج٧ ص٢٦١ و ٢٨٠ و ٢٨٨.
(٤٢٧) نظرة عامة في تاريخ الفقه الإسلامي ص٢٥٥ .

فمنهم، من ينفي تأليف الشافعي لهذا الكتاب، وانّه عكف على كتابته وتأليفه في هذا الموضع النهائي.

ومنهم، من يرى أنّ الشافعي أملاه على تلامذته في حلقة درسه، وقسم آخر يرى أنّ الشافعي أملى مسائل، وكتب مسائل، وتحدث بمسائل، ثم ترك علمه ورسائله وأماليه وديعة في خزائن اصحابه وصدورهم بعد موته، فجاء البويطي فصنّف من ذلك كلّه كتاب الأم وأعطاه الربيع، فزاد فيه وتصرّف. ولكلّ قول مرجحات ومؤيدات.

يقول الدكتور أحمد أمين: «فليس يستطيع أحد أن يقول أنّ ما بين دفتي الكتاب الذي بين أيدينا هو تأليف الشافعي، وأنّه عكف على كتابته وتأليفه في هذا الموضع النهائي. كما أنّه لا يستطيع أحد أن ينكر أنّ في «الأم» مذهب الشافعي بقوله وعبارته، فالظاهر أنّها أمالي أملاها الشافعي في حلقته، وكتبها عنه تلاميذه، وأدخلوا عليها تعليقات من عندهم، واختلفت رواياتهم بعض الاختلاف».[٤٢٨]

وكتب الدكتور زكي مبارك رسالة خاصة في هذه المسألة تحت عنوان: «إصلاح أشنع خطأ في تاريخ التشريع الإسلامي، كتاب الأم لم يؤلّفه الشافعي، وإنّما ألّفه البويطي وتصرف فيه الربيع بن سليمان».

يقول في المقدمة: «وملك الدنيا بأسرها لا يساوي عندي تصحيح هذه الغلطة التي درج عليها الناس منذ أجيال; وهي نسبة كتاب الأم إلى الشافعي (رحمه الله)، مع أنّ الشافعي لم يؤلّف ذلك الكتاب، ولم يعرفه على الاطلاق لأنّه ألّف بعد وفاته بسنين» .

ويقول: إنّ الفرق عظيم بين كتاب يؤلفه الشافعي أو يمليه ويرويه عنه أصحابه، وكتاب يؤلف بعد وفاته بسنين. الفرق عظيم جداً بين هذين في التأليف والتصنيف، إلاّ أن تكون الحقائق الأدبية في مصر ممّا يكال ويوضع في الأعدال .

ويستمر الأستاذ مبارك في مناقشته، وبحثه حول الكتاب، وهو المعروف بدقّة البحث وسلامة الذوق، ويقيم الأدلة على مايدّعيه، من اثبات تأليف الكتاب للبويطي، لا للشافعي، ويصف لنا مهاجمة الناس له، وقيام المعركة حول إثارة هذه المسألة وأنّ المعركة تنتهي على أنّ الشافعي لم يعرف كتاب الأم بصورته، وأنّه لا مفرّ من الاعتراف بأثر أبي يعقوب البويطي، والربيع بن سليمان في تأليف ذلك الكتاب.

---

(٤٢٨) ضحى الإسلام ج٢ ص٢٣١.

ويقول: كتب الله لنا النصر في تلك الحرب الشعواء، واعترف خصومي بأنّ الشافعي لم يعرف كتاب الأم في حياته، اعترفوا في محادثات شخصية وتلفونية، وسألتهم أن يذيعوا ما اقتنعوا به فلم يفعلوا; لأنّ الاعتراف بالهزيمة يصعب على كثير من الناس.

ولكنّهم لم يكونوا جميعاً في درجة واحدة من المكابرة، فقد تفرّد الرجل الفاضل الأستاذ محمد عرفة - وكيل كلية الشريعة - بكلمة وقعت منه قضاءً وقدراً، في مقال نشره بالبلاغ في مساء السبت ٢٨ شعبان سنة (١٣٥٢ هـ) إذ قال: «إلاّ أنّه يحتمل أن يكون الشافعي أملى كتابه الأم كتباً متفرقة ومسائل مجزّأة، والذي جمعه وجعله كتاباً مستقلاً، وسمّاه بهذا الاسم هو الربيع بن سليمان، ونحن نرجّح هذا الاحتمال».

هذا كلام وكيل كلية الشريعة بالجامع الأزهر، فماذا ينتظر الناس من الفوز لرأي زكي مبارك، من أن يوافقه وكيل كلية الشريعة من حيث لا يحتسب؟

ويختم الأستاذ زكي مبارك رسالته، التي نشرها حول إثارة هذا الموضوع فيقول:

وأظهر ما تكون عقبة التوحيد في الفقه الاسلامي، فقد رأينا كيف يتفق فقهاء الشافعية على اضافة مؤلفات أصحاب الشافعي إلى الشافعي، ومضوا على ذلك الرأي الموحّد إلى اليوم، حتى رأينا من فقهاء عصرنا من يضجر ويحزن ويكتئب حين يسمع من يقول: إنّ للبويطي والربيع بن سليمان يداً في تأليف كتاب الأم لأنّ في ذلك اشراكاً بالشافعي (رحمه الله)!

ولا ننسى أنّ من فقهاء الشافعية جماعة أنطقت الرسول (عليه السلام) بمدح الشافعي قبل ان يولد بزمان، فزعمت أنّه قال: «عالم قريش يملأ طباق الأرض علماً» وأن المقصود بهذا الحديث محمد بن إدريس الشافعي. إلى أن يقول: لقد مرّت أجيال والمسلمون يعتقدون أنّه ليس لأحد بعد الأئمة الأربعة أن يجتهد في الشريعة الإسلامية. والخارج عن المذاهب الأربعة - وهو رأي الجمهور - صاحب بدعة ، وكلّ بدعة ضلالة، وكلّ ضلالة في النار.

ومن المؤسف، أن تتغلغل هذه العقيدة في الجماهير الإسلامية، حتى نجد من يسأل عن مذهب رسول الله (صلى الله عليه وآله) أشافعي هو أم مالكي؟ وغفلة العوام فرع عن غفلة الخواص.

فإن لم يكن ذلك كذلك - كما كانوا يعبرون - فلم يصرخ بعض الناس فيقولوا في جريدة يومية : أنّه يعزّ عليه أن ينسب كتاب الأم إلى غير الشافعي؟ مع أنّ في فحول المتقدمين من نسبه الى البويطي والربيع، مع أنّ الأدلة تظافرت على أنّه ألف بعد وفاة الشافعي بسنين؟

يقولون، إنّ أصحاب الشافعي كانوا جميعاً عالة عليه، ونحن نقول: لولا أصحاب الشافعي لكان مصيره مصير الليث بن سعد، فقد كان من كبار الأئمة، ولكن قعد عنه أصحابه فضاع. وفي عصرنا شاهد لذلك! فلولا رشيد رضا لما كان محمد عبده، وهل استطاع الشيخ محمد عبده أن يظفر بكلمة ثناء؟ وهل جرى في الدنيا أنّه الأستاذ الإمام وأنّه (لوثر) هذا الجيل; لولا عناية رشيد رضا بطبع مؤلفاته وإذاعة ما وعى عنه من مختلف الأقوال؟

إنّ التلميذ المخلص شريك أستاذه في الفضل، فلا تغضّوا من قيمة أصحاب الشافعي لتصح لكم في الشافعي عقيدة التوحيد، فبعض التوحيد وثنية لو تعلمون. إنتهى. وفي الرسالة مباحث قيّمة لم يتّسع الوقت لإعطاء صورة عنها.

وبهذا ينتهي بحثنا حول شبهة كتاب الأم. ونسبته للشافعي، وللشافعي كتب أخرى في علوم مختلفة، كالتفسير واللغة وغيرهما، كما أنّهم نسبوا إليه معرفة كثير من العلوم، والتحقيق لايقرّ ذلك، والتتبع لا يثبته، فمن ذلك:

إنّ بعض من درسوا الشافعي ينسبون إليه تعلّم اليونانية، معتمدين على مانقله الرازي عن الشافعي: أنّه عندما دخل على الرشيد بتلك التهمة، سأله الرشيد عن علمه، فكان ممّا جاء في هذه المحاورة: قال الرشيد : فكيف علمك بالطب؟ قال الشافعي: أعرف ما قالت الروم، مثل ارسطاطاليس. وجالينوس، وقرقوريوس، وأبو قليس، بلغاتها وما نقله أطباء العرب، وقنّنه فلاسفة الهند، ونمقته علماء الفرس.

والقصة مكذوبة لا يعتمد عليها، لاشتمالها على أمور متناقضة وأشياء مكذوبة، وأوضح ما فيها من الكذب أنّ السؤال من الرشيد كان بمحضر أبي يوسف، مع القطع بأنّ الشافعي دخل بغداد بعد وفاة أبي يوسف، ولم يجتمع به قط. وكذلك تشتمل القصة على مناقشات فقهية تخالف مذهب الشافعي قديمه وجديده.[٤٢٩]

---

(٤٢٩) وقد رد ابن القيم هذه الرواية، ورفضها ابن حجر وابن كثير، ونص الجميع على كذبها وقد أوردها الفخر الرازي بدون سند. وجدناه قريباً منه في تاريخ مدينة دمشق ج٥١ ص٣٢٠، ومفتاح دار السعادة لمحمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ج٢ ص ٢٢٠.

فليس من التحقيق العلمي التمسك بشيء ممّا جاء في هذه القصة; لأنّ راويها كذّاب وضّاع، وهو محمد بن عبد الله البلوي، وحاله أشهر من أن يذكر [٤٣٠] ولم نجد نسبة تعلمه للطب واللغة اليونانية إلاّ في هذه الرواية التي لا يعتمد عليها، ونصّ على ذلك كثير من المحققين.

وليس لنا غرض في نفي ذلك عنه، إلاّ الالتزام بشرط الدراسة من التعرّض لكثير من الأمور التي هي بعيدة عن الواقع.

أما الكلام حول علم الأصول، وهل كان الشافعي هو الواضع له، أو أنّه أوّل من ألّف فيه؟! فذلك ما يستدعي بيانه الإطالة في البحث لاستلزامه الرجوع إلى البحث عن تاريخ علم الأصول ونشأته، وهو متأخر عن علم الفقه; لأنّه ميزان له، فالفقه هو المادة التي توزن والمادة سابقة على الميزان.

وقد أشرنا في الجزء الثاني في فصل تدوين العلم: أنّ الإمام الباقر (عليه السلام) كان هو الواضع الأول لقواعده وأسسه، وقد ألّف تلامذته رسائل في مسائله.

ومهما يكن من أمر فلا مجال إلى الاعتراف بوضع الشافعي لعلم الأصول، ولا يمكن التمسك بما نقله البعض في ذلك، لبعده عن الحقيقة، وعدم مطابقته للواقع، لأنا نجد من كان قبل عصر الشافعي من علماء الإسلام من كان يستعمل في استنباطه للحكم كثيراً من القواعد الأصولية، للوقوف على حقيقة الحكم الوارد من الشارع.

وكان لكلّ مذهب أصول وقواعد، وقد ألّف أبو يوسف كتاباً في أصول الفقه، كما أنّ قواعد أصول الفقه المالكي كانت سابقة على الشافعي، وقد ألف محمد بن الحسن الشيباني كتاباً أسماه أصول الفقه، وتدّعي الحنفية أنّ أول من وضع الكتب في أصول الفقه على مذهب أبي حنيفة هو أبو يوسف.[٤٣١]

وذكر ابن النديم كثيراً من كتب الأصول لمن هو أسبق في التأليف من الشافعي من معاصريه وغيرهم.

وقد تقدّم القول بأنّ الإمام الباقر (عليه السلام) هو الذي وضع قواعد علم الأصول وفتح أبوابه، وأوّل من صنّف فيه هو هشام بن الحكم المتوفى سنة (١٧٩ هـ)، صنّف كتاب «الألفاظ ومباحثها»، ثم من بعده يونس بن عبد الرحمن مولى آل يقطين، وهو مبحث تعارض الحديثين، ومسائل التعادل والتراجيح. وقد ذكر ابن النديم مؤلفات

---

(٤٣٠) توالي التأسيس ص١٦٨ / ٨٢ ، لسان الميزان ج ٤ ص١١٩ / ٤٧٩١ .

(٤٣١) مناقب أبي حنيفة للمكي ج١ ص٢٤٥.

الشيعة في الأصول لمن هو أسبق من الشافعي، وقد مرّ البحث في ذلك في الجزء الثاني من هذا الكتاب[٤٣٢].

ونحن لا ننكر أنّ الشافعي له يد في علم الأصول، وأنّه وسّع الدائرة في بعض المسائل، إلاّ أنّه لم يكن واضعاً لهذا العلم، بل هو مؤلف وله الرسالة المشهورة، وقد تصدّى أبو سهل النوبختي، وهو من علماء الشيعة فنقضها وبيّن أخطاء الشافعي، فيما كتب عن علم الأصول. ولكنّنا ننكر أن يكون هو الواضع الأوّل لعلم الأصول وهو ادّعاء لا يثبت أمام التفاصيل، التي حوتها كتب الشيعة والتي تبيّن الأبواب التي جرى عليها الإمام الباقر، في مسائله وأقواله وتظهر القواعد التي وضعها في استخراج الأحكام وتصنيف المسائل، والتي برزت أيضاً بمنهج الإمام الصادق ومدرسته الكبرى.

بين قديم وجديد

تختلف أقوال الشافعي وفتاواه في كثير من الموارد، وقد عُرف عنه أنّه عدل عن فتواه في العراق، وعرفت بالمذهب القديم، وهو الذي تحمّله عنه تلامذته في العراق وأخذوا عنه، وحفظوا مسائله، ودوّنوا كتبه كالزعفراني والكرابيسي وغيرهما. ومن كتب المذهب القديم المنسوبة للشافعي: الأمالي، ومجمع الكافي.

ولما دخل مصر رجع عمّا أفتاه في العراق، وما دوّن عنه، حتى روى البويطي، أنّ الشافعي قال: لا أجعل في حلّ من روى عني كتابي البغدادي[٤٣٣]، هذا مع العلم بأنّ تلك الآراء والأقوال قدّ انتشرت وأخذها من تتلمذ عليه في بغداد، ولا نعلم معنى هذا النهي ومؤدّاه - إن صح عنه - فهل كان الرجوع عنها لعدم مطابقتها للحقّ؟ أم أنّ استعداده الاجتهادي كان قاصراً عن إدراك الواقع الذي ادركه في مصر؟!

وصفوة القول: أنّ ما تقدم يضع بين يدي الباحث حقيقة مذهبية طريفة هي تأثر ذهنية الفقيه بالمحيط الجغرافي، وهذا ما لم يصل إليه التصور أو الإدراك، فالشافعي صاحب المذهب المعروف هو الذي تفرّد مذهبه بهذه الصبغة - صفة الجديد وصفة القديم - فمذهبه الجديد هو ما أملاه في مصر، وأخذ عنه تلامذته هناك، والقديم هو مذهبه في بغداد، وقد عدل عنه ونهى عن نقله، ولكنّ تلامذته في بغداد لم يبلغهم نهيه وعدوله، فدوّنوها وتناقلوها وانتشرت بينهم، ولهذا تجد الأقوال عن الشافعي مختلفة.

---

(٤٣٢) الإمام الصادق(عليه السلام) والمذاهب الأربعة الجزء الثاني ص ٣٠٤ و ٣٠٥.

(٤٣٣) مناقب الشافعي للفخر الرازي ص٦٩.

فيأتي في المسألة قولان أو أكثر، وقد يثبت رجوعه عن أحدها أولا يثبت، فيبقى القولان ثابتين في المذهب منسوبين إليه، كما جاء في كتاب الأم وغيره. وقد يعتبر هذا الاختلاف دليلاً على النقص في اجتهاد الشافعي، لأنّ عدم الجزم دليل على نقص العلم.

ذكر الفخر الرازي في المسألة الحادية عشرة: أنّهم - أي العلماء القائلون بنقص اجتهاد الشافعي - قالوا: أنه - أي الشافعي - ما كان كاملاً في الاجتهاد لأنه توقف في أكثر مسائل الفقه. وتساوت عنده الأدلة، وذلك يدل على ضعف الرأي وقلة الفقه.[٤٣٤]

واعتذر الرازي: بأنّ هذا يوجد عند أبي حنيفة أيضاً في مسألة الماء المستعمل في الوضوء، فقد نقلوا عن أبي حنيفة ثلاث روايات :

١ - رواية محمد بن الحسن عن أبي حنيفة أنّه طاهر.

٢ - رواية أبي يوسف أنه نجس نجاسة خفيفة .

٣ - رواية الحسن أنّه نجس نجاسة غليظة، ولهم من هذا الباب مسائل كثيرة، فثبت أنّ هذا الاشكال مشترك من الجانبين (أي من الشافعي وأبي حنيفة في اختلاف الأقوال).

وسنوقف القارئ الكريم على كثير من ذلك. وقد جعلوا قول الشافعي الجديد ناسخاً لقوله القديم، كما أنّهم قد اكثروا من الاعتذار عن وجود هذا الاختلاف الذي جعله بعض العلماء نقصاً في اجتهاد الشافعي وإدراكه.

قال أبو منصور البغدادي: وليس الشافعي أجلّ من رسول الله (صلى الله عليه وآله) حين سئل عن قذف الرجل امرأته، حتى نزلت آية اللعان، وقد روي أنّ المؤمن وقاف والمنافق وثاب[٤٣٥].

وأنت ترى أنّ هذا النوع من الدفاع عن الشافعي لا موجب له، وهو تعصّب محض وقياس مع الفارق، فليس من الصحيح أن تقاس حوادث الشافعي بالنبي (صلى الله عليه وآله) الذي كان يستمدّ تعاليمه من السماء، وأنّه لا ينطق عن الهوى، إن هو إلاّ وحي يوحى. على أنّ الشافعي قد أراحهم من هذا التكلف، فإنّه لم يدّع العصمة

---

(٤٣٤) مناقب الشافعي للرازي ص٦٨.

(٤٣٥) وقد ورد الحديث بألفاظ مختلفة في كتب الحديث، منها كنز العمال ج١ ص١٦٢ ح٨١٢ وهو «المؤمن كيس... وقاف... والمنافق همزة لمزة...» وكذلك في النهاية في غريب الحديث ج٥ ص٢١٦ و٣٦٠ هو «المؤمن وقاف متأن...» وغيرها من الكتب إلاّ أنه لم نعثر على نص الحديث.

والكمال، وقد دلّت أقواله على خلاف ما يدّعونه له، من صفة الإنسان الكامل الذي لا يعتريه الخطأ والنسيان، كما تقدّم بيانه.

وحدّث البويطي عن الشافعي أنّه قال: صنفت هذه الكتب فلم آل فيها الصواب، فلا بدّ وأن يوجد فيها ما يخالف كتاب الله وسنة رسوله، فما وجدتم فيه ما يخالف كتاب الله وسنة رسوله فإنّي راجع عنه الى كتاب الله وسنة رسوله.

وقال المزني: قرأت كتاب الرسالة على الشافعي ثمان مرات، فما من مرة إلاّ وقد كان يقف على خطأ، فقال لي الشافعي: أبى الله أن يكون كتاباً صحيحاً غير كتابه تعالى. فقول أبي منصور في نصرة الشافعي خطأ محض وجرأة على مقام الرسالة، وليس بغريب على من انغمس في بحر التعصّب للمذهب بأن تصدر منه أمثال هذه المخالفات ، فقد ترك قول النبي (صلى الله عليه وآله) لقول صاحب المذهب، وقد مرّ أنّ بعضهم يسأل عن مذهب النبي (صلى الله عليه وآله) هل كان حنفياً أم شافعياً؟[٤٣٦]

ولسنا الآن بصدد البحث عن هذا، ولكنّ الغرض أنّ أقوال الشافعي قد اختلفت في كثير من المسائل، فهو قد أفتى في بغداد بمسائل، ثم أعرض عنها في مصر، فسميت تلك الأقوال بالمذهب القديم.

وإنّ أقواله القديمة منشورة في أبواب الفقه المختلفة، وأخذ العلماء يوازنون بينها، واختلفت ترجيحاتهم وتصحيحاتهم فيها، بل تناولوا ما رجّحه الشافعي نفسه بالدراسة والفحص، فكانوا يرجّحون القول الآخر إذا وجدوا

حديثاً صحيحاً سيراً على قاعدة الشافعي التي سنّها لنفسه «إذا صحّ الحديث فهو مذهبي».

قال البجرمي: الفتوى على ما في الجديد دون القديم، وقد رجع الشافعي عنه، وهذا كلّه قديم لم يعضده حديث، فإن اعتضد بحديث فهو مذهب الشافعي ، فقد صحّ عنه أنّه قال: إذا صح الحديث فهو مذهبي، واضربوا بقولي عرض الحائط .[٤٣٧]

ولكن بعض الشافعية تردّد في الأخذ بالحديث إن عارض قول الشافعي، لأنه عساه يكون منسوخاً في نظره أو مؤولاً، أو صحّ عند غيره بطريق أقوى من طريقه،

---

(٤٣٦) راجع بهذا الجزء ص ٢٦٩. «والعبارة هي أشافعي هو أم مالكي».
(٤٣٧) سير أعلام النبلاء ج٨ ص٣٩٠ / ١٥٣٩.

وبعضهم إذا وجد حديثاً يخالف رأياً مأثوراً عن الشافعي يأخذ بالحديث الصحيح، ويترك رأي الشافعي.

وقد افتى المتقدّمون من فقهاء الشافعية بعدة مسائل في القديم، وترجيحها على الجديد، واختلفوا في عددها، وحاولوا حصرها في عدد قليل أو أكثر، وقد منع بعضهم الحصر. وحصرها بعضهم في اثنين وعشرين منها :

عدم وجوب التباعد عن النجاسة في الماء الراكد الكثير، والتثويب في الأذان، وعدم انتقاض الوضوء بمس المحارم، وطهارة الماء الجاري ما لم يتغير، وعدم الاكتفاء في الاستنجاء بالحجر إذا انتشر البول، وتعجيل صلاة العشاء، وعدم مضي وقت المغرب بمضي خمس ركعات، وعدم قراءة السورة في الأخيرتين، والمنفرد إذا أحرم الصّلاة ثم انشأ القدوة - أي جواز ذلك - وكراهية تقليم أظافر الميت ، وعدم اعتبار النصاب في الركاز، وشرط التحليل في الحج بعذر المرض، وتحريم جلد الميتة بعد الدباغ، ولزوم الحد بوطء المحرم بملك اليمين، وقبول شهادة فرعين على كلّ من الأصلين. إلى آخر ما ذكر.

وصفوة القول: إنّ اختلاف الشافعية في أقوال الشافعي المختلفة قد فتحت لهم أبواب الترجيح، والتخريج، والموازنة بين أقواله وتطبيقها على الأحاديث، فما كان له شاهد من الحديث قدّم على مالم يكن له شاهد، واشترطوا لذلك شروطاً يأتي بيانها.

وهاتان الناحيتان - القديم والجديد - تظهران جليّاً في كتاب الأمّ، وفي اختلاف الشافعية المتأخرين، إذ يذكرون للمسألة قولين، ويقصدون القديم والجديد، وقد مرّ أنّ أتباع أئمة المذاهب يجعلون أقوالهم هي بمنزلة أقوال النبي (صلى الله عليه وآله) ، وربّما ترك قوله (صلى الله عليه وآله) لقولهم.

وقد قيل في أسباب تحول الشافعي عن أقواله في بغداد: أنّ إنتقاله من بغداد إلى مصر، وتقلبه في عادات جديدة أثر ذلك في تبدل رأيه.

وغير بعيد أنّ الشافعي عندما كان في بغداد كان يرى نفسه تلميذاً لمالك ابن أنس، وبعد ذهابه لمصر بقي مدة ينقل أقوال أستاذه، ثم تحول إلى مرحلة النضوج الاجتهادي في تعمّقه ودراسته، فهجر ما قاله أوّلاً وانتقد أستاذه مالكاً، ووضع الكتب في الردّ عليه، وأعلن بحرمة العمل في قوله الأوّل، ومنع من نقله عنه.

ولكن مدة بقائه بمصر لا تساعده على اكتساب تلك الملكة الاجتهادية، وذلك الأفق الواسع من العلم كما ينقل عنه.

آراؤُه في القرآن

قيل إنّ الشافعي كان يرى أنّ القرآن كلام الله غير مخلوق ويقول: إنّ الله سبحانه وتعالى يقول: **(وكلّم الله موسى تكليما)**[٤٣٨].

ومسألة خلق القرآن من المشاكل المهمّة التي حلّت بالجامعة الإسلامية، والتي أدّت موجة كلامية في تاريخ الإسلام، نجم من ورائها تباعد وعداء، واتّهام بالكفر، ورمي بالزندقة والإلحاد، وإثارة الفتن، وإيقاد نار البغضاء، حتى عدّ من لم يقل بخلق القرآن خارجاً عن الدين ويقتل.

وقد تطوّرت هذه المسألة بعد وفاة الشافعي، وظهر الامتحان بها في سنة (٢١٨ هـ) ففيها دعا المأمون المحدّثين والقضاة الى القول بخلق القرآن، محتجاً على أنّه محدث، وكلّ محدث مخلوق، وهذا الرأي السائد عند كثير من علماء عصره. وكان معارضو هذا الرأي يقولون: إنّ القرآن كلام الله تعالى: القائم بذاته المقدسة، وما كان قائماً بذاته لا يكون مخلوقاً.[٤٣٩]

وأخذ المأمون جماعة من الفقهاء فحبسهم وماتوا في السجن[٤٤٠].

وأجاب كثير منهم تقيّة. طمعاً في الوظائف، وإبقاء على النفس. ويتجاوز عدد الذين أجابوا أكثر من ستين عالماً كلّهم من كبار المحدثين، كيحيى بن معين المتوفى سنة (٢٣٣ هـ). ومحمد بن سعد صاحب الطبقات المتوفى سنة (٢٣٠ هـ) وقتيبة بن سعيد المتوفى سنة (٢٤٠ هـ) وغير هؤلاء يأتي الكلام عليهم إن شاء الله تعالى.

ولقد تجاوز أكثر الفقهاء الحدّ في هذه المسألة، فذهبوا إلى كفر من قال بخلق القرآن، وبطلان نكاحه، وأنّ امرأته قد بانت منه، فإن تاب وإلا ضربت عنقه، ولا يدفن في مقابر المسلمين.

---

(٤٣٨) النساء: ١٦٤ .

(٤٣٩) سيأتي بحث هذه المشكلة بمزيد من البيان في الجزء السابع ضمن بحث أسباب التخلف والتأخر.

(٤٤٠) منهم يوسف بن يحيى البويطي خليفة الشافعي في مصر، مات في سجن بغداد سنة (٢٠٦ هـ)، ونعيم بن حماد الخزاعي، مات في السجن سنة (٢٢٨ هـ)، وعبد الأعلى بن مسهر الغساني، مات في سجن المأمون سنة (٢٠٨ هـ) وغيرهم سيأتي بيانهم في الجزء الرابع إن شاء الله.

وقال: إنّ من وقف وقال: لا أقول أنّ القرآن مخلوق أو غير مخلوق فقد ضاهى بالكفر، ومن زعم أنّ لفظي بالقرآن مخلوق فهو مبتدع، لا يجالس ولا يكلّم.

وكان أحمد بن حنبل لم يقبل توبة أحد ممن يقول بخلق القرآن، بل كان يرتب عليهم آثار الكفر وأحكامه، فلم يشيّع جنائزهم، ولم يُصلّ على واحد منهم، وحرّم الكلام معهم.

ولقد أخذت هذه المسألة دورها في ذلك العصر، حتى أنّ امرأة جاءت إلى القاضي فقالت: طلقني فإن زوجي يقول بخلق القرآن.

ثم اتسعت الحالة فخرجت عن اعتقاد البشر الى الجنّ، وأنّهم يقولون بذلك إلى آخر مافيها من تطور وتأزم كما سيأتي في الجزئين: الرابع والسابع إن شاء الله.

وبالجملة، فإنّي أرى أنّ ما ينقل عن الشافعي من التشدد في هذه المسألة لا يخلو بعضه من مبالغة، كما لا يخلو من زيادة - نسبة للظروف المتأخرة - إذ المسألة في عصر الشافعي لم تأخذ أثرها في المجتمع بذلك الشكل الذي يجعلنا نثق بصحة كل ما جاء عن الشافعي فيه، مع أنّا لا نريد ان ندفع عن الشافعي ما كان يراه، أو نقول بعدم صحة النقل عنه، ولكنّا نشكّ في تشدّده في أمر من يقول بخلق القرآن.

قال الربيع بن سليمان: سمعت الشافعي يقول: من حلف باسم من أسماء الله فحنث فعليه الكفّارة، لأنّ اسم الله غير مخلوق، ومن حلف بالكعبة أو بالصفا والمروة فليس عليه كفارة، لأنّه مخلوق وذاك غير مخلوق .[٤٤١]

وقال الربيع بن سليمان: حدّثني من أثق به، قال: كنت حاضراً في المجلس فقال حفص الفرد: القرآن مخلوق، فقال الشافعي: كفرت بالله العظيم .

وقال الربيع أيضاً: حضر عبد الله بن عبد الحكم، ويوسف بن عمر، وحفص الفرد، وكان الشافعي يسمّيه حفص المنفرد، فسأل حفص عبد الله بن عبد الحكم وقال: ما تقول في القرآن؟ فأبى أن يجيبه، ثم سأل يوسف بن عمر فلم يجبه، وكلاهما أشارا للشافعي، فسأل الشافعي فاحتجّ عليه الشافعي، وأقام الحجّة عليه بأنّ القرآن كلام الله غير مخلوق، وكفّر الشافعي حفصاً. قال الربيع: فلقيت حفصاً في المجلس فيما بعد فقال: أراد الشافعي قتلي.[٤٤٢]

رأيه في الرؤية

---

(٤٤١) آداب الشافعي ص١٩٥.

(٤٤٢) آداب الشافعي ص١٩٥.

قال الربيع: كنت يوماً عند الشافعي، وجاءه كتاب من الصعيد يسألونه عن قوله تعالى: (**كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ**)[٤٤٣].

فكتب الشافعي: لمّا حجب قوماً بالسخط، دلّ على أنّ قوماً يرونه بالرضا، قال الربيع: أو تدين بذلك ؟

قال: والله لو لم يدن محمد بن إدريس أنّه يرى ربّه في المعاد لما عبده في الدنيا.[٤٤٤]

وبهذا يتضّح لنا رأي الشافعي: أنّ الرؤية محقّقة في الآخرة، ولولا ذلك لما عبد الله في الدنيا.

وقد اختلف المسلمون في رؤية الله تعالى، فذهب قوم الى جوازها في الدنيا والآخرة، ومنعها آخرون في الدنيا ووقوعها في الآخرة، كما هو مذهب الشافعي.[٤٤٥]

وذهب أهل البيت(عليهم السلام)وشيعتهم إلى استحالة الرؤية في الدنيا والآخرة، وعدم امكانها لأنه تعالى (**لاَّتُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ**)[٤٤٦] لأنّ الأبصار إنّما تتعلّق بما كان في جهة أصلاً أو تابعاً، كالأجسام، والهيئات، وعلل ذلك بأنّ الباصرة لا تكون في حيّز الممكنات مالم تتصل أشعة البصر بالمرئي، ويمتنع اتصال شيء ما بذاته جلّ وعلا.

وللإمام أبي الحسن الهادي (عليه السلام) أسلوب آخر في تقرير هذا الوجه، يوافق رأي الفلاسفة من أهل هذا العصر. أخرج الكليني في باب إبطال الرؤية،من كتاب التوحيد من أصول الكافي، بسنده إلى أحمد بن إسحاق قال: كتبت إلى أبي الحسن الثالث أسأله عن الرؤية؟ فكتب (عليه السلام): لا تجوز الرؤية - عقلاً - ما لم يكن بين الرائي والمرئي هواء[٤٤٧] ينفذ البصر، فإذا انقطع الهواء عن الرائي أو المرئي لم تصحّ الرؤية.[٤٤٨]

---

(٤٤٣) المطففين: ١٥.
(٤٤٤) طبقات الشافعية ج١ ص٢٣١.
(٤٤٥) مناقب الشافعي، للبيهقي ج١ ص٤١٩ - ٤٢٠.
(٤٤٦) الأنعام: ١٠٣.
(٤٤٧) الهواء : كنه المعنى الذي يعبّر عنه فلاسفة اليوم بالأثير الممتد عندهم من عين الرائي إلى المرئي.
(٤٤٨) الكافي ج١ ص٩٧، ح ٤.

قال سيدنا شرف الدين [٤٤٩] : إنّ العقل الذي عرفنا الله تعالى به يحكم مستقلاً بامتناع رؤية الباري سبحانه، سواء أكانت الرؤية بصرية، أم قلبية، أم خيالية، أم وهمية، لامتناع لوازمها بحكم العقل.

نعم، ندرك بأبصارنا آيات الله في عجائب مخلوقاته (**إنَّ فِي خَلْق السَّمَوَاتِ وَالأرْض وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَار لآيَات لأوْلِى الألْبَاب**)[٤٥٠].

وفي كلّ شيء له آية *** تدلّ على أنّه واحدُ

وندرك ببصائرنا أنّه هو الله، الذي لا إله إلاّ هو، عالم الغيب والشهادة، هو الرحمن الرحيم.

وعن الإمام الرضا (عليه السلام) أخرجه الكليني في أُصول الكافي بسنده إلى صفوان ابن يحيى قال: سألني أبو قرة المحدث أن أدخله على الإمام أبي الحسن الرضا (عليه السلام)فاستأذنته في ذلك، فأذن لي، فأدخلته عليه فسأله عن الحلال والحرام حتى بلغ سؤاله إلى التوحيد، فقال أبو قرة: إنّا روينا أنّ الله قسّم الرؤية والكلام بين النبيين، فقسم الكلام لموسى، ولمحمد الرؤية.

فقال الإمام (عليه السلام): فمن المبلّغ عن الله إلى الثقلين من الإنس والجن في أنّه لا تدركه الأبصار، ولا يحيطون به علماً، وليس كمثله شيء؟ أليس هو محمد (صلى الله عليه وآله)؟.

قال أبو قرة: بلى.

قال (عليه السلام): كيف يجيء رجل إلى الخلق جميعاً فيخبرهم: أنّه جاء من عند الله، وأنّه يدعوهم إلى الله بأمر الله، ويقول لهم عن الله: أنّه لا تدركه الأبصار، ولا يحيطون به علماً، وليس كمثله شيء؟ ثم يقول لهم: أنا رأيت الله بعيني، وأحطت به علماً، وهو على صورة البشر. أما تستحون؟! ماقدّرت الزنادقة أن ترميه (صلى الله عليه وآله) بهذا، ان يكون يأتي من عند الله بشيء ثم يأتي بخلافه!..

قال له أبو قرة: فإنّه تعالى يقول: (**لَقد رآه نُزلة أخرى**).

فقال الإمام (عليه السلام): أن بعد هذه الآية ما يدل على ما رأى (صلى الله عليه وآله)، حيث قال تعالى: (**ماكَذَبَ الفُؤاد مَارأى**) يقول: ماكذب فؤاد محمد ما رأت عيناه، ثم أخبر بما رأى فقال: (**لَقد رَأى مِن آياتِ ربّه الكُبرى**) فآيات الله غير الله تعالى. وقد قال عزّ من

---

(٤٤٩) الفصول المهمة ص٦١ - ٦٢ .

(٤٥٠) آل عمران: ١٩٠.

قائل: (**ولا يُحيطونَ بهِ عِلماً**) فإذا رأته الأبصار فقد أحيط به علماً. قال أبو قرة: أفتكذب الروايات؟.

قال الإمام: إذا كانت الروايات مخالفة للقرآن كذبتها، وقد أجمع المسلمون على أنّه لا يحاط به علماً، ولا تُدركه الأبصار، وليس كمثله شيء.[٤٥١]

ودخل رجل من الخوارج على محمد الباقر (عليه السلام) فقال له: أيّ شيء تعبد فقال (عليه السلام): الله.

قال الرجل: رأيته؟

قال: بلى، لم تره العيون بمشاهدة الأبصار ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان، لا يُعرف بالقياس، ولا يُدرك بالحواس، ولا يُشبه بالناس ، موصوف بالآيات، معروف بالدلالات، ذلك الله لا إله إلاّ هو[٤٥٢].

ولا حاجة إلى الاسترسال بذكر الشواهد على خطأ هذه الفكرة بما ورد عن أهل البيت(عليهم السلام)من تنزيه الله عزّ وجلّ عن إدراك البصر له وتحديده فهو لا يحويه مكان ولا يخلو منه مكان.

أما ما ورد عن الشافعي في هذا فهو يوافق اغلبية الجمهور، وقد نقلوا عنه غير ذلك، وأنه لا يرى هذا الرأي، واتّبع في نفي الرؤية لله تعالى أستاذه مسلم ابن خالد الزنجي، وإبراهيم الأسلمي، وقد نقل ذلك الهمداني في طبقات المعتزلة. وأنّ الشافعي لم يصرّح بأن الرؤية تكون بالباصرة، بل كان يطلق ذلك ويقول: إنّ الله يراه أولياؤه في الآخرة [٤٥٣] والروايات عنه مضطربة ولكنّ أصحابه جعلوا رأيه الصحيح هو ما عليه أغلب بقية المذاهب من الرؤية والإدراك بالحواس.

رأيه في الصفات

عن يونس بن عبد الأعلى المصري، قال: سمعت أبا عبد الله محمد بن إدريس الشافعي يقول وقد سئل عن صفات الله وما ينبغي أن يؤمن به: لله تبارك وتعالى أسماء وصفات جاء بها كتابه، وأخبر بها نبيّه (صلى الله عليه وآله) أُمته، لا يسمع أحداً ممن خلق الله قامت عليه الحجة: أنّ القرآن نزل به وصحّ عنه بقول النبي(صلى الله عليه وآله)، فما روي عنه العدل، فإن خالف ذلك بعد ثبوت الحجّة عليه فهو والله كافر، فأمّا

---

(٤٥١) الكافي ج١ ص٩٥ ـ ٩٦، ح ٢ .

(٤٥٢) الكافي ج١ ص٩٧ باب إبطال الرؤية ح٥ .

(٤٥٣) طبقات الحنابلة للقاضي محمد بن أبي يعلى ج١ ص٢٨٣ ـ ٢٨٤ .

قبل ثبوت الحجة عليه من جهة الخبر فمعذور بالجهل، لأنّ علم ذلك لايدرك بالعقل ولا بالرؤية والفكر، ونحو ذلك اخبار الله سبحانه وتعالى، أتانا أنّه سميع وأنّ له يدين، بقوله: (**بل يَداهُ مَبسُوطتان**) وأنّ له يميناً بقوله: (**والسَّمَاوَاتُ مَطويَّاتٌ بيَمِينه**) وأنّ له وجهاً، بقوله: (**كُلّ شَيء هَالِكٌ إلاّ وَجهَهُ**)وقوله: (**وَيَبقى وَجهُ رَبّك ذو الجلال والإكرام**) وأنّ له قدماً، بقول النبي (صلى الله عليه وآله): «**حتى يضع الربّ فيها قدمه**» يعني جهنم. وأنّه يضحك من عبده المؤمن بقول النبي (صلى الله عليه وآله)- للذي قتل في سبيل الله - : أنّه لقي الله وهو يضحك إليه[٤٥٤] وأنّه يهبط كلّ ليلة إلى سماء الدنيا بخبر رسول الله (صلى الله عليه وآله)، وأنّه ليس بأعور، بقول النبي (صلى الله عليه وآله) - إذ ذكر الدجال - فقال: «إنّه أعور، وأنّ ربّكم ليس بأعور، وأنّ المؤمنين يرون ربّهم يوم القيامة بأبصارهم، كما يرون القمر ليلة البدر» وأنّ له اصبعاً، بقول النبي(صلى الله عليه وآله): «**ما من قلب إلا هو بين اصبعين من أصابع الرحمن عزّ وجلّ**».[٤٥٥]

فإنّ هذه المعاني التي وصف الله بها نفسه، ووصفه بها رسوله. ممّا لا تدرك حقيقته بالرؤية والفكر، فلا يكفر بالجهل بها أحد إلا بعد انهاء الخبر إليه بها.

فإن كان الوارد بذلك خبراً يقوم في الفهم مقام المشاهدة في السماع، وجبت الدينونة على سامعه بحقيقته والشهادة عليه، كما عاين وسمع من رسول الله (صلى الله عليه وآله). ولكن يثبت هذه الصفات وينفي التشبيه، كما نفى ذلك عن نفسه تعالى ذكره، فقال: (**لَيسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ وَهُوَ السَّمِيع البَصِيرُ**).[٤٥٦]

رأيه في الإمامة

كان الشافعي يرى أنّ الإمامة في قريش، ولا يشترط البيعة، روى عنه تلميذه حرملة أنّه قال: كلّ شيء غلب على الخلافة بالسيف، واجتمع عليه الناس فهو خليفة [٤٥٧] فالعبرة عنده في الخلافة بأمرين: كون المتصدّي لها قرشيّاً، واجتماع الناس عليه، سواء أكان الاجتماع سابقاً على إقامته خليفة، كما في حال الانتخاب والبيعة، أم لاحقاً لتنصيبه نفسه خليفة، كحال التغلب، وهذا لا يُسمّى اجتماعاً.

ولم يشترط الهاشمية، بل القرشية كافية. وكان يرى: أنّ علي بن أبي طالب هو الإمام الحقّ في عصره، وأن معاوية وأصحابه كانوا الفئة الباغية، ولذلك اتخذ في

---

(٤٥٤) طبقات الحنابلة للقاضي محمد بن أبي يعلى ج١ ص٢٨٣ ـ ٢٨٤، مناقب الشافعي للبيهقي ج١ ص٤٢٠.
(٤٥٥) طبقات الحنابلة ج١ ص٢٨٤.
(٤٥٦) الشورى: ١١.
(٤٥٧) مناقب الشافعي للبيهقي ج١ ص٤٤٨.

كتاب السير سنّة عليّ (عليه السلام) في معاملة البغاة، كما هو مدون ثابت في كتاب (الأم) وغيره من كتب الشافعية، لذلك اتهم الشافعي بأنه رافضي. كما تقدم بيانه.

فهو لا يبالي بأن يظهر حبّ آل محمد. وإن اعترضت حواجز في طريق إظهار الحبّ، كما شاءت السياسة بأن يرمى محبّ أهل البيت(عليهم السلام)بكلّ تهمة، ويكون عرضة للخطر. وقد أعلن الشافعي ذلك بقوله :

إن كان رفضاً حبُ آل محمد *** فليشهد الثقلان أني رافضي

وكان يذكر علياً بكل إعجاب وتقدير، وله أشعار في مدحه تأتي في محلّها. وسُئل يوماً عن عليّ (عليه السلام) فقال: ما أقول في رجل أخفت أولياؤه فضائله خوفاً، وأخفت أعداؤه حسداً، وشاع له من هذين ما ملأ الخافقين .(٤٥٨)

وأخذ هذا المعنى السيد تاج الدين فقال:

لقد كتمت آثار آل محمد *** محبوهمو خوفاً وأعداؤهم بغضاً

فشاع لهم بين الفريقين نبذة *** بها ملأ الله السماوات والأرضا(٤٥٩)

وحكى البيهقي في مناقب الشافعي: أنه قيل إن أُناساً لا يصبرون على سماع منقبة لأهل البيت(عليهم السلام)، فإذا أراد أحد أن يذكر شيئاً من ذلك قالوا تجاوزوا عن هذا فهو رافضي، فأنشأ الشافعي يقول :

إذا في مجلس ذكروا علياً *** وسبطيه وفاطمة الزكية

يقال تجاوزوا ياقوم هذا *** فهذا من حديث الرافضية

برئت إلى المهيمن من أناس *** يرون الرفض حبّ الفاطمية(٤٦٠)

وسيأتي في باب اتّهامه بالتشيع زيادة بيان لهذا. هذا موجز البيان في رأيه في الإمامة. أمّا رأيه في الخلافة والخلفاء، فكان يقول: الخلفاء خمسة: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وعمر بن عبد العزيز (٤٦١)، أما الباقون في نظره فهم ملوك.

رأيه في علم الكلام

المعروف عن الشافعي أنّه كان يبغض علم الكلام وينهى عنه، حتى ذهب إلى عدم جعل كتب الكلام من كتب العلم، كما حدّث الربيع: أنّ الشافعي كان يقول: لو أنّ

---

(٤٥٨) وقائع الأيام ج٣ ص٤٧٤، شرح نهج البلاغة ج١ ص١٦، كشف اليقين ص٣، حق اليقين ص٣٠٢.

(٤٥٩) أعيان الشيعة ج٣ ص٦٢٧.

(٤٦٠) جواهر العقدين ص٢٥٣ ـ ٢٥٤.

(٤٦١) مناقب الشافعي للبيهقي ج١ ص٤٤٨.

رجلاً أوصى بكتبه من العلم وفيها كتب الكلام لم تدخل كتب الكلام في تلك الوصية.[٤٦٢]

وكان يرى لزوم تعزير أهل الكلام، وضربهم وإهانتهم، وأن يطاف بهم في العشائر. واشتهر عنه أنّه كان يقول: إيّاكم والكلام. وكان يقول: ولئن يبتلي الله المرء بكلّ ما نهى عنه - ماعدا الشرك به - خير من أن ينظر في الكلام.[٤٦٣]

وهذا التشديد من الشافعي يدلّ على بغضه لعلم الكلام، وعدم الرضا بتعلّمه والنظر فيه، وهذا غريب جداً فإنّ العصر الذي نشأ فيه الشافعي قد نضج فيه الكلام، واتّسع نشاط المتكلمين وأثاروا في المجتمع مسائل كثيرة وقد كثر النقاش والجدل، وكان لابدّ لكلّ عالم أن يلتمس الدلائل والبراهين الفلسفية، لتقوية جانبه والرد على مخالفيه.

وكان لا بد من الانهزام أمام ذلك التيار; إذا لم يكن هناك استعداد وقابلية للمقابلة، والردّ عند خوض تلك المعارك التى دارت رحاها في عصره.

وقد علّل الرازي نهي الشافعي عن علم الكلام وبغضه: بأنّ المعتزلة قد حرّضوا الخلفاء على أذى العلماء، وقد كانوا هم القوامين على هذا العلم، وأنّ الفتن العظيمة وقعت في ذلك الزمان بسبب خوض الناس في مسألة خلق القرآن، وأهل البدع استعانوا بالسلطان وقهروا أهل الحقّ، ولم يلتفتوا إلى دلائل المحقّين، وتلك الحكايات والواقعات مشهورة ، فلما عرف الشافعي أنّ البحث عن هذا العلم في ذلك الزمان ليس لطلب الحقّ، وليس لله وفي الله، بل لأجل الدنيا والسلطنة، فلا جرم أنّه تركه واعرض عنه وحرّم من اشتغل به.[٤٦٤]

وفي الواقع أنّ التعليل بعيد عن الواقع، لأنّ تلك الأمور التي أشار إليها كانت بعد موت الشافعي، وأنّ أكثر ما ذكره يحتاج إلى إثبات.

وعلى أيّ حال: فهل كان الشافعي مع نهيه عن علم الكلام على جهل به؟ مع أنّا نرى له ما يدلّ أنه يتعاطاه ويناظر فيه.

وبهذا نكتفي عن بيان آرائه، وسنعود إن شاء الله تعالى.

تنبيـــه

---

(٤٦٢) سير أعلام النبلاء ج٨ ص٣٨٧ / ١٥٣٩.
(٤٦٣) مناقب الشافعي، للبيهقي ج١ ص٤٥٨.
(٤٦٤) مناقب الشافعي للرازي ص٤١.

لم أتعرّض لذكر حديث «عالم قريش» الذي استندت إليه الشافعية في البشارة بالشافعي; لأنّـي كنت مطمئنّاً من عدم صحة الاستدلال به - إن قلنا بصحته -، إذ لا مجال للمغالطة وتضييع الوقت في ذلك، ولكنّي رأيت كثيراً من علماء الشافعية قد أخذ هذا الحديث بعين الاعتبار، ورتّب عليه نتائج تلزم بوجوب اتباع الشافعي.

يقول بعضهم: في هذا الحديث - أي حديث عالم قريش - علامة بيّنه، إذا تأمله الناظر المميّز علم أنّ المراد به رجل من قريش ظهر علمه، وانتشر في البلاد، وكتب كما تكتب المصاحف، ودرسه المشايخ والشبان في مجالسهم، وأجروا أقاويله في مجالس الحكام والقراء، وأهل الآثار وغيرهم. وهذه صفة لا نعلمها في أحد غير الشافعي، فهو عالم قريش الأفضل.(٤٦٥)

هكذا نظر هذا الإنسان لهذا الحديث، فتلقنها من جاء بعده، فإنّهم ينقلون هذه العبارة بالنص، وليس كلّ إنسان مصيباً في رأيه، فالنظر يصيب ويخطئ، وبدون شك أنّ هذا كان متأثراً بالبيئة التي يعيش فيها والمجتمع الذي يندمج فيه. ولا أُريد أن أتحدّث عن جميع فقرات هذه الكلمات التي أصبحت كمنهج متبع ولكني أُريد أن أتساءل :

هل كانت قريش على درجة من الانحطاط والخمول والجهل ليكون الشافعي حامل لواء نهضتها، ولسانها الناطق، وعالمها الأوحد؟

وهل بلغ الشافعي بعلمه تلك الدرجة التي لم ينالوها، وعرف من غوامض العلوم ما لم يعرفوه ؟

وهل كان انتشار علمه عن نفسه لنفسه، أو بمشجّع من عوامل لو تهيأت لمن هو دونه لكان علمه منتشراً مقبولاً ؟

أمّا الجواب عن هذه الأسئلة فيسير لا عناء في الحصول عليه، لأنّ التاريخ طافح بتكذيب تلك الادعاءات الكاذبة.

وحاشى قريشاً وهم أعلم الناس ومفخرة العرب أن تمرّ عليها قرون لا تعرف بالعلم، ولم ينشر لها شيء، إلاّ بعد أن بعث الشافعي فبعثها من رقدتها!

ونحن إذا أردنا أن نتصدّى للردّ ونتعرّض للنقد نخرج عن موضوع البحث.

---

(٤٦٥) تهذيب الأسماء واللغات ج١ ص٥٢.

وإنّ هذا الفهم الذي فهمه ذلك الإنسان وتابعه مقلّدوه. لم يكن فهم عقل وتفكير، بل هو فهم تلقين من ناحية معينة، والحقيقة شيء والعاطفة شيء آخر، لأنّ العاطفة طاغية تسيطر على العقل فتطفئ شعلته، وتطغى على الواقع فتضيعه، وتحكم على الفكر بالجمود، ولكن من أين يستطيع الوصول إلى الواقع من كبّلته قيود التقليد، وأثقلته أوزار التعصّب الممقوت؟!

أما الحديث الذي أشرنا إليه فهو: عن أبي هريرة عن النبي (صلى الله عليه وآله) أنّه قال: «اللهم أهد قريشاً فإن عالمها يملأ طباق الأرض علماً».[٤٦٦]

ومع التسليم بصحّة هذا الحديث، فإنّ انطباقه على الشافعي بعيد جداً لوجود الكثير من علماء قريش ممّن له أهليّة الإتصاف بذلك، ولكن أكثر علماء الحديث قد ذهبوا إلى وضع هذا الحديث، وقد نصّ على ذلك ابن أبي الحوت في «أسنى المطالب»[٤٦٧] والاسفرائيني في «سفر السعادة»[٤٦٨] وغيرهما.

عصر الإمام الشافعي وأحداثه

يمتدّ عصر الشافعي من آخر خلافة المنصور المتوفى سنة (١٥٨ هـ)، إلى أول خلافة المأمون، أي من سنة (١٥٠ هـ) إلى سنة (٢٠٤ هـ)، وعلى هذا فقد أدرك الشافعي ثماني سنين من خلافة المنصور، وخلافة المهدي المتوفى سنة(١٦٥هـ) وخلافة الهادي المتوفى سنة (١٧٠ هـ)، وخلافة الرشيد المتوفى سنة(١٩٣ هـ)، والأمين المقتول سنة (١٩٨ هـ). وست سنين من خلافة المأمون.

ونحن إذا أردنا أن نلحظ أدوار الدولة العباسية، نجد هذه الفترة من أزهر العصور وأهمّها، وإن كانت لاتخلو من حوادث هامة، تهدّد كيان الدولة وتنغص عيش أربابها، ولكن تلك الحوادث كانت هينة بالنسبة لقوة الدولة، عندما استقرّ أمرها وتمكن سلطانها، وازدهرت حياتها في امتداد نفوذها، واتّساع دائرتها. فهي تمتدّ من الأندلس إلى الممالك التي تصاقب الصين شرقاً.

وكانت المملكة الإسلامية واسعة الأطراف، وقد أخذت المدن الإسلامية حضارتها في العلم، والتجارة، والصناعة، ونشطت الحركة العلمية، واقتبس العلماء من فلسفة اليونان.

---

(٤٦٦) توالي التأسيس ص٤٣.
(٤٦٧) أسنى المطالب ص٢٣٣ - ٢٣٤ .
(٤٦٨) سفر السعادة ص٢٨١.

كما نشطت حركة الترجمة، وانتشر علم الكلام. وقد ساهم الخلفاء بتشجيع تلك الحركة. إلى آخر ما هنالك من عوامل امتياز ذلك العصر، من مظاهر فكرية واجتماعية واقتصادية، وفي ذلك العصر بلغت الدولة العباسية أوج عظمتها، عندما استطاعت أن ترغم خصومها على عدم المعارضة، بوسائل البطش والإرهاب، واستعمال أنواع ألوان التعذيب، وكانت لاتعف عن ارتكاب أشنع وسائل العنف، تحقيقاً لسيادتها.

ويكفي أن نستدلّ على ذلك بما ارتكبوه في معاملة العلويين وأنصارهم ومن كانوا يخشون معارضته لسيرتهم الملتوية،، وأعمالهم الشاذة، عندما كبّلوا الأمة بقيود جديدة من العبودية، وسلبوا حرية المجتمع، وتلاعبوا بالأموال، وجعلوها وقفاً على أنفسهم، ولا ينال منها إلاّ المتقرّبون منهم، وعامة الناس منها محرومون، وتفننوا بذاك الثراء الطائل في وجوه حياتهم، في الشراب والطعام، وغير ذلك من وسائل العيش. فكانت حياتهم مضرب المثل في الرغد والسرف والبذخ.

بذخ الدولة العباسية

تدفّقت الأموال على الدولة العباسية من جميع الاقطار، وامتلأت خزائنها بما يجبيه العمّال، بمختلف الطرق وشتّى الوسائل، حتى أنّهم كانوا يستولون على أموال الناس وأملاكهم بدون حقّ، لأنّهم لا يحاسبون على ذلك من قبل الخليفة. كما حدّث المسعودي: عن الرجل الهمداني الذي أراد والي همدان أن يغتصب ضيعته، التي تساوي ألف ألف درهم، فامتنع. فكبّله بالحديد، وحمله إلى المنصور، فأودع في السجن أربعة أعوام لا يُسأل عنه، ولا ينظر في أمره.[٤٦٩]

كما أنّ المنصور نفسه كان يأخذ أموال العمّال الذين يعزلهم ويجعلها في بيت خاص، وأوصى بتسليمها إليهم بعد موته، ولا نعرف أسباب المنع لها في حياته.

وقد جاء في وصيّته لولده المهدي: وقد جمعت لك من الأموال ما أن انكسر عليك الخراج عشر سنين كفاك لأرزاق الجند والنفقات، والذرية ومصلحة البعوث، فاحتفظ بها، فإنّك لا تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً، وما أظنّك تفعل.[٤٧٠]

---

(٤٦٩) مروج الذهب ج ٣ ص ١١٥.

(٤٧٠) الكامل لابن الأثير ج ٦ ص ٦ .

ولا نعلم مقدار هذه الثروة الطائلة، والوفر الهائل الذي كنزه المنصور من أموال الأمة الإسلامية، وأبناؤها يعانون الحرمان، ويمنعون من حقّهم في بيت مال المسلمين.

ولمّا ولي المهدي[٤٧١] وكان عكس أبيه في إنفاق الأموال والإسراف، فإنّ المنصور كان أبخلهم، وفرّق المهدي من تلك الأموال التي جمعها المنصور في خزينة الدولة مائة ألف ألف، وستين ألف درهم، وأعطى شاعراً - مدحه - خمسين ألف دينار وأعطى لأعرابي - سقاه لبناً - خمسمائة ألف .[٤٧٢]

ودخل عليه مروان بن حفص، فأنشده قصيدة يتعرّض بها لآل علي (عليه السلام)منها :

هل تطمعن من السماء نجومها *** بأكفّكم أو تسترون هلالها
أو تدفعون مقالة عن ربّكم *** جبريل بلّغها النبيّ فقالها
شهدت من الأنفال آخر آية *** بتراثهم فأردتمو إبطالها

فلمّا سمعها المهدي تزاحف من صدر مصلاّه، وأخذه الفرح، ثم قال له: كم هي؟ قال مائة بيت، فأمر له بمائة ألف درهم.[٤٧٣]

واندفع الشعراء بدافع الطمع يمدحون العباسيين، ويضعون من العلويين طلباً للمادة وحبّاً للصلة، طالما كان صرف الأموال بغير حساب!!

ومضى عهد المهدي والهادي [٤٧٤] والأموال تتضخم، وجاء دور الرشيد فكان عهده عهد رخاء وسعة إلى أبعد حد، وبالغ الرشيد في البذخ والترف، وتفنن في حياته حتى بلغ مبلغ الإسراف، وبلغت مظاهر الحياة عنده إلى غايتها، فكان في داره من الجواري والخصايا وخدمهن، وخدم زوجته واخواته أربعة آلاف جارية. وحضرن عنده يوماً فغنّته المطربات منهن، فطرب جداً وأمر بمال فنثر عليهن، وكان مبلغ ما حصل لكل واحدة منهن ثلاثة آلاف درهم.[٤٧٥]

---

(٤٧١) المهدي هو محمد بن عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس، المتوفى سنة (١٦٩ هـ) وكان سبب موته أنّه خرج الى الصيد فتبع وحشاً، فدخل الوحش خربة وتبعته الكلاب وتبعها المهدي، فدق ظهره في باب الخربة لشدة عدوه فمات لساعته، وقيل أنه أكل طعاماً مسموماً، وكانت مدة خلافته عشر سنين وأشهراً.

(٤٧٢) شذرات الذهب ج ١ ص ٢٦٧.

(٤٧٣) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج ١٣ ص ١٤٤، ١٤٦، الأمالي للسيد مرتضى ج٣ ص٥ .

(٤٧٤) الهادي هو موسى بن محمد المهدي بن المنصور، أبو محمد الهادي، المتوفى سنة (١٧٠ هـ)، كانت مدة خلافته سنة، ويقال في سبب موته: انّ أمّه الخيزران هي التي تولت قتله بوسادة وضعتها عليه، لأنه أراد قتل أخيه الرشيد، وقيل غير ذلك. وكان موسى قاسي القلب جباراً ظالماً.

(٤٧٥) تاريخ ابن كثير ج ١٠ ص ٢٢٠.

وغنّاه مسكين المدني فأطربه، فأمر له بأربعة آلاف دينار [٤٧٦] وأضحكه ابن مريم فأعطاه ألف دينار. وكانت زوجته زبيدة لا تستطيع ان تقوم لكثرة ما عليها من المجوهرات والحلل، وقد سلكت في صرف الأموال طريقة الرشيد، فكانت تستهين بالأموال ولا تحسب لها أيّ حساب.

خرج الرشيد منها يوماً يضحك فسئل عن ذلك فقال: دخلت اليوم على هذه المرأة - يعني زبيدة - فأقلت عندها فما استيقظت إلا على صوت ذهب يصبّ، وقالوا هذه ثلاثمائة ألف دينار قدمت من مصر، فقالت زبيدة هبها لي يا ابن عم، فقلت: هي لك، فما خرجت من عندها حتى عربدت عليّ وقالت: أيّ خير رأيته منك .[٤٧٧]

وأهدت لأبي يوسف القاضي لأجل فتوى أفتاها توافق مرادها فكان فيها: حقّ فضة فيه حقّان، في كلّ حقّ لون من الطيب، وجام ذهب فيه دراهم، وجام فضة فيه دنانير وغلمان وتخوت من ثياب وحمار وبغل [٤٧٨].

واشترى الرشيد من مسلم بن عبد الله العراقي درّة بسبعين ألف دينار واشترى فص ياقوت أحمر بثمانين ألف دينار، وكان وزنه مثقالاً ونصفاً، وكانت بيده سبحة فيها مائة حبة كلّ حبة اشتريت بمائة ألف دينار.[٤٧٩]

وهكذا كانت الأموال تنفق في البذخ والإسراف، وتوزّع بين طبقة خاصة من الناس، ويتنعّم بها أفراد قلائل، وقد استغل الولاة هذه الفرصة; فجمعوا الأموال الطائلة، وادخروا العروض وبنوا الأملاك، وقد ترك سليمان بن جعفر العباسي ستين ألف ألف دينار ما عدا المتاع والدواب.[٤٨٠]

وهكذا غيره من الولاة والأمراء ومن سار في ركاب الدولة من سائر الناس. على حين أنّ هناك آلافاً من المسلمين قد تلاطمت بهم أمواج العسرة، ولعبت بهم عوامل الفقر المدقع، لأنّ ثروة الأمة وأموال المسلمين أصبحت تحت تصرف الطبقة الحاكمة من نساء ورجال، يتصرّفون بها في لذّاتهم بغير مانع ولا رادع، وكانوا يتفننون في الملبس والمأكل، فيجلبون لحوم الطيور ولو بعُد مكانها، فتأتيهم على البريد وينفقون على ذلك الأموال الطائلة، ليتنعّموا في المأكل[٤٨١] كما وقد جلبت لهم الفواكه من

---

(٤٧٦) مروج الذهب ج ٣ ص ٢٧٩.
(٤٧٧) البداية والنهاية ج ١٠ ص ٢١٩.
(٤٧٨) مروج الذهب ج ٣ ص ٢٦٠ .
(٤٧٩) انظر أحمد بن حنبل ،عبد الحليم الجندي ص٧٣ ـ ٧٩ .
(٤٨٠) تاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ٤٦٣.
(٤٨١) ثمار القلوب ج ١ ص ٤٢٨.

أقصى البلدان، واتخذوا الأسرّة الذهبية المرصّعة بالجوهر والحصر المنسوجة بالذهب المكلّلة بالدر والياقوت.[٤٨٢]

وكان شغف نسائهم بالتفنن في ألوان الزينة يبعث على العجب والاستغراب، كما وأنهنّ اتّخذن من الأملاك ما كانت وارداته أكثر من ألف ألف وستمائة ألف دينار.

إلى جانب ذلك اتخاذهم مجالس الشرب والغناء، واغداقهم في العطاء على المغنّين، حتى أنّ بعض المغنّين الذي كان يغني لسيدة، أورث ابناً له أربعين ألف دينار.

وقد جعل الرشيد للمغنين مراتب وطبقات. وكان الأمين لا ينقطع عن الشراب. ووجّه إلى جميع البلدان في طلب المغنّين، وأجرى لهم الأرزاق وغنّاه أحد المغنّين فأعطاه أربعين ألف دينار.

كما وقد زاد نشاط الجواري لشغف الخلفاء بهنّ، فكان لهنّ نفوذ في المملكة وسلطة على الأمر. وكانت لهارون الرشيد جارية تسمى «هيلانة» لها منزلة عنده. فلمّا ماتت رثاها بأبيات من الشعر، كما رثاها الشعراء تبعاً لرغبته فأجاز بعضهم أربعين ألف دينار.[٤٨٣]

هذا في الوقت الذي نجد رجال الأمّة وصلحاءها والأحرار من أبنائها يتجرّعون غصص الحاجة، وكان نصيب أكثرهم الخوف والتشريد، وظلمة السجون والتعذيب والقتل. كما نجد ألوان العذاب تصبّ على رؤوس أهل الخراج من قبل عمال الدولة، ويعاملونهم أسوأ معاملة وأقساها.

ولا يسعنا المضي في الموضوع بأكثر من هذا. والغرض الذي سقنا لأجله هذه الأمور، هو إعطاء صورة عن بذخ ذلك العصر، والإسراف الذي بلغ إلى أبعد حدّ، ولم يقتصر ذلك على عصر الرشيد بل اندفع أحفاده وأولاده إلى التبذير بصورة ربّما تكون أوسع وأكبر.

فإنّا نجد الأمين قد أسرف إلى أبعد حدّ. وكان المعتصم [٤٨٤] لا يقل درجة عنه; فقد ترك ثروة طائلة كان منها ثمانية آلاف ألف دينار من الذهب، وثمانية عشر ألف ألف درهم، ومن الخيل ثمانين ألف فرس، ومن الجمال والبغال مثل ذلك، ومن

---

(٤٨٢) ابن خلدون ج ٥ ص ١٠٦.

(٤٨٣) تاريخ ابن كثير ج١٠ ص ١٦٥.

(٤٨٤) هو أبو إسحاق محمد المعتصم بن هارون الرشيد، وهو ثامن خلفائهم، وكان أُميّاً لا يحسن القراءة، أكثر من استخدام الترك، وكان له من المماليك منهم عشرون ألفاً ، توفي في ربيع الأول سنة (٢٢٧ هـ).

المماليك ثمانية آلاف، ومثلهم من الجواري[٤٨٥] وكذلك المتوكل، والواثق، وقد كان المتوكّل ينفق الأموال خاصة في مجالس الشرب، وبناء القصور، واتخاذ الجواري.

وإنّه لمن المؤسف حقّاً عدم انكار العلماء الذين نالوا رضا أُولئك الملوك وسعدوا بقربهم، وكيف ينتظر منهم الانكار وقد استخدموهم لمصالحهم الخاصة وأقاموا منهم ستاراً تُملى من ورائه إراداتهم، واستعانوا بهم في فسح المجال لمؤاخذة الخصوم بالاتهام والانتقاص، ولو أنّهم رفعوا أصواتهم بالانكار وانضمّوا لجانب المعارضين لهان الخطب واعتدل الأمر، سواء من ناحية أحوال العاملين في العلم والذين يتبوؤن مواقع الافتاء والإرشاد، أو من ناحية الحكم، لأنّ حضور العالم الذي يعرف ما عليه وهو عند الحاكم يجعل الحاكم يراعي ولو قليلاً مبادئ العدل ووصايا الإسلام في الرعية، ولقد ضمّت مسانيد وصحاح رؤساء المذاهب أحاديث مشهورة جمعت في هذه الفترة، ولم يكن الأمر غريباً على العلم ولا على سيرة العلماء في التصدّي للجائرين، فخير الشهداء من قال كلمة حقّ عند سلطان جائر. لذلك نرى أنّ تاريخ أهل البيت يثير في نفوس الحكام مشاعر القلق، وسير رجالهم المعاصرين تبعث فيهم الخوف. أضف الى أنّ نصيب من انتمى إليهم من العلماء يكون الضيق والسجن. وقد أشرنا الى وجود العالم عند الحاكم كما هو واقع الحال، أمّا الإسلام فيدعو الى احترام العلم وإجلال العلماء من قبل الحكام والعامة، وكان النبيّ(صلى الله عليه وآله)يشير الى هذا الأمر الذي سيحدث لمعالجته، وأنّ خير الحكام من كان على أبواب العلماء، وشر العلماء من كان على أبواب الحكام.

وصفوة القول أنّ الدولة العباسية قد سارت على طريقة لا تتفق مع نظام الإسلام، مع أنّهم قطعوا على أنفسهم عهوداً تبعث بمؤدّاها على الارتياح بتحقيق مطاليب الأُمة، وجعل نفوذهم السياسي يتمشّى مع تعاليم الاسلام جنباً الى جنب، ولكن تلك العهود ذهبت مع الريح، وكانت أقوالاً فارغة وادعاءات جوفاء.

والذي نودّ الإشارة إليه هو أنّ ذاك الوفر وتلك الثروة الطائلة كان أكثره يصرف في تشجيع معارضة العلويين، والوقوف أمام نفوذهم، فكانوا يجيزون الشعراء الذين ينالون من العلويين أموالاً طائلة.

هذا بشار بن برد المعروف بالزندقة والإلحاد، يتقدم الى المهدي بأبيات منها:

أنّى يكون وليس ذاك بكائن *** لبني البناتِ وراثة الأعمام

فيجيزه بسبعين ألف درهم .

---

(٤٨٥) أنظر شذرات الذهب ج ٢ ص ٦٣، ومرآة الجنان ج ٣ ص ٩٤.

ويقف آخر وهو مروان بن أبي الجنوب، فينشد هذه الأبيات بين يدي الخليفة التي جاء فيها:

لكمو تراث محمّد *** وبعدلكم تشقى الظلامة

الى أن يقول :

ما للذين تنحلوا *** ميراثكم إلاّ الندامة

فيخلع عليه أربع خلع، وينثر ثلاثة آلاف دينار ويأمر بالتقاطها، ويعطي عشرة آلاف درهم، ويعقد له على ولاية البحرين واليمامة[٤٨٦] وكثير من أمثال هذا الشاعر من الذين دفعهم الطمع، وساقهم الشيطان حبّاً في الصلة ورغبة في المال، وارضاءً للسلطة وإن غضب الله عليهم.

اضطهاد الدولة العباسية للعلويين

أمّا العلويون فكانوا يلاقون أنواع العذاب، ويتجرّعون غصص الفاقة، ويتحمّلون كلّ ذلك اعتزازاً بأنفسهم وحفظاً لكرامتهم، ولم يخضعوا يوماً لينالوا من ذلك النعيم، أو يهنأوا بذلك العيش. فكان نصيب زعمائهم القتل والسجن والتشريد، وكانوا بين آونة وأُخرى عرضة لصدور الأمر من عاصمة الملك بتسفيرهم من الاطراف وإليها، ليكونوا تحت الرقابة، وينالوا العقاب هناك، ويصدر مرسوم من بغداد الى مصر بأن لا يقبل علوي ضيعة، ولا يركب فرساً، ولا يسافر من الفسطاط ، أو الى طرف من أطرافها، وأن يُمنعوا من اتخاذ العبيد إلاّ العبد الواحد ، وإن كانت بين علويّ وبين أحد من الناس خصومة، فلا يقبل قول العلوي، ويقبل قول خصمه بدون بيّنة.[٤٨٧]

وأمر الرشيد عامله على المدينة بأن يضمن العلويون بعضهم بعضاً، وكانوا يعرضون على السلطات كلّ يوم فمن غاب منهم عوقب، وكانت هذه الأوامر تصدر من المهدي والهادي قبله.

وما زال آل أبي طالب يكفل بعضهم بعضاً ويعرضون، فغاب أحدهم عن العرض، فطولب به الحسين صاحب فخّ ويحيى بن عبد الله كافلاه، وأغلظ الوالي لهما فحلف يحيى أنّه يأتيه به من ليلته، أو يدقّ عليه الباب يؤذنه به، وذلك إشارة للخروج وإعلان الثورة التي كان من المقرر القيام بها أيام الموسم،ولكن سوء معاملة

---

(٤٨٦) الكامل لابن الأثير ج ٧ ص ٣٨ .

(٤٨٧) الولاة والقضاة للكندي ص ١٩٨.

الوالي أعجلهم على الخروج في تلك الليلة، واقتحموا المسجد وأعلنوا الثورة، وبايع الناس الحسين المعروف بصاحب فخّ ولقّبوه بالمرتضى.

الحسين صاحب فخّ

هو الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب (عليه السلام) [٤٨٨]كانت نهضته سنة (١٦٩ هـ)، وكان الحسين من رجال بني هاشم وساداتهم، وكان ممّن روى الحديث عن الإمام الصادق (عليه السلام) وله منزلة علمية، وكانت أسباب نهضته: أنّه لقي عنتاً من والي المدينة وهو عبد العزيز بن عبد الله من ذرية عمر بن الخطاب، وكان العمري يسيء الى الطالبيين، وأفرط في التحامل عليهم، وطالبهم بالعرض في كلّ يوم، فكانوا يعرضون في المقصورة، وأخذ كلّ واحد منهم بكفالة قرينه ونسيبه. واشتدّ العمري في أمر العرض وولّى على الطالبيين رجلاً يعرف بعيسى الحائك، فحبسهم في المقصورة. إلى آخر ما كان يعاملهم به ذلك الرجل. فثار آل أبي طالب واجتمع اليهم ناس كثيرون. فتحصّن منهم عاملها، فكسروا السجون وأخرجوا من كان بها، وبويع الحسين بن علي بن الحسن(عليه السلام) وعظم شأنه، وبقي الحسين واحداً وعشرين يوماً في المدينة وارتحل إلى مكة فأقام بها الى زمن الحج، فجهّز إليه الهادي جيشاً فالتقوا بموضع يقال له «فخ» بين مكة والمدينة، فقتل الحسين ومعه جماعة من العلويين [٤٨٩] وحمل رأس الحسين إلى القائد العباسي، حمله رجل خراساني وهو ينادي بالبشارة، حتى ألقى الرأس بين يديه، وهو مضروب على الجبهة والقفى فجمعت رؤوس القتلى فكانت مائة ونيفاً[٤٩٠] وافلت إدريس بن عبدالله، فأتى مصر وعلى بريدها أفلح مولى صالح بن منصور، فحمله إلى المغرب فبايعه الناس وأسس هناك دولة.[٤٩١]

حدّث أبو القرناء، قال: أرسلني موسى بن عيسى - قائد الجيش - فقال: اذهب الى عسكر الحسين حتى تراه وتخبرني بكلّ ما رأيت. فذهبت فدرت: فما رأيت خللاً ولا فللاً، ولا رأيت إلاّ مصلّياً أو مبتهلاً أو ناظراً في مصحف أو معدّاً لسلاح، قال فجئت فقلت: ما أظنّ القوم إلاّ منصورين، فقال: وكيف؟ قال: فأخبرته، فضرب يداً على يد

---

(٤٨٨) تاريخ هذا الحادث في مقاتل الطالبيين ص ٢٨٨ - ٣٠٨، والفخري ص ١٧٢، والطبري وابن كثير في حوادث سنة ١٦٩.

(٤٨٩) الآداب السلطانية ص١٧٢، وتاريخ ابن كثير ج ١ ص ١٥٧، والكامل ج ٦ ص ٢٦.

(٤٩٠) تاريخ ابن خلدون ج ٣ ص ٤٥٧.

(٤٩١) تاريخ ابن خلدون ج٣ ص ٤٥٧ .

وبكى حتى ظننت أنّه سينصرف، ثم قال: هم والله أكرم خلق الله وأحقّ بما في أيدينا منّا.

كان هذا الحادث من أهم الحوادث التي شغلت بال الدولة، وأقضّت مضاجع ذوي الأمر، لأنّها كانت في أهمّ مركز إسلامي وهو الحجاز. لذلك اسرع الهادي في مقاومة تلك الحركة خوفاً من اتّساعها في البلاد الإسلامية.

وتتابعت ثورات العلويين غضباً للحقّ، ومن أهمها - أيضاً - ثورة يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب في الديلم، وقد قويت شوكته فاحتال الرشيد عليه بإعطائه الأمان، ونقضه بعد ذلك، فسجنه وضيّق عليه إلى أن مات في السجن، ووجد جسده معلّقاً قد سمرت يداه.
ومضى العبّاسيون في سفك دماء العلويين، وشرّدوهم في البلاد بدون رحمة ولا وازع ديني.

وعلى أيّ حال فقد كان مجتمع ذلك العصر يموج بعناصر مختلفة، وكانت بغداد هي موطن الحكم وعاصمة المملكة، وحاضرة العالم الإسلامي، وقد قصدها كثير من علماء اليونان والفرس والهنود، ونقلت كتب الفلسفة إلى العربية. وظهر علم الكلام ونضج، فكثرت حلقات الجدل والخصومات، وظهرت آراء شاذة، وعقائد فاسدة أثّرت على عقول من لا تقوى نفوسهم على هضمها واحتمالها، فكوّنت هناك فوضى فكرية واضطراباً وحيرة. ونشطت هنالك حركة المتدخلين في الاسلام، لبثّ تلك الآراء التي يأملون من ورائها القضاء على العقيدة الاسلامية، أو إثارة فتن بين المجتمع الإسلامي
على الأقل.

وقد نبغ رجال من علماء المسلمين في علم الكلام، وعرفوا بقوة المناظرة والتفوق في الحجة، وعقدت المجالس والحلقات للمناظرة دفاعاً عن المبادئ الصحيحة والعقائد الاسلامية، وقابلوا تلك النزعات التي نشرت لواء الشك في عقائد ذلك المجتمع، وكان النصر لمن قرّبهم الخلفاء وأدنوا مجالسهم وفتحوا لهم باب قصورهم، أمّا الذين لم يكونوا كذلك فتردّ أقوالهم ولا يصغى لما يدلون به من الحجاج، ومايقيمونه من الأدلة القوية ذوداً عن الإسلام وذبّاً عن حياضه.

وأستطيع أنّ أؤكّد أنّ تلك الحركات الفكرية كانت لها صلة وثيقة بالسياسة، وهي التي تدير كفّتها لتلعب دورها من وراء الستار.

وكانت هذه الناحية وذلك التطور في الآراء والعقائد من أخطر العوامل التي نجم من ورائها تفكك في المجتمع، وتكوين جماعات تختلف في الآراء، وكلٌ يذهب إلى أنّ الحق في جانبه دون غيره.

الزندقة في عرف العباسيين

ومن المشاكل ذات الخطورة في ذلك العصر، مشكلة ظهور الزنادقة وانتشارهم. وأهمّ من ذلك هو أنّ تشخيص الزنديق بطابعه الخاص، الذي يكشف عن شخصيته، لم يكن واضحاً عندما أصبح انطباق هذه اللفظة على معان مختلفة، لأنّ الاتهام بالزندقة كان لأسباب سياسية، عندها اتخذها الخلفاء وسيلة للقضاء على خصومهم، بل كان هناك من الوزراء من يتّخذون من الاتهام بالزندقة سبيلاً للكيد والوقيعة بنظرائهم الذين يحقدون عليهم. لذلك أصبح لفظ الزنديق لفظاً مشتركاً غامضاً، فأطلق على معان مختلفة بعد أن كان يطلق على من يؤمن بالمانوية ويثبت أصلين أزليين للعالم : هما النور، والظلمة، وهذا المعنى هو المطلوب أولاً وبالذات، ثم اتّسع المعنى حتى أطلق على كلّ صاحب بدعة وكلّ ملحد، بل انتهى به الأمر أخيراً إلى أن يطلق على من يكون مذهبه مخالفاً لمذهب أهل السنة، أو حتى من كان يحيى حياة المجون.

كان شريك بن عبد الله القاضي لا يرى الصلاة خلف المهدي، فأحضره وتكلّم معه، فقال له المهدي في جملة كلامه: يا ابن الزانية! فقال شريك: مه مه يا أمير المؤمنين، فلقد كانت صوّامة قوّامة.

فقال له المهدي: يا زنديق لأقتلنّك، فضحك شريك وقال: يا أمير المؤمنين، إنّ للزنادقة علامات يعرفون بها: شربهم القهوات واتخاذهم القينات. فأطرق المهدي.(٤٩٢)

فنرى أنّ المهدي كان يطلق كلمة زنديق على من لم يعترف بخلافته أو عدالته، وما أكثر الذين يذهبون لذلك من رجال الأمة وعلمائها، كما أنّ شريكاً القاضي أطلق لفظ الزندقة على من كان يحيى حياة المجنون. وأنّ من أوضح الأمور انطباق ذلك على المهدي نفسه، فهو الشخص الوحيد الذي يمثّل دور المجون والاستهتار، فاطلق عليه شريك لفظ الزندقة بالتلميح.

وكذلك أطلق لفظ الزندقة على من يناقش أحاديث الصحابة أو يردّها لعدم صحتها.(٤٩٣)

---

(٤٩٢) البداية والنهاية لابن كثير ج ١٠ ص ١٦٣، ط دار احياء التراث العربي.
(٤٩٣) تاريخ بغداد ج ١٤ ص ٧.

وكذلك أطلق لفظ الزندقة على المفكّرين الذين يقفون أمام الحوادث التأريخية موقف تثبّت، لاستجلاء الواقع ومعرفة الحقيقة. فالأمر الذي يتعلّق بالبحث حول بعض الصحابة وما صدر منهم قد أصبح محظوراً، فلا يمكن إلاّ التسليم بصحة ما صدر منهم - وإن خالف الشرع - لأنّ البحث عن ذلك أمر يستوجب الاتهام بالزندقة، وليس وراء ذلك إلاّ السيف. حتى أصبح ذلك من القواعد المقررة المعمول بها طبقاً لإرادة الدولة، وتلك القاعدة هي: إذا رأيت الرجل ينتقص أحداً من أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله) فاعلم أنّه زنديق .[٤٩٤]

يقول الدكتور أحمد أمين: «إنّ الاضطهاد والرّمي بالزندقة عنوان الشخصية. فالرجل إن كان ضعيف الهمّة، فائل الرأي، أو ذا رأي ولكنّه ملق يكلّم كلّ إنسان بما يحبّ فلم يضطهد; وإذا كان يسير في العلم حسب رأي الأغلبية، ويرى من النظريات والقواعد والتعاليم ما يراه الناس في عصره فلم يضطهد. إنّما يضطهد القويّ في الرأي، لايتنزل عنه لسلطان أو أمير، المستقل الفكر يؤديه فكره إلى نتائج قد يخالف فيها أهل عصره جميعاً، فلا يعبأ بمخالفتهم ولا يأبه لنقدهم... إذ ذاك يكون الاضطهاد وتكون الحرب العوان بين الآراء، فيقف ذو الشخصية وأتباعه القليلون في جانب، وذوو الجاه والسلطان أحياناً في جانب آخر، ويكون النضال وتكون الدسائس والمؤامرات، وماشئت من صنوف القتال!»[٤٩٥] .

فلهذه الأسباب كان الاتهام على الزندقة لأقلّ شبهة، وقد سجّل التاريخ كثيراً من تلك الحوادث التي كان مبعثها الحقد والانتقام والتشفّي.

وصفوة القول: إنّ تلك الحملة على الزنادقة لو تجرّدت عن تلك الزوائد لكان أثرها أكثر نفعاً لتطهير المجتمع الإسلامي من أولئك النفر الذين لعبوا دوراً هاماً في نشر الخرافات والأساطير، والتحلل من قيود الشريعة الإسلامية، ممّن هم زنادقة فعلاً عندما وجد أكثرهم طريقاً يسلكون فيه، وكان منهم ذوو مكانة في الدولة: كمطيع بن أياس، وابن المقفع، وابن أبي العوجاء، وقد وضعوا حوادث وأحاديث يقصدون بها إفساد الرأي العام، وعندما قدّم ابن أبي العوجاء للقتل قال: «أما والله لئن قتلتموني لقد وضعت أربعة آلاف حديث أحرّم فيه الحلال وأحل فيه الحرام، والله لقد فطرتكم يوم صومكم وصومتكم في يوم فطركم »[٤٩٦] كما أنّهم وضعوا كثيراً من القصص في المجون والهزل، وخلقوا شخصيات لا وجود لها، واخترعوا حوادث لا واقع لها، كما أنّهم ترجموا كتب الزنادقة ونشروها في المجتمع للتضليل والخداع، وقد قام جماعة

---

(٤٩٤) الكفاية للخطيب البغدادي ص ٤٩.
(٤٩٥) انظر ضحى الإسلام ج ١ ص ١٣٧ - ١٦١.
(٤٩٦) أمالي المرتضى ج ١ ص ٨٨ - ٨٩ .

منهم - وعلى رأسهم سيف بن عمرو - بالدس الشائن في تاريخ الإسلام فحوّروا وبدّلوا واخترعوا، وقد اشتهر كتاب الردة لسيف بن عمرو، وأصبح مصدراً لكثير من المؤرخين، وسيف هو رأس الزنادقة والكذابين، كما نصّ عليه علماء الرجال واشتهر عنه ذلك.

وكيف كان فإنّ وضعهم سيّء واثرهم في المجتمع أسوأ، وكما قلنا إنّ لفظ الزندقة أو الاتّهام بها لم يكن على واقعه كما يرام، فقد أتّهم أبرياء وقتل صلحاء تحت غبار هذه الحملة، واطلقت هذه اللفظة على بعض من لم يصحّ أن يكون موضوعاً لمحمولها; ولكنّ ذلك كان لأسباب سياسية، أو أغراض انتقامية، كما قدّمنا.

وقد اعتمد عليها أكثر الباحثين، فلم يكلّفوا أنفسهم بالبحث عن الحقائق لمعرفة الأسباب، والوقوف على العوامل التي دعت إلى اتهام الكثيرين من رجال الأمة وصلحائها بالزندقة، والحكم عليهم بدون مبرر، لأنّ تلك اللفظة قد اتّسع معناها إلى حدّ لا يسمح بتحديده تحديداً دقيقاً. وأصبح الزنديق الواقعي آمناً إن أمنت السلطة سطوته.

وهذا ما حمل الكثيرين من الكتّاب إلى إيجاد رابطة بين الزندقة وبين التحرر الفكري والنقد للأوضاع، ذهولاً منهم عن التوصل الى الحقيقة، وقصوراً عن الوصول إلى معرفة الأسباب، التي جعلت الانتساب إلى التشيّع دليلاً على الزندقة، وداعياً إلى الاتهام بها، ولا شيء هناك إلا عدم إرتباط العقائد بالدولة، وأنّ انفصالهم الروحي وعدم امتزاجهم بالسلطان وأعوانه لأكبر دليل على الاستهانة بتوجيه الأسباب التي توجب اتّهامهم بذلك، وأهمّ شيء اتّهامهم بسبّ الشيخين، فإنّ هذه التهمة هي فوق جريمة الإلحاد، فإنّ المتّهم بالزندقة تقبل توبته، أمّا المتّهم بهذه التهمة فلا تقبل توبته، ويحكم بكفره وإلحاده مع إيمانه بالله ورسوله وإقامة الفرائض، ولكن للسياسة حكم فوق ما يثبته الواقع ويقرّه الحقّ، إذ هي عمياء لا تبصر، ولهذه المشاكل كان ذلك العصر يموج بحوادث لها أهميّتها في تاريخ الإسلام.

نشاط العلماء وتأييد الدولة

وكان من أهم مظاهر ذلك العصر انصراف علماء الإسلام إلى دراسة العلوم المختلفة، كما اتّسعت حركة التأليف، وزاد نشاط العلماء في تدوين علوم الإسلام، ورتّبوا أبواب الفقه وأنواع الحديث. وكان الخلفاء ـ مع إنغماسهم في الشهوات والترف وارتكابهم المحرّمات ـ يتظاهرون بخدمة العلماء ويتحلّون بالنزعة الدينية، وبهذا تمكّنوا من استخدام رجال منهم وسيلة لتوطيد استبدادهم، وذريعة لإخضاع

العامّة لهم، وأنّهم ملزمون بإطاعة السلطان إطاعة عمياء، وأنّ تصرفه لا يجوز الاعتراض عليه وإن انْحَرف عن حدود طاعة الله، وبهذا وقع تطور أوجد مشاكل خطيرة، فكانت في ذلك العصر للفقهاء والمحدّثين درجات عالية عند الخلفاء، وقد كثر الجدل والنقاش في أهمّ المسائل الفقهية، كما كثر في العقائد والمسائل الكلامية. كما وقد اشتدّت قضية أهل الرأي وأهل الحديث، وأصبح لكل جانب أنصار، وهم يقيمون الحجج والبراهين على مايذهبون إليه. إلى غير ذلك من مميّزات ذلك العصر الذي نشأ فيه الشافعي .

كما وقد أثيرت هناك مسائل كثيرة تتعلق بالتوحيد وبالصفات. ورؤية الله بالأبصار، وغيرها من المسائل ذات الأهمية في ذلك العصر. كالبحث حول الحديث وصحته، والاجتماع وكيفية الاستدلال به. ولقد جاء عن الشافعي في كتاب الأم أنّه ناظر في كثير من هذه المسائل، وقد كانت طريقة الشافعي في النقل عن كثير من المناظرات، نقل الحجة عن لسان واحد بدون تعيين، ولعلّ ذلك طريقة علميّة للتوصل الى إيضاح الأمر وبيانه.

الخلاصة

والخلاصة، أنّ العصر الذي نشأ فيه الشافعي كان أزهر العصور من جهة، ومن جهة أخرى كان عصر مشاكل للأمة عندما استبدّ ولاة الأمر بأمور المسلمين، فاستأثروا بالأموال وتحكّموا بالرقاب وخالفوا حدود الله مع ادعائهم - الأجوف - بالمحافظة عليها، وقد تجاوزوا الحدّ في تعدي حدود الله ومخالفة أحكامه حتى لقد استعملوا في معاملة الرعية أشدّ أنواع التعسّف والجور، الأمر الذي دعا رجال الاصلاح والمحافظين على نواميس الإسلام إلى متابعة الإنكار ورفع اصواتهم بالمؤاخذة، فكان نصيبهم القتل والتشريد وظلمة السجون.

وقد أدّى ذلك الظلم إلى عواقب وخيمة، كان من ورائها عدم استقرار الأمر وضياع الحقّ، وقد حاولنا أن نلمس موقف الشافعي وسط ذلك المعترك، ومواجهته تلك الأوضاع الشاذة، وهو ذلك الرجل الطموح الذي كان يتحسس إلى النهوض في وجه الظلم، بانضمامه لجانب العلويين كما نقل عنه. فإنّا لم نجد للشافعي موقفاً يدلّنا بصراحة على إنكاره للأوضاع، ولعلّ قضية اتّهامه بذلك حالت بينه وبين نشاطه وشعوره المتوقد، هذا إن كان لقضية الاتهام أصل، وإلاّ فلا شيء يدلّ على أيّ أثر هناك، لأنّ القضية مكذوبة ولا أصل لها.

ولا تهمّنا هذه الجهة، ولكن يهمّنا معرفة تأثره بطابع ذلك العصر، من حيث النشاط العلمي، والتقدم بين أقرانه، لما أتّصف به من ذكاء وفطنة. ونحن عندما ندرس تلك الجهة عن طريق المعجبين به نجد أنّ له نشاطاً عظيماً وتقدّماً فائقاً يوم كان ببغداد، ولكن هناك أيضاً من ينفي هذا ويصفه بالانسحاب عن ميدان المقابلة لعلماء عصره، ويجعل ذلك سبباً لخروجه إلى مصر .

يقول البزاز: كان الشافعي (رضي الله عنه) بالعراق يصنّف الكتب، وأصحاب محمد - أي الشيباني - يكسرون عليه أقاويله بالحجج ويضعّفون أقواله، وقد ضيّقوا عليه، وأصحاب الحديث أيضاً لا يلتفتون إلى قوله، ويرمونه بالاعتزال، فلما لم يقم له بالعراق سوق خرج إلى مصر، ولم يكن فقيه معلوم، فقام بها سوقه .(٤٩٧)

ويقول أيضاً : عن علي بن حسين الرازي قال: اجتمع في عرس هو وسفيان بن سحبان، وفرقد، وعيسى بن أبان، وأخذوا في مسألة غامضة وفيهم الشافعي،فدخل في نكتة من المسألة غامضة، فظنّ الإمام الشافعي أنّه فطن للمسألة - ولم يكن كذلك -، فجرّه سفيان إلى أغمض منها حتى تحيّر، ولم يتهيأ له الكلام، فحكى ذلك لمحمد فقال: إرفقوا به فإنه جالسنا وصحبنا، ولا تفعلوا به هذا.(٤٩٨)

أمّا الأولون، فقد وصفوه بأنّه قد أحدث في بغداد تغيراً محسوساً، وقد ثقل مقامه على أهل الرأي، لأنّه كان ينتصر لمذهب أستاذه مالك ويدفع عنه، وحوّل أكثر المبرزين منهم الى حلقته.

حدّث الفضل الزجاج فقال: لمّا قدم الشافعي إلى بغداد سنة (١٩٥ هـ) وكان في الجامع إمّا نيف وأربعون حلقة، أو خمسون حلقة. فلما دخل بغداد مازال يقعد في حلقة حلقة ويقول لهم: قال الله وقال الرسول، وهم يقولون: قال اصحابنا. حتى مابقي في المسجد حلقة غيره.(٤٩٩)

ومعنى هذا أنّ الدراسة توحّدت للشافعي، ولم يبق لأهل الرأي مجال لمقابلة ذلك النشاط الذي لقيه الشافعي. وهذا أمر موكول إلى صحة أحد القولين، ولا مجال لنا في تأييد جانب دون آخر، على أنّنا لا ننكر منزلة الشافعي العلميّة، كما لا ننكر مقابلته لأهل الرأي، مع أنّا نعلم أنّه أخذ أكثر معلوماته عن محمد بن الحسن الشيباني.

وعلى أيّ حال: فإنّ أكثر الروايات حول الشافعي مضطربة - كما قدّمت - ولكن مقتضى شرطنا في هذه الدراسة التعرّض لكثير من ذلك، ولنا الحقّ في المناقشة، وقد

---

(٤٩٧) المناقب للبزاز ج ٢ ص ١٥٣ .
(٤٩٨) المصدر السابق ج ٢ ص ١٥٠.
(٤٩٩) تاريخ بغداد ج ٢ ص ٦٨ - ٦٩.

رأينا ترك هذا الموضوع، ونريد أن نلتحق بركب صاحبنا لمعرفة أخباره، وأكثرها كانت في مصر، ولنأخذ على ضوئها صورة عن طابع شخصيته.

أخبـاره

نشأ الشافعي يتيماً في حجر أمّه، وقدمت به مكة خوفاً عليه من الضيعة، وليتلقّى دراسته، فاستقبل عهد دراسته على خالد الزنجي ومالك، وكان بطبيعة الحال شديد الحاجة الى ما يساعده على مواصلة دراسته، لأنّه كان فقيراً لا يجد ثمن القرطاس الذي يكتب عليه دروسه، فكان يتعوّض عنه بأكتاف الغنم.

وقد ساعده مالك بن أنس لسعة حاله، وبعد وفاة مالك إلتجأ الى الوساطة لأن يلي عملاً للدولة، ليستعين به على زمانه، فعيّن في اليمن، وحمل منها أو من مكة الى بغداد بتهمة التشيّع أو غير ذلك، وكانت بغداد في عنفوان نهضتها العلميّة وحركتها الثقافية، واتّجاهها الفكري الى مختلف العلوم.

وكان الفقهاء في ذلك العصر قد انقسموا إلى أهل رأي يعتمدون في نهضتهم على سرعة أفهامهم، ونفاذ عقولهم وقوّتهم في الجدل، وأهل حديث يعتمدون على السنن والآثار، ولا يأخذون من الرأي إلاّ ما تدعو إليه الضرورة.

وكان الشافعي قد تفقّه على أهل الحديث من علماء مكة، وعلى مالك من علماء المدينة. وكان يعترف لمالك بالفضل والمنّة فكان يقول: إذا ذكر العلماء فمالك النجم، ما أحد أمنّ عليّ من مالك بن أنس.

ولمّا ذهب الى العراق استرعى نظره تحامل أهل الرأي على أستاذه والمنعم عليه مالك بن أنس وعلى مذهبه. وكان أهل الرأي أقوى سنداً وأعظم جاهاً بما لهم من المكانة عند الخلفاء، وبتوليتهم شؤون القضاء، ذلك لأنّهم أوسع حيلة في الجدل من أهل الحديث وأنفذ بياناً[٥٠٠]. وقد وقعت لكثير من الخلفاء وغيرهم مشاكل، فكان لها مخرج عند أهل الرأي، لذا كانت منزلتهم في الدولة أعظم من غيرهم.

وكان الشافعي قد لازم محمد بن الحسن عند قدومه العراق، ودرس كتبه وأخذ عنه الشيء الكثير، واطلع على كتب فقهاء العراق، فأضاف ذلك إلى ماعنده من طريقة أهل الحديث.

وعاد الشافعي من العراق الى الحجاز، واستمر بمكة يواصل استفادته من الوافدين الى مكة من علماء الأمصار، واختلط بهم ثم عاد الى العراق مرة ثانية سنة (١٩٥ هـ) في خلافة الأمين، وهناك أملى على من التفّ حوله كتبه التي كتبها في

---

(٥٠٠) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٢٢١.

مذهبه في العراق - وهو المعروف بمذهبه القديم - وقد رجع عن ذلك عندما نزل في مصر وحرّم الرواية لذلك عنه، وكان نزوله في هذه القدمة على محمد بن أبي الحسن الزيادي، ومقامه هناك سنتان.

وقد توفّي محمد بن الحسن، وقام مقامه، من أصحاب أبي حنيفة الحسن ابن زياد اللؤلؤي، ثم عاد إلى الحجاز، وفي سنة ١٩٨ هـ قدم العراق قدمته الثالثة فأقام هناك أشهراً، ومن العراق سافر الى مصر فنزل في الفسطاط ضيفاً كريماً على عبد الله بن عبد الحكم.

كانت الأسباب التي حملت الشافعي للرحيل الى مصر كثيرة مختلفة، فبعض يقول: إنّه كان يتشوق إلى مصر دائماً، ورووا له ذلك شعراً:

أرى النفس قد اضحت تتوق الى مصر *** ومن دونها قطع المهامه والقفر

فو الله ما أدري أللفوز والغنى *** أساق إليها أم أساق إلى القبر؟[٥٠١]

وهذه الأبيات تنسب إلى الحسن بن هاني وهو المعروف بأبي نؤاس، وأنّ الشافعي تمثّل بها، ذكر ذلك أبو بكر أحمد بن محمد الهمداني المعروف بابن الفقيه في كتاب البلدان.[٥٠٢]

وقيل: إنّه قدم مصر رغبة منه في معارضة انتشار أقوال أبي حنيفة ومالك، كما حدّث الربيع قال: سألني الشافعي عن أهل مصر فقلت: هم فرقتان: فرقة مالت إلى قول مالك وناضلت عليه، وفرقة مالت إلى قول أبي حنيفة وناضلت عليه. فقال: أرجو أن أقدم مصر إن شاء الله، فآتيهم بشيء أشغلهم به عن القولين.

فهو إذ ذاك سلك طريقاً وسطاً، فلم يكن على رأي مالك في الحديث وتشدّده، ولا كأصحاب الرأي يتساهلون في الحديث ويكتفون بشهرته، ويقدّمون القياس على خبر الآحاد وان صحّ سنده.

فانتقد مالكاً لأنّه ترك احياناً حديثاً صحيحاً، لقول واحد من الصحابة، أو التابعين، أو لرأي نفسه. وكان أشدّ نقد لمالك قد وجّهه الشافعي، أنّه ترك قول ابن عباس الى قول عكرمة في مسألة، مع أنّ مالكاً كان يسيء القول في عكرمة.

الإمام الشافعي في مصر

وكان قدوم الشافعي لمصر، وقد انتشر مذهب مالك وتركّزت دعائمه على أيدي تلامذته، الذين كان لهم في مصر مكانة عظيمة، فأصبح اعتقاد الناس في مالك عظيماً، ويقدّمون قوله على السنة إذ يقال لهم: قال رسول الله، فيقولون: قال مالك.

---

(٥٠١) معجم الأدباء ج ١٧ ص ٣١٩.

(٥٠٢) أنظر مناقب الشافعي للبيهقي ج ٢ ص ١٠٧.

وكانت له قلنسوة يستسقون بها، وقد غلوا بكتابه غلوّاً عظيماً حتى قالوا: ما على ظهر الأرض كتاب بعد كتاب الله أصحّ من كتاب مالك. وفي لفظ آخر: ما على الأرض كتاب أقرب إلى القرآن من كتاب مالك.[٥٠٣]

ونزل الشافعي ضيفاً كريماً على محمد بن عبد الله بن عبد الحكم، وكان من أكبر أنصار مذهب مالك، وكانت له مكانة ورياسة، وكان أهل مصر لايعدلون به أحداً، فأكرم مثوى الشافعي ووازره، وتأكّدت بينهما مودّة وإخاء. وقد عرف الشافعي بأنّه تلميذ مالك وناصر مذهبه والمدافع عنه، وكان هذا أحد الأسباب التي هيّأت النجاح للشافعي.

يضاف إلى ذلك أنّه قدم مصر مزوّداً بتوصية من خليفة العصر الى أمير مصر، أو أنّه جاء بصحبته على ما في القضية من اختلاف الأسباب. يقول ابن حجر: إنّ الرشيد سأل الشافعي أن يوليه القضاء فامتنع، فقال سل حاجتك، قال: حاجتي أن أعطي من سهم ذوي القربى بمصر وأخرج إليها، ففعل ذلك وكتب له إلى أميرها.[٥٠٤]

وقيل : إنه خرج إلى مصر مع أميرها العباس بن عبد الله بن العباس بن موسى العباسي، وكان العباس هذا خليفة أبيه على مصر، وقد صحبه جماعة من أعيان أهل مصر، كبني عبد الحكم، والربيع بن سليمان، وذلك بعد وفاة الرشيد سنة (١٩٩ هـ).

فكان الشافعي موضع عناية أصحاب مالك، لأنّه من أشهر تلاميذه والمناصرين له فوازروه، وأخذ الشافعي في نشر مذهبه الجديد. ووضع الكتب في الردّ على مالك ومعارضة أقواله.

قال الربيع: سمعت الشافعي يقول: قدمت مصر ولا أعرف أنّ مالكاً يخالف من أحاديثه إلاّ ستة عشر حديثاً، فنظرته فإذا هو يقول بالأصل ويدع الفرع، ويقول بالفرع ويدع الأصل. ثم ذكر الشافعي في ردّه على مالك المسائل التي ترك الأخبار الصحيحة فيها بقول واحد من الصحابة أو بقول واحد من التابعين أو الرأي نفسه.

وذكر الساجي: أنّ الشافعي إنّما وضع الكتب على مالك بسبب أنّه بلغه أن قلنسوة لمالك يستسقى بها، وكان يقال لهم: قال رسول الله فيقولون: قال مالك، فقال الشافعي: إنّما مالك بشر يخطئ فدعاه ذلك إلى تصنيف الكتاب في اختلافه معه، وكان يقول: استخرت الله في ذلك مدّة سنة.

وقال أبو عمر: وتكلّم في مالك ايضاً فيما ذكره الساجي في كتاب العلل، عبدالعزيز بن أبي سلمة، وعبدالرحمن بن زيد، وعابوا أشياء من مذهبه .إلى أن

---

(٥٠٣) مالك بن أنس، لعبد الغني الدقر ص ١٠٦.

(٥٠٤) توالي التأسيس ص ٧٧.

يقول: وتحامل عليه الشافعي وبعض أصحاب أبي حنيفة في شيء من رأيه حسداً لموضع إمامته.[٥٠٥]

فهو قد جعل رد الشافعي على مالك تحاملاً عليه وحسداً له، ولما وضع الكتاب على مالك تعصّب المالكية عليه وسعوا به عند السلطان وقالوا له: أخرجه وإلاّ افتتن به البلد، فأتاه الشافعي فكلّمه فامتنع الوالي وقال: إنّ هؤلاء كرهوك وأخشى الفتنة، فقال له الشافعي: أجلني ثلاثة أيام فمات الوالي فيها.[٥٠٦]

وقال ياقوت: كان بمصر من أصحاب مالك رجل يقال له فتيان، فيه حدة وطيش، وكان يناظر الشافعي كثيراً ويجتمع الناس عليهما، فتناظرا في مسألة بيع الحرّ - وهو العبد المرهون - إذا اعتقه الراهن ولا مال له غيره، فأجاب الشافعي بجواز بيعه على أحد أقواله ومنع فتيان منه... فضاق فتيان بذلك ذرعاً فشتم الشافعي شتماً قبيحاً. فلم يرد عليه الشافعي فرفع ذلك رافع إلى السري - الوالي - فدعا الشافعي وسأله عن ذلك وعزم عليه، فأخبره بما جرى وشهد الشهود على فتيان بذلك، فقال السري: لو شهد آخر مثل الشافعي على فتيان لضربت عنقه، وأمر بفتيان فضرب بالسياط وطيف به على جمل، وبين يديه مناد ينادي: هذا جزاء من سبّ آل رسول الله (صلى الله عليه وآله) .

ثم إنّ قوماً تعصّبوا لفتيان، من سفهاء الناس، وقصدوا حلقة الشافعي حتى خلت من اصحابه وبقي وحده، فهجموا عليه وضربوه فحمل الى منزله، فلم يزل فيه عليلاً حتى مات.[٥٠٧]

إنّ هذه الرواية تدلّ على أنّ سبب موت الشافعي هو ذلك الضرب المنبعث عن التعصّب، وقد نصّ ابن حجر على أنّهم ضربوه بمفتاح حديد فمات[٥٠٨]، بعد ذلك الضرب بقليل، كما جاء في رثاء الشافعي.

قال ابن حجر عند ذكره لهذا الحادث: وقد ضمّن ذلك شيخ شيوخنا أبو حيان في قصيدته التي مدح بها الشافعي. ثم ذكر القصيدة. ونذكر منها محل الشاهد:

ولمّا أتى مصر إنبرى لأذائه *** أناس طووا كشحاً على بغضه طيا
أتى ناقداً ما حصلوه وهادماً *** لما أصّلوا إذ كان بنيانهم وهيا
فدسّوا عليه عندما إنفردوا به *** شقياً لهم شل الإله له اليديا

---

(٥٠٥) جامع بيان العلم وفضله لابن عبدالبر، وفي مختصره ص٢٠١ .
(٥٠٦) توالي التأسيس ص ٨٤.
(٥٠٧) معجم الأدباء ج ١٧ ص ٢٢٣.
(٥٠٨) توالي التأسيس ص ٨٦.

فشجّ بمفتاح الحديد جبينه *** فراح قتيلاً لا بواك ولا نعيا
نعم قد نعاه الدين والعلم والحجا *** وترداد صوت في الدجا يسرد الوحيا[٥٠٩]

فالشافعي إذاً ذهب ضحية التعصب من المالكية، لأنه كان يعارض اقوال مالك ويرد عليه، وقد وضع كتاباً في ذلك، كما وضع كتاباً في الرد على أبي حنيفة.[٥١٠]

مذهبه الجديد

وكيف كان فقد جاء الشافعي بمذهبه الجديد، وكان قد درس المذهبين : مذهب أهل الرأي ومذهب أهل الحديث، وقد لاحظ ما فيهما من نقص، فبدا له أن يكمل ذلك النقص، وأخذ ينقض بعض التعريفات من ناحية خروجها من متابعة نظام متحد في طريقة الاستنباط، وذلك يشعر باتّجاهه في الفقه اتجاهاً جديداً، الذي لايكاد يعنى بالجزئيات والفروع.

ولعلّ خير ما يلخّص مسلكه في منحاه الاجتهادي هو أنّه قال: الأصل قرآن وسنة، فإن لم يكن فقياس عليهما، وإذا اتصل الحديث عن رسول الله(صلى الله عليه وآله)، وصحّ الاسناد عنه فهو سنّة، والاجماع أكبر من الخبر المفرد، والحديث على ظاهره، وما احتمل معاني فما اشتبه منها ظاهر أولاها به وإذا تكافأت الأحاديث فأصحها إسناداً أولاها، وليس المنقطع بشيء ما عدا منقطع ابن المسيب، ولا يقاس أصل على أصل، ولا يقال للأصل «لِمَ» و «كيف». وإنّما يقال للفرع «لِم»، فإذا صحّ قياسه صحّ وقامت به الحجة.

فهو بهذه الخطة الجديدة قد هاجم مالكاً، لتركه الأحاديث الصحيحة لقول واحد من الصحابة أو التابعين أو لرأي نفسه.

وهاجم أبا حنيفة وأصحابه، لأنّهم يشترطون في الحديث أن يكون مشهوراً، ويقدّمون القياس على خبر الآحاد وإن صحّ سنده، وأنكر عليهم تركهم لبعض السنن لأنّها غير مشهورة، وعملهم بأحاديث لم تصح عند علماء الحديث، بدعوى أنها مشهورة، ووقف في القياس موقفاً وسطاً فلم يتشدّد فيه تشدد مالك، ولم يتوسع فيه توسع أبي حنيفة.[٥١١]

---

(٥٠٩) توالي التأسيس ص ٨٧.

(٥١٠) أنكر بعضهم على الخزرجي قوله في الخلاصة ص ٢٧٩ - : إنّ الشافعي مات شهيداً سنة (٢٠٤ هـ) لعدم وقوفه على المصادر التي تنص على ذلك.

(٥١١) تمهيد لتأريخ الفلسفة الاسلامية للأستاذ مصطفى عبد الرزاق ٢٢٥ وضحى الإسلام لأحمد أمين ج ٢ ٢٢٤.

وقال إمام الحرمين [٥١٢]: فمالك أفرط في مراعاة المصالح المطلقة المرسلة، غير المستندة إلى شواهد الشرع، وأبو حنيفة قصر نظره على الجزئيات والفروع والتفاصيل من غير مراعاة القواعد والأصول، والشافعي (رضي الله عنه) جمع بين القواعد والفروع، فكان مذهبه أقصد المذاهب ومطلبه أسدى المطالب كما يقول إمام الحرمين.

هذا عرض موجز لما يتعلق بحياة الشافعي وأخباره من حيث اتجاهه الفقهي، ومخالفته لأهل الرأي وأهل الحديث.

وتدلّنا الحوادث بوضوح أنّه لقي أذىً كثيراً في اظهار مخالفته لمالك وردّه عليه، كما أنّه لم يلق في مصر ذلك الاقبال المطلوب الذي كان يأمله رجل مثله، فقد جفاه الناس ولم يجلس إليه أحد، فقال له بعض من قدم معه: لو قلت شيئاً يجتمع إليك الناس، فقال: إليك عني وأنشأ :

أأنثر درّاً بين سارحة النعم *** وأنظم منثوراً لراعية الغنم[٥١٣]

وكان يظهر التذمر والتألم، ويدلّنا على ذلك قوله :

وانزلني طول النوى دار غربة *** إذا شئت لاقيت امرأ لا أشاكله

أحامقهُ حتى تقال سجية *** ولو كان ذا عقل لكنت أعاقله[٥١٤]ويقول :

لعمري لئن ضيعت في شرّ بلدة *** فلست مضيعاً فيهم غُرر الكلم

لئن سهل الله العظيم بلطفه *** وصادفت أهلاً للعلوم وللحكم

بثثت مفيداً واستفدت ودادهم *** وإلا فمكنون لديّ ومكتتم

ومن منح الجهال علماً أضاعه *** ومن منح المستوجبين فقد ظلم[٥١٥]

وقال الكندي: لما دخل الشافعي مصر كان ابن المنكدر يصيح خلفه: ياكذا،... دخلت هذه البلدة وأمرنا واحد، ورأينا واحد، ففرقت بيننا، وألقيت بيننا الشرّ، فرّق الله بين روحك وجسمك.[٥١٦]

وكان أشهب يدعو على الشافعي ويقول في سجوده: اللهم أمت الشافعي وإلاّ ذهب علم مالك بن أنس، فسمع الشافعي بذلك وأنشأ يقول :

تمنّى رجال أن أموت وإن أمت *** فتلك سبيل لست فيها بأوحد

---

(٥١٢) أنظر البرهان في أصول الفقه للجويني ج ٢ ص ١٦١ - ١٦٢.
(٥١٣) معجم الأدباء ج١٧ ص ٣١٩ وتمام الأبيات ص ٣٠٧.
(٥١٤) معجم الأدباء ج ١٧ ص ٣١٠.
(٥١٥) معجم الأدباء ج ٧ ص ٢٠٧.
(٥١٦) القضاة للكندي ص ٤٢٨.

وممّا قال :

كلّ العداوات قد ترجى مودّتها *** إلا عداوة من عاداك عن حسد[٥١٧]

الطعون على الشافعي

توجّهت للشافعي طعون كثيرة في مختلف الأُمور، من اعتقاد واستنباط وحديث، فقد رموه بالاعتزال مرّةً، والتشيّع أُخرى، أو أنّه يروي عن الكذابين، وأنّه قليل الحديث وألّف بعض الحنفية كتاباً في الردّ والطعن عليه.

سئل يحيى بن معين: الشافعي كان يكذب؟ قال: لا أُحبّ حديثه، ولا أذكره. وفي قول آخر: أمّا الشافعي فلا أُحبّ حديثه.[٥١٨]

وروى الخطيب عن يحيى بن معين أنّه قال: الشافعي ليس بثقة، وعن عبد الله بن وضاح أنّه قال في الشافعي: إنّه ليس بثقة .[٥١٩]

وقد ساء هذا القول بعض الشافعية فهجا ابن معين [٥٢٠] بقوله :

ولابن معين في الرجال وقيعة *** سيسأل عنها والمليك شهيد

فإن كان صدقاً فهو لا بدّ غيبة *** وان كان كذباً فالعذاب شديد[٥٢١]

وعلى أيّ حال فلا بدّ من إعطاء نموذج من تلك الطعون فيما يأتي:

١ - إن البخاري ومسلم لم يخرّجا حديثه في صحيحيهما ولولا أنّه كان ضعيفاً في الرواية لرويا عنه كما رويا عن سائر المحدثين .[٥٢٢]

٢ - إنّه كان لا يعرف صحاح الأخبار، فقد روى عن أحمد بن حنبل أنّه قال: قال الشافعي هم أعلم بالأخبار الصحاح منّا، فإذا كان خبر صحيح فأعلمني حتى أذهب إليه.

قالوا: وهذا اقرار منه بالتقصير. وعن أبي ثور أنّه قال: الشافعي ما كان يعرف الحديث وإنّما كنّا نوقفه عليه ونكتبه.[٥٢٣]

---

(٥١٧) مناقب الفخر الرازي ص ١١٥.

(٥١٨) جامع بيان العلم وفضله ج ٢ ص ١٠٨٣.

(٥١٩) المصدر السابق .

(٥٢٠) يحيى بن معين بن عون الغطفاني أبو زكريا البغدادي المتوفى سنة (٢٣٣ هـ)، أحد الحفاظ ومن رجال الصحاح الستة، أخذ عنه أحمد بن حنبل والبخاري ومسلم وخلق كثير. قال أحمد بن حنبل: كلّ حديث لا يعرفه يحيى فليس بحديث، ولما مات نودي بين يديه هذا الذي كان يذب الكذب عن رسول الله (صلى الله عليه وآله) إلى آخر ماهو موجود في ترجمته من ثناء وإطراء بالنظر لعوامل الحبّ والكراهة.

(٥٢١) مناقب الفخر الرازي ص ٥٠.

(٥٢٢) مناقب الفخر الرازي ص ٨٤.

(٥٢٣) البداية والنهاية ج ١ ص ٣٢٧، وطبقات الحنابلة ج ١ ص ٢٨٢، وآداب الشافعي ص ٩٥.

٣ - إنّ من مذهبه أنّ المراسيل ليست بحجة، ثم أنّه ملأ كتبه من قول «أخبرنا الثقة»، «أخبرني من لا أتّهمه»[٥٢٤]. والجمع بين هذه الروايات وذلك المذهب عجيب[٥٢٥].

٤ - إنّه كان يروي عن الكذّابين والبدعيين، فروى عن إبراهيم بن يحيى مع أنه كان قدرياً، وروى عن إسماعيل بن عليّه مع أنّه قد طعن فيه.

٥ - إنّه يذهب مذهب الشيعة، و أنّه كان يقول الأشعار المشعرة برغبته في ذلك المذهب، وقد نصّ ابن معين على تشيّعه. وروى المزني قال: قلت للشافعي: أنت توالي أهل البيت، فلو عملت في هذا الباب أبياتاً فقال :

ومازال كتمانيك حتى كأنني *** برد جواب السائلين لأعجم

واكتم ودي في صفاء مودتي *** لتسلم من قول الوشاة وتسلم[٥٢٦]

هذه هي أهم الطعون الموجّهة الى الشافعي، وقد دافع الشافعية عن ذلك بما أمكنهم الدفاع عنه سواء وفّقوا للنجاح أم لا. ولا بدّ لنا من إبداء الرأي في ذلك.

١ - إنّ عدم تخريج البخاري ومسلم لحديث الشافعي لم يكن دليلاً على الجرح في الشخص الذي لم يخرّجا حديثه، إذ لم يكن ذلك دائراً مدار الواقع، فيكون قولهما الفصل وحكمهما العدل، فإنّ الصحيح يكون صحيحاً في نظرهما لا يلزم منه أنّ يكون كذلك واقعاً، كما لا يلزم أن يؤخذ ذلك بطريق التقليد والاتباع. لأنّ الحقيقة غير هذا، إذ المؤاخذات على البخاري كثيرة جداً فمنها في رجاله كروايته عن قوم عرفوا بالكذب[٥٢٧] وقوم ضعفاء[٥٢٨] وخوارج [٥٢٩]. ومنها في نفس الأحاديث التي يصدق عليها بعض علامات الوضع.

وقد كان البخاري يروي بالمعنى، كما حدّث الخطيب البغدادي: أنّ البخاري قال يوماً: ربّ حديث سمعته بالبصرة كتبته بالشام، وربّ حديث سمعته بالشام كتبته بمصر، فقيل له: يا أبا عبد الله بكماله؟ فسكت [٥٣٠]. ومهما يكن من شيء: فإنّ ترك البخاري لحديث الشافعي لم يكن دليلاً قاطعاً على الوهن، وإن كان في ذلك شيء من

---

(٥٢٤) بيّنا سابقاً من يقصد الشافعي بذلك.

(٥٢٥) مناقب الشافعي للرازي ص ٨٤ .

(٥٢٦) مناقب الشافعي للرازي ص ٥٠.

(٥٢٧) ضحى الإسلام ج ٢ ص ١١٧ - ١١٨.

(٥٢٨) نظرة عابرة الى الصحاح الستة: ص ٥٥.

(٥٢٩) ميزان الاعتدال ج ٥ ص ١٩٤ / ٥٩٦٦.

(٥٣٠) تاريخ بغداد ج٢ ص ١١، المناقب ج ٢ ص ١١.

الاستغراب، إذ لا مانع للبخاري من تخريج حديث الشافعي، لأنّ الخوف والحذر كان يحول بينه وبين تخريج أحاديث كثير من أعلام الأمة، نظراً لعوامل الظروف، وسياسة الوقت. والبخاري لا يستطيع ان يجتاز تلك العقبات، لفقدانه الجرأة والشجاعة.

هذا مع أنّ نزعة البخاري نحو الشافعي هي غير نزعته نحو أولئك الرجال الذين ترك حديثهم، أمّا لشيء في نفسه، أو خوفاً من سلطان عصره، أمّا تركه أحاديث أهل البيت وفضائلهم فلا يعترينا شك بانحراف البخاري عن أهل البيت(عليهم السلام)هذا والأمر يحتاج إلى تحليل نفسيّة البخاري على ضوء الحوادث التاريخية. وعسى أن تتاح لنا الفرصة في ذلك.

٢ - أمّا أخذه عن إبراهيم بن أبي يحيى، فقد كان الشافعي يوثّقه ويطمئن إليه. وكان يقول: لئن يخرم إبراهيم من بعد، أحبّ إليه من أن يكذب، وكان ثقة في الحديث.(٥٣١)

وكذلك ذهب بعض علماء الدين إلى تنزيه إبراهيم بن أبي يحيى عمّا رُمي به من الكذب. قال أبو أحمد بن عدي: سألت أحمد بن محمد بن سعيد - يعني ابن عقدة -: تعلم أحداً أحسن القول في إبراهيم غير الشافعي؟ قال: نعم، إنّي أنظر في حديث إبراهيم كثيراً وليس بمنكر الحديث.

قال ابن عدي: وقد نظرت أنا كثيراً في حديثه فلم أجد فيه منكراً، إلاّ شيوخاً يحتملون، وإنّما يروي المنكر من قبل الراوي، أو من قبل شيخه، وهو - أي إبراهيم - في جملة من يكتب حديثه وله الموطأ أضعاف موطأ مالك.

وكان إبراهيم من تلامذة الإمام الصادق (عليه السلام)، وله كتاب في مذهب أهل البيت (عليهم السلام) وقد روى الشافعي عنه فأكثر، وكان مرة لا يذكر اسمه ويقول: روي عن جعفر بن محمد (الصادق) عن أبيه عن جدّه عليّ بن الحسين: أنّ مروان بن الحكم قال له: ما رأيت أحداً أكرم غلبة من أبيك، ماهو إلاّ أن ولينا يوم الجمل، فنادى مناديه: لا يقتل مدبر ولا يجهز على جريح.(٥٣٢)

وقد جاء في كتاب الأم كثير من روايات الشافعي عن إبراهيم عن الإمام الصادق (عليه السلام)، ولعلّ هذا هو السبب في الطعن عليه نظراً لما تقتضيه سياسة الوقت.

---

(٥٣١) تهذيب التهذيب ج ١ ص ١٥٩.

(٥٣٢) ميزان الاعتدال ج ١ ص ٥٧ / ١٨٩.

الإمام الشافعي والتشيّع

الاتّهام بالتشيّع خطر عظيم، ومشكلة لا يقوى على تحملها كلّ أحد، كيف وقد صور التشيع بعدسة الاتهامات الكاذبة في الابتعاد عن الدين؟ تلك التّهم التي تثير في النفوس اشمئزازاً، وفي العواطف ثورة، حتى أصبح من اللازم التظاهر بالعداء لمن يعرف به، وقد أدّى الموقف السياسي إلى أنّ اتّهام الرجل بالزندقة والإلحاد أهون عليه من الاتهام بالتشيّع. فالزنديق آمن مع كفره، والشيعي مطارد على إيمانه.

وقد مرّ بيان الدور الأموي، وما اقترفوا فيه من الذنوب، وارتكبوا من وحشيّة في معاملة شيعة أهل البيت(عليهم السلام)بالطرق السيئة: فمن دفن للناس وهم أحياء، إلى صلب على جذوع النخل، إلى حرق وحبس، ومنع الهواء والأكل والماء عن المحبوسين. حتى يقضي المسجون نحبه جوعاً وعطشاً. وكانوا يرتكبون من الآثام في وحشية لم يعرف لها التاريخ مثيلاً، فيقطعون رأس الابن أو الزوج ويبعثون بهذا الرأس إلى الأمّ أو الزوجة ويلقونه في حجرها. وكانوا يصلبون الناس ويتركونهم حتى تنبعث منهم الروائح الكريهة، ثم يحرقونهم ويذرونهم في الهواء. ولا ذنب لهم إلا حبّ أهل البيت(عليهم السلام)وأتباعهم.

امّا في الدور العباسي فالأمر أشدّ وأعظم. وقد تعرّضنا للبعض من ذلك في مطاوي الأبحاث، ونعود بعد هذا التمهيد إلى أسباب اتّهام صاحبنا الشافعي بالتشيّع، حتى جعل ذلك طعناً عليه مما اضطرّ أتباعه إلى الدفاع عنه وإخراجه من قفص الاتّهام. ولابدّ لنا من ان نتعرّض لأسباب اتهام الشافعي بعرض موجز فنقول :

لقد توسّع الناس في تطبيق لفظ الشيعي فاستعملوه بغير ما وضع له، فهو بعد أن كان لا يطلق إلا على من يوالي علياً وأهل بيته(عليهم السلام)ويقدّمه بالخلافة ويفضّله على الأمة - كما هو رأي كثير من الصحابة والتابعين - أصبح يستعمل في معان كثيرة. وعلى سبيل المثال نضع بين يدي القراء صوراً من ذلك. في ذكر رجال اتّهموا بالتشيّع وليسوا هم من الشيعة في شيء، وهم كما يأتي :

١ - خثيمة بن سليمان العابد، ألّف في فضائل الصحابة وذكر فضائل علي (عليه السلام)، فاتهم بالتشيّع لذلك. وشهد الخطيب البغدادي بأنّه ثقة وأنّه ألّف في مناقب الصحابة ولم يخصّ علياً.(٥٣٣)

---

(٥٣٣) لسان الميزان ج ٢ ص ٤١١ .

٢ ـ الحاكم أبو عبد الله النيسابوري، أنّهم بالتشيّع لأنّه ذكر في كتابه «المستدرك» أحاديث في فضل علي منها: حديث الطائر المشوي .[٥٣٤]وحديث «من كنت مولاه...» [٥٣٥] وزاد الذهبي: أنّه كان منحرفاً عن معاوية وآله .[٥٣٦]

٣ ـ عبد الرزاق بن همام المتوفى سنة (٢١١ هـ) الحافظ الكبير، ومن رجال الصحاح، قال الذهبي: إنّه صاحب تصانيف، وثّقه غير واحد، وحديثه مخرّج في الصحاح، وله ما ينفرد به. ونقموا عليه التشيّع، وما كان يغلو به بل كان يحبّ علياً ويبغض من قاتله .[٥٣٧]

ويقول في ترجمة جعفر بن سليمان الضبعي: هو من ثقات الشيعة، حدّث عنه سيار بن حاتم، وعبد الرزاق بن همام، وعنه أخذ بدعة التشيّع.[٥٣٨]

فأنت ترى أنّهم نقموا على ابن همام لتشيّعه ـ وهوحبّ عليّ وبغض قاتله ـ وبهذا أصبح مبتدعاً كما يقولون.

٤ ـ محمد بن طلحة بن عثمان أبو الحسن النعالي، أنّهم بالتشيّع وتعرّض للخطر، لأنّ أبا القاسم نقل عنه: أنّه شتم معاوية.[٥٣٩]

٥ ـ قاضي القضاة محيي الدين الأموي المتوفي سنة (٢٦٨ هـ) يرجع بنسبه إلى عثمان، قال ابن العماد في ترجمته: وكان شيعيّاً يفضّل عليّاً على عثمان، مع كونه أدعى نسباً إلى عثمان وهو القائل:

أدين بما دان الوصيّ ولا أرى *** سواه وإن كانت أميّة محتدي

ولو شهدت صفين خيلي لأعذرت *** وساء بني حرب هنالك مشهدي[٥٤٠]

أنظر كيف جعل مقياس تشيّعه أنّه يفضّل عليّاً على عثمان فقط.

٦ ـ محمد بن جرير الطبري المؤرخ الشهير المتوفى سنة (٣١٠ هـ) كان من علماء القرن الثالث، وله مذهب انفرد به، وله أتباع يعملون فيه، وقد غضب عليه الحنابلة إنتصاراً لإمامهم أحمد بن حنبل، ورموه بالحجارة، ولما مات دفن ليلاً.

---

(٥٣٤) المستدرك على الصحيحين ج ٣ ص ١٤١ / ٤٦٥٠ و ٤٦٥١ .
(٥٣٥) تاريخ بغداد ج ٥ ص ٤٧٤ .
(٥٣٦) تذكرة الحفاظ ج ٣ ص ٢٣٣ .
(٥٣٧) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٣٣١ .
(٥٣٨) تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٢٢٢ .
(٥٣٩) تاريخ بغداد ج ٥ ص ٣٨٤.
(٥٤٠) شذرات الذهب ج ٥ ص ٣٢٦ ومرآة الجنات ج ٤ ص ١٦٩.

قال ابن الاثير في حوادث سنة (٣١٠ هـ) : إنّه دفن ليلاً بداره، لأنّ العامة اجتمعت ومنعت من دفنه نهاراً، وادّعوا عليه الرفض والإلحاد.

قال: وقال علي بن عيسى: لو سئل هؤلاء عن معنى الرفض والإلحاد ما عرفوه ولا فهموه. وهذه التهمة وجّهت إليه من الحنابلة، لأنّه ألّف كتاباً ذكر فيه اختلاف الفقهاء، ولم يذكر فيه اختلاف أحمد بن حنبل، فقيل له في ذلك. قال: لم يكن من الفقهاء، فاشتد ذلك على الحنابلة وكانوا لا يحصون كثرة في بغداد.[٥٤١]

٧ ـ ابن حيون، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الأندلسي المتوفى سنة (٣٠٥ هـ)، من علماء الأندلس وعظمائهم. قال ابن سعيد: لو كان الصدق إنساناً; لكان ابن حيون. وكان يُزْن أي يتهم في التشيّع لشيء كان يظهر منه في معاوية.[٥٤٢]

ومن أعجب الأمور أنّ ابن عبد البر قد أتهم بالتشيّع على مافيه من النصب والعداء لأهل البيت(عليهم السلام)، فقد وصفه ابن كثير في تاريخه بأنّه شيعيّ لرواية نقلها تمسّ بكرامة الأمويين .[٥٤٣]

وابن كثير من أهمّ الذين يحكّمون معيارهم الخاص بهم، وهو الموقف من الأمويين، أو الرأي في معاوية، فكلّ من يقول الحقّ وينطق بالصوات ولا يخضع لآراء سابقة كوّنتها أغراض بني أمية لصيانة ملكهم وإرساء قواعد امبراطوريتهم فهو يتشيّع مهما كان واقع حال القائل بذلك القول، ومهما كانت حقيقة مذهبه، وابن كثير في كثير من أحواله يضارع أخسّ أهل النصب فمثلاً: في تعليقه على رواية: «**لا يزال هذا الأمر قائماً حتى يكون اثنا عشر خليفة كلهم من قريش**» فيعدد من يراهم مشمولين بهذه الرواية. ثم يقول: (وليس المراد الأئمة الاثني عشر الذين يعتقد فيهم الرافضة الذين أوّلهم علي بن أبي طالب وآخرهم المنتظر بسرداب سامراء ـ وهو محمد بن الحسن العسكري (وكذا) فيما يزعمون ـ فإنّ أولئك لم يكن فيهم أنفع من علي وابنه الحسن بن علي حين ترك القتال، وسلم لأمر معاوية، وأخمد نار الفتنة، وسكّن رحى الحرب بين المسلمين. والباقون من جملة الرعايا، لم يكن لهم حكم على الأمة في أمر من الأمور)[٥٤٤]. وله من القول زيادة أعرضُ عن ذكرها لهوسها. ولابدّ من القول أنّه نظر الى صلح الحسن ليس من الناحية الإسلامية لأنّ الحديث عليها يتعلّق بمصلحة

---

(٥٤١) الكامل ج ٨ ص ٤٩.

(٥٤٢) سير أعلام النبلاء ج ١٤ ص ٤١٢ رقم ٢٢٧ .

(٥٤٣) انظر البداية والنهاية ج ١٢ ص ١٢٧.

(٥٤٤) قصص الأنبياء لابن كثير ج١ ص٢٠٢، قصة إبراهيم الخليل(عليه السلام).

الرسالة ومصير أهل البيت الأطهار(عليهم السلام) ، ولكنه نظر الى الصلح كتسليم للأمر الى معاوية وإخماد للفتنة بمفهومها الذي أراه كالمفاهيم الأُخرى التي توسّعوا في إطلاقها وتعميمها بغرض النيل من الجماعات التي تثور على الظالمين وتأبى ذلّ الجور.

ومن الغريب أيضاً خلط كتّاب العصر [٥٤٥] الحاضر بوصفهم ابن أبي الحديد المعتزلي أنّه شيعيّ، إلى غير ذلك من الغرائب .

هذا ما ذكرناه على سبيل المثال والتمهيد للوصول إلى أسباب اتهام الشافعي بالتشيّع. ولو أردنا أن نتوسع في ذلك لطال بنا الحديث في ذكر الحوادث التي وقعت من وراء ذلك.

وصفوة القول: إنّ الاتهام بالتشيّع ونسبة أُناس كثيرين إلى الشيعة أصبح غير منوط بقاعدة ولا مربوط بدليل، حتّى أنّ أبا حنيفة نسبوه إلى التشيّع، لأنّه كان يذهب إلى تفضيل علي (عليه السلام) على عثمان وقد امتحن كثير من العلماء وأوذوا في ذلك، مثل النسائي صاحب «السنن الكبرى» لأنّه ألّف في فضل علي كتاباً ولم يؤلف في فضائل معاوية[٥٤٦] وأمثال هذا كثير لا يسع المقام حصره. ولنعد إلى الحديث عن أسباب إتهام صاحبنا بذلك. وهي أُمور :

١ ـ كان الإمام الشافعي يتظاهر في مدح أهل البيت(عليهم السلام)مما يدلّ على نزعته وميوله إلى التشيع ـ كما ذكروا ـ وإنّها لتشعر بكلّ صراحة على ذلك، فهو يعلن تمسّكه بآل محمد ويقول :

آل النبيّ ذريعتي *** وهمو إليه وسيلتي
أرجو بأن أُعطى غداً *** بيدي اليمين صحيفتي

واشتهر عنه قوله :

يا آل بيت رسول الله حبكموا *** فرض من الله في القرآن انزله
يكفيكموا من عظيم الذكر انكموا *** من لم يصلِّ عليكم لا صلاة له

ويوضح لنا الإمام الشافعي بواعث اتهامه بالرفض أو التشيّع فيقول :

قالوا ترفضت قلت كلاّ *** ما الرفض ديني ولا اعتقادي
لكن توليت دون شكّ *** خير إمام وخير هادي

---

(٥٤٥) شرح نهج البلاغة لمحمد عبد الكريم النمري ج ١ ص ٦.
(٥٤٦) المنتظم ج ١٣ ص ١٥٥ ـ ١٥٦ / ٢١١٢.

إن كان حبّ الوصي رفضاً *** فإنني أرفض العباد[٥٤٧]

فهو بإظهاره حبّ علي بن أبي طالب (عليه السلام) قد أتّهّم بالرفض ولشدة تظاهره بحبّ علي (عليه السلام) فقد هجاه بعض الشعراء بقوله المشهور:

يموت الشافعي وليس يدري *** عليّ ربّه أم ربّه الله

وهو لم يقتصر بحبّه لعلي فقط، بل كان يوالي أهل البيت(عليهم السلام)ويحبّهم، ولا يبالي بأن يتهم بالتشيّع الذي كان من أعظم التهم في عصره وقبل عصره فيقول :

ياراكباً قف بالمحصّب من منى *** واهتف بقاعد خيفها والناهض

سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى *** فيضاً كملتطم الفرات الفائض

إن كان رفضاً حبُ آل محمد *** فليشهد الثقلان أني رافضي[٥٤٨]

٢ - إن الشافعي قد صرح بتشيّعه وجعل ذلك فخراً له فيقول :

أنا الشيعي في ديني وأصلي *** بمكة ثم داري عسقلية

بأطيب مولد وأعزّ فخراً *** وأحسن مذهب سمّوا البرية [٥٤٩]

فهو بهذه الصراحة يدلّ على أنّ تلك التهمة موجّهة إليه لا محالة.

٣ - لقد نصّ على تشيّع الشافعي جماعة من المؤرخين والمحدثين، فهذا يحيى بن معين المحدث الكبير كان يقول: إنّ الشافعي كان شيعياً، فلما بلغ أحمد بن حنبل ذلك، وكان طبيعياً أن يسوءه هذا القول في الشافعي، فأحب أن يسأل من ابن معين عن الأدلة التي أدت إلى اتهام الشافعي بالتشيع، فقال أحمد لابن معين: كيف عرفت ذلك؟

فقال يحيى: نظرت في تصنيفه في قتال أهل البغي، فرأيته قد احتجّ من أوّله لآخره بعلي بن أبي طالب .[٥٥٠]

هذا هو سبب اتهام الشافعي، أو الطعن عليه بأنّه كان يحتجّ بعلي بن أبي طالب!

وقال ابن النديم: وكان الشافعيّ شديداً في التشيّع واستدلّ على ذلك بما يلي:

١ - ذكر له رجل يوماً مسألة فأجاب فيها، فقال له الرجل: خالفت علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) .

فقال الشافعي: اثبت لي هذا عن علي بن أبي طالب حتى أضع خدّي على التراب وأقول: قد أخطأت.

---

(٥٤٧) جواهر العقدين ص٢٥٤.

(٥٤٨) تاريخ دمشق ج ٥١ ص ٣١٧ / ٦٠٧١.

(٥٤٩) الفخر الرازي في المناقب ص ٥١.

(٥٥٠) الفخر الرازي في المناقب ص ٥١.

٢ - حضر الشافعي مجلساً فيه بعض الطالبيين فقال: لا أتكلّم في مجلس أجدهم - أي الطالبيين - أحقّ بالكلام ولهم الرياسة والفضل.[٥٥١]

فالشافعي إذاً بمجموع هذه الأدلة قد تحققت في حقّه تلك التهمة، وهي الانتساب الى مذهب التشيّع، الذي كانت الدولة وأذنابها تنظره بعين الغضب، لأنّ مذهب التشيّع كابوس لصدور الدولة وقذى في عيونها، لعدم امتزاجه بسياستها، فهو يستقي من ينبوع أهل البيت(عليهم السلام)ويأخذ بتعاليمهم. وناهيك ما لأهل البيت(عليهم السلام)في قلوب المتعطشين على السيادة والاستبداد من بغض وعداء! إذاً كيف نصنع بهذا الإمام العظيم، الذي اشتهر ذكره، وكثرت أتباعه، مع أنّه متّهم بانضمامه إلى جانب خصوم الدولة، فلابدّ من الدفاع لتبرئته من ذلك؟

نتيجة وحكم

وقد نستخلص من هذا الاستطراد لاتّهام الشافعي ولأقواله، سواء منها الصريحة أو الموهمة النتيجة التالية :

إن تشيّع الشافعي كان تشيّعاً بالنسبة لمجتمعه الذي أخرجته السياسة عن عقيدة الاستقامة، حيث صيّرت أكثر مسلمي ذلك الزمن أُناساً يحاربون أهل البيت(عليهم السلام)باليد واللسان، وقديماً قيل: «الناس على دين ملوكهم» لذلك كانت شجاعة الشافعي في إظهار حبّه لعلي وآله هي السبب في وصفه بالتشيّع.

أمّا إذا جرّدنا ذلك المجتمع من سيطرة الدولة، وكشفنا الستار الذي تعمل من ورائه أيدي العابثين بصفو الأُخوة الإسلامية، من قبل المتدخلين في الإسلام; فإنّا لا نجد هناك انساناً مسلماً يبغض أهل البيت(عليهم السلام)فيما عدا الخوارج، ومن حذا حذوهم ممّن لم يرفع الاسلام ترسبات الشرك والوثنية من قلبه، وما هو بمسلم بل مستسلم أو متحين لفرصة الانتقام بالمسلمين، طالما لم يكن في آل علي من يتّصف بما يوجب كراهيته في المجتمع، فحبّهم لا يكاد يخلو منه قلب مسلم من السنة أو الشيعة، غير أنّ الفرق الأساسي بين الطائفتين هو قول الشيعة بالإمامة لعلي والوصاية له، وقول السنة بالشورى والخلافة وإنكار الوصاية. فالشافعي على هذا ليس شيعياً، وإنّما هو مسلم يتمّسك بحبّ أهل البيت(عليهم السلام)ولا يناصبهم العداء، شأن أهل زمانه من السنة.

---

(٥٥١) فهرست ابن النديم ص ٢٩٥.

وأنّ نظرة دقيقة من القارئ إلى قول الشافعي: «ما الرفض ديني ولا اعتقادي» مع ملاحظة انّ سبب تسمية الشيعة هو رفضهم للخلفاء والخلافة توقفه بوضوح، على أنّ الشافعي نفسه ينكر الرفض والاعتقاد به، وأنه لم يزل يتمسك بمبدأ التسنن. غير أنّه ينكر على مجتمعه إطلاق لفظ رافضي على محبّ عليّ وآله، لعلمه بأنّ مجرد الحبّ لا يعني التشيع، طالما كان التشيّع ملزوماً بالاعتراف لعلي بالوصاية وأحقيّته بالخلافة وأهليّته للإمامة ولزوم اتّباعه. ولهذا قال على سبيل الفرض :

إن كان رفضاً حبّ آل محمد *** فليشهد الثقلان أني رافضي

فالشافعي لا يبالي بتلك التهمة التي وجّهت إليه، لأنّه كان يرى أنّ حبّ آل محمد فرض على الأمة الإسلامية. يدلّنا على ذلك قوله :

يا آل بيت رسول الله حبكموا *** فرض من الله في القرآن أنزله

وهو يشير بذلك إلى قوله تعالى (**قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى**)[٥٥٢] وبهذا قد اتضح لنا رأي الشافعي وعرفنا نزعته، فهو محبّ لأهل البيت (عليهم السلام)وليس بشيعي. ومما يؤيّد ذلك أنّ الشيعة لم تدع هذه الدعوى ولم تدخله في قائمة علمائها، لأنّ أمره واضح ومبدأه بيّن. إذاً، فالشافعي بريء من هذه التهمة.

هذا ما استخلصناه على سبيل الإستطراد والاختصار. وإلى القارئ صورة من دفاع الشافعية عن هذه التهمة.

دفاع الشافعية

قال الفخر الرازي: أمّا دعوى الرفض فباطلة، لأنّه قد اشتهر عنه أنّه كان يقول بإمامة الخلفاء الراشدين، وكان كثير الطعن في الروافض، قال يونس بن عبد الأعلى: سمعت الشافعي يقول: أجيز شهادة أهل الأهواء كلّهم إلا الرافضة فإنهم يشهدون بعضهم لبعض. وقال يونس: كان الشافعي يعيب الروافض ويقول: هم شرّ عصابة.

وأمّا مدح عليّ وحبّه والميل إليه فذلك لا يوجب القدح، بل يوجب أعظم أنواع المدح.

وأمّا طعن يحيى بن معين، فالجواب عنه ماروى البيهقي عن أبي داود السجستاني. أنّه قيل لأحمد بن حنبل: أنّ يحيى بن معين ينسب الشافعي إلى الشيعة،

---

(٥٥٢) الشورى: ٢٣ .

فقال أحمد: كيف عرفت ذلك؟ فقال يحيى: نظرت في قتال أهل البغي فرأيته قد احتجّ من أوّله الى آخره بعلي بن أبي طالب.

فقال أحمد: يا عجباً لك ! فيمن كان يحتجّ الشافعي في قتال أهل البغي، فإنّ أوّل من ابتلى من هذه الأمة بقتال أهل البغي هو علي بن أبي طالب، قال: فخجل يحيى من كلامه. وأيضاً فإنّ يحيى بن معين كان شديد الحسد للشافعي، وكان يلوم أحمد بن حنبل على تعظيم الشافعي.

ولمّا سمع الشافعي أنّ بعض الناس رماه بالتشيع أنشد وقال :

إذا نحن فضّلنا علياً فإننا *** روافض بالتفضيل عند ذوي الجهل
وفضل أبي بكر إذا ما ذكرته *** رميت بنصب عند ذكراي للفضل
فلا زلت ذا رفض ونصب كلاهما *** أدين به حتى أوسّد في الرمل [٥٥٣]

مذهبه وانتشاره

كانت مصر هي المكان الذي صدر عنه المذهب الشافعي ومنه انتشر في الأقطار، وذلك بفضل جهود تلامذته المخلصين الذين شغلوا الناس عن دراسة المذهب المالكي والمذهب الحنفي. وكانا قد انتشرا هناك.

قال السبكي في الطبقات عن مصر والشام بالنسبة للمذهب الشافعي: هذان الإقليمان مركز ملك الشافعية، منذ ظهر المذهب الشافعي، اليد العالية لأصحابه في هذه البلاد، لا يكون القضاء والخطابة في غيرهم ، أمّا الشام فقد كان مذهب الأوزاعي حتى ولي القضاء أبو زرعة محمد بن عثمان الدمشقي الشافعي. ويقول: كان محمد بن عثمان رجلاً رئيساً، يقال: أنّه هو الذي أدخل مذهب الشافعي الى دمشق، وأنّه كان يهب لمن يحفظ مختصر المزني منه مائة دينار.[٥٥٤]

وعلى أيّ حال، فإنّ المذهب الشافعي كانت بذرته الأولى في مصر، ومنها انتشر بفضل جهود أصحاب الشافعي، ولولاهم لكان أثراً بعد عين، ولكان مصيره مصير مذهب الليث بن سعد، الذي لم يتهيأ له أصحاب مخلصون يقومون بنشره. ولعلّ أهمّ العوامل التي هيّأت الشافعي أسباب النجاح في مصر هي كما يلي.

---

(٥٥٣) مناقب الشافعي ص ٥١ ـ ٥٢ .

(٥٥٤) طبقات الشافعية الكبرى ج ١ ص ٣٢٦ و ج ٣ ص ١٥٦ ـ ١٥٧.

١ - إنّه كان معروفاً بأنّه تلميذ مالك وخرّيج مدرسته، وكان لمالك هناك ذكر ولمذهبه انتشار فقوبل بالعناية، وذلك قبل إظهاره المعارضة لمذهب مالك والرّد عليه :

٢ - نشاط الشافعي وعلوّ همته وتفوّقه بالأدب ومعرفة اللغة، واحاطته بأقوال مالك وأهل العراق، وما عرف عنه أنّه كان ينتصر لأهل الحديث ويردّ على أهل الرأي.

٣ - اشتهار قرشيته واعتصامه بالإنتساب للنبي (صلى الله عليه وآله) وهذا له أثره في قلوب المصريين.

٤ - صلته بحاكم مصر الجديد عبد الله بن العباس بن موسى، ومعرفته به يوم كان بمصر، وأنّه سافر معه عند تعيينه، أو أنّه حمل له وصية من الخليفة في بغداد.

٥ - اختياره في النّزول عند أقوى بيت في مصر وأعزّهم جانباً، وهم بنو الحكم، والتفاف أعيان أصحاب مالك حوله، كأشهب وابن القاسم وابن المواز وغيرهم.

تغلّب المذهب الشافعي على المذهب المالكي بمصر بعد أن كان هو السائد وله السلطان هناك. وقد ذكرنا مقابلة أنصار المذهب المالكي لأصحاب الشافعي. وتمّت له الغلبة هناك أيام الدولة الأيوبيّة، لأنّهم كلّهم شوافع إلاّ عيسى بن العادل [٥٥٥] سلطان الشام، فإنّه كان حنفيّاً، ولم يكن في هذه الأسرة حنفي سواه، ثم تبعه أولاده، وكان شديد التعصّب لذلك المذهب، ويعده الحنفية من فقائهم، وله شرح على الجامع الكبير في عدة مجلدات.

ولمّا خلفت دولة المماليك البحرية دولة الأيوبيين لم تنقص حظوة المذهب الشافعي، فقد كان سلاطينها من الشافعية إلاّ سيف الدين، الذي كان قبل بيبرس، فقد كان حنفيّاً، ولكن لم يكن له أثر في الدولة لقصر مدته.

تعيقبٌ وتصْويب

---

(٥٥٥) عيسى بن سيف الدين الملك العادل أبي بكر بن أيوب ولد في القاهرة سنة (٥٧٦ هـ). وملك دمشق ثماني سنين وأشهراً ومات سنة (٦٢٤ هـ) وكان متغالياً في التعصّب لمذهب أبي حنيفة. قال له والده كيف اخترت مذهب أبي حنيفة وأهلك كلهم شوافع؟ فقال: أما ترغبون أن يكون فيكم رجل واحد مسلم؟ وهو قد صنّف كتباً كثيرة منها: السهم المصيب في الرد على الخطيب. ترجمته في الفوائد البهية ص ١٥١.

وبعد هذا العرض لأخبار الشافعي وآثاره نودّ أن نسجّل بعض الملاحظات إتماماً لتصوير الشافعي الفقيه وعهده فنقول :

إنّ قضية ادعاء الأفضلية في العلم والتفرّد في الفقه لرؤساء المذاهب أو غيرهم أصبحت قضية متعلقة بروح التعصّب والعداء تجري مجراها، ولو انعدمت هذه الروح ولم توجد الأعراض التي خلقت الفرقة والتعدد لما استخدمت أساليب الوضع واتخاذ البشائر والمقامات بدلاً من موازين العلم ومعاييره، فالعالم بآثاره وأعماله ومن صفاته العزوف عن التظاهر أو إعلان التفوق إنّما يزداد العالم منزلة بزيادة علمه ويعلو شأنه بعلوّ كعبه في ميدان التصنيف وإحياء الآثار، ولا تتحقق الأفضلية بالادّعاء أو الحجب عن الآخرين. وممّا يجعل هذه القضية قضية غير موفقة أو غير ناجحة هو وضعها في جملة وسائل التحكم أو التأثير في معتقدات الناس أو أفكارهم، فالأمر العلمي يمضي بخصائصه من دون حاجة الى دعوى لا برهان عليها. على أنّ العلماء أنفسهم يندر أن يصدر منهم شخصياً مثل ذلك، ولكنّ الأعوان، أو مصالح الحكام هي التي تقف وراء مثل هذه الادعاءات ونموّها، لأنّ العالم الحقّ بقوّة إيمانه وورعه وبتحصيله وعطائه تصان مكانته ويصون نفسه.

حول تمييز الشافعي

إنّ ما بأيدينا من أخبار الشافعي وما وقفنا عليه من آثاره، وما يحكيه هو عن نفسه، لا يدلّ على ما يذهب إليه الشافعية من القول: بأنّ الشافعي هو أعلم الأُمة. أو فوق علمائها أجمع، وأنّه أعلم قريش وأشهرهم ذكراً، بل العلم بالكتاب والسنة له دون غيره، في عصره وقبل عصره، كما جاء في آداب الشافعي لابن أبي حاتم الرازي عن عبد الرحمن قال: سمعت دبيساً يقول: جئت الى حسين الكرابيسي فقلت له: ما تقول في الشافعي؟

فقال: ما أقول في رجل ابتدأ في أفواه الناس الكتاب والسنّة، نحن ولا الأوّلون حتى سمعنا من الشافعي الكتاب والسنة والاجماع.(٥٥٦)

ويقول السبكي في وصفه: أنّه الإمام الأعظم المطلبي والعالم الأقوم ابن عمّ النبي (صلى الله عليه وآله)، فإنّه عالم قريش الذي ملأ الله به طباق الأرض علماً، ورفع من طباقها الى طباق السّما بذاته الطاهرة من هو أعلى من نجومها وأسمى، وأثبت باسمه

(٥٥٦) المناقب ص ٥٧.

في طباق أجزائها اسم من يسمع آذاناً حُما، ومن لو قالت بنو آدم: علمه الله الأسماء كما ابرز منه لكم اباً ومن تصانيفه أمّاً والحبر الذي أسّس بعد الصحابة قواعد بيته بيت النبوة واقامها وشيّد مباني الإسلام بعد ما جهل الناس حلالها وحرامها وأيّد دعائم الدين .[٥٥٧]

وأمثال هذا كثير، ونحن لانثب معهم هذه الوثبة; بل نقف عند حدود الواقع، ولا نأخذ هذا بعين الاعتبار بدون تثبّت، مع العلم بأنّ هذا بعيد عن الواقع. ولا نفهم من ذلك الاندفاع لتصوير شخصية الشافعي إلاّ التعصّب.

ونحن حين نتعرّض لأمثال هذه الأمور; إنّما نقصد اعطاء صورة عن ذلك التدرّج إلى اعلاء مكانة الشخص، طلباً للتفوق في ظروف التدافع والتقابل وتلاحي كلّ فريق مع منافسه، بدون التفات إلى مؤاخذة عند مخالفة الواقع.

واتّخذ سبيل انتحال الأقوال ونسبة المديح الى رجال معروفين لتحقيق التفوّق، ولكنّ التدقيق والتمحيص يكشفان حقيقة الادّعاء.

وإليك مثلاً من ذلك :

يروي ابن عبد البر بسنده عن سويد بن سعيد قال: كنّا عند سفيان بن عيينة بمكة، فجاء رجل ينعى الشافعي ويقول: إنّه مات. فقال سفيان: إن مات محمد إبن ادريس فقد مات أفضل أهل زمانه.[٥٥٨]

هذا ما ورد في مناقب الشافعي، وإذا أردنا أن نقف وقفة قصيرة لاستجلاء الواقع فسيتّضح لنا كذب هذا القول، لأنّ وفاة سفيان كانت سنة (١٩٨ هـ) في جمادى الآخرة أي قبل وفاة الشافعي بست سنين وأشهر، مع أنّ سويد بن سعيد هو البورفي - راوي هذا القول - كان من أكذب الناس، وممّن يضع الحديث، كما نصّ علماء الرجال على ذلك.[٥٥٩]

التناقض في التصوير

وهناك أقوال لابدّ لنا من عرض بعضها والنظر إليها بدقة وتمحيص:

---

(٥٥٧) طبقات الشافعية ج ١ ص ٣٤٣.

(٥٥٨) الانتقاء ص ٧٠.

(٥٥٩) تهذيب الكمال ج ١٢ ص ٢٤٧ / ٢٦٤٣.

جاء عن أحمد بن حنبل أنّه كان يقول: إنّ هذا الذي ترون - أي العلم - كلّه أو عامّته من الشافعي. ويقول الميموني: قال لي أحمد بن حنبل: مالك لا تنظر في كتب الشافعي؟ ما من أحد وضع الكتب منذ ظهرت أتبع للسنة من الشافعي، وروى أبو نعيم في مناقب الشافعي: أنّ أحمد قال ليحيى بن معين: إن أردت الفقه فالزم ذنب البغلة - أي بغلة الشافعي - .(٥٦٠)

هذا وأمثاله ترويه كتب الشافعية. وحينما نطمئنّ إلى هذا النقل مدة قصيرة; لا نلبث حتى نواجه ما يخالفه ويناقضه من الجانب الآخر.

قال أحمد بن الحسن الترمذي: سألت أبا عبد الله أحمد بن حنبل: أأكتب كتب الشافعي؟ فقال: ما أقلّ ما يحتاج صاحب حديث إليها.(٥٦١)

وقال أبو بكر المروزي: قلت لأحمد بن حنبل: أترى الرجل يكتب كتب الشافعي؟ قال: لا قلت: أترى أن يكتب الرسالة؟ قال: لا تسألني عن شيء محدث. وقال أيضاً: لا تكتب كلام مالك، ولا سفيان، ولا الشافعي.(٥٦٢)

ونحن لا يدهشنا هذا التناقض بعد وقوفنا على الأصل الذي أثر على الآراء والحقائق، وبعد ما سمعنا في مدح الشافعي وغيره بما هو أكثر من هذا، وفي انتقاصه بما هو أعظم كالحديث الذي يرويه أحمد بن عبد الله الجوبياري عن عبد بن معدان عن أنس عن النبي (صلى الله عليه وآله): يكون في أُمتي رجل يقال له محمد بن إدريس أضرّ على أُمتي من إبليس ويكون في أُمتي رجل يقال له أبو حنيفة هو سراج أُمتي.(٥٦٣)

وأحمد بن عبد الله الجوبياري أمره مشهور وحاله معروف في وضع الأحاديث. وقد استخدموه لصالح التعصّب والتنافس.(٥٦٤)

فهذه التيارات من الجانبين تستدعي الوقوف والتريث.. وبهذا لا نصغي لأقوال المندفعين وراء العاطفة كقول أحمد بن يسار: لولا الشافعي لدرس الإسلام (٥٦٥)، وقول البرذعي: سمعت أبا زرعة يقول:

---

(٥٦٠) توالي التأسيس ص ٥٧.
(٥٦١) طبقات الحنابلة ج ١ ص ٣٨.
(٥٦٢) طبقات الحنابلة ج ١ ص ٥٧.
(٥٦٣) اللآلئ المصنوعة للسيوطي ج ١ ص ٢١٧.
(٥٦٤) ميزان الاعتدال ج ١ ص ٢٤٥ / ٦١٨.
(٥٦٥) توالي التأسيس ص ٧١.

ما أعلم أحداً أعظم منّة على أهل الاسلام من الشافعي، ويقول أحمد بن سنان: لولا الشافعي لاندرس العلم .[٥٦٦]

ولو أردنا أن نبحث بدقّة عن هذه الأقوال وغيرها لمعرفة نصيبها من الصحة; فالأمر لا يحتاج إلى تكلّف. بعد أن وقفنا على المبادئ الأساسية التي دعت إلى وضع هذه الأقوال، وأهمّها ثورة العواطف وتيّار التعصّب.

وما لنا نستغرب أو نستكثر على أصحاب الشافعي هذه المغالاة في مؤسّس فقههم ورئيس مذهبهم ونحن نرى أصحاب أبي حنيفة لم يقصروا عن هذه الخدمة في حقّ إمامهم؟ وبهذا استوت كفّة الميزان في كلّ ماورد من مبالغات معتنقي المذاهب، كالحنفية في حديث: أبي حنيفة محيي السنة، والمالكية في حديث: عالم المدينة، والشافعية أيضاً في حديث: عالم قريش، فجعلوا العلم وقفاً على شخصية الشافعي دون غيره من قريش وحصروه عليه بمعناه الكامل - إن صحّ الحديث - وإلاّ فهو موضوع من قبل المتعصّبين كغيره من الأحاديث والمناقب التي كثيراً ما تبدو في مظهر جدّ براق خلاب، ومما يؤيّد ذلك أنّ ذوي الاستقامة من علماء المذاهب لم يجعلوا لأكثرها وزناً كبيراً من الاعتماد والاحتجاج.

أمّا الحنابلة الذين لم يستطعيوا خلق حديث في إمامهم فإنّهم اعتمدوا على الأطياف فوضعوا عن النبي (صلى الله عليه وآله) كثيراً من ذلك وسيأتي بيانها، وهي أُمور كان مبعثها احتدام النزاع الطائفي الذي أصبح ميداناً للخلاف ومحوراً للتخاصم آنذاك.

نقول هذا بدون طعن على أُولئك الرجال، ولا حطّاً من كرامتهم، لأنّ الواقع الذي نلمسه من سيرتهم وما طبعوا عليه يقضي علينا ببراءتهم من ذلك الادعاء الأجوف. وقد دلّت آثارهم على خلاف ما يذهب إليه المتعصّبون لهم. وقلنا أنّ العالم بآثاره وأسفاره ومن صفاته البحث في العلم وليس البحث عن التفوّق ولا ادعاء الأفضلية، لأنّ العلم ما تشهد به الحقائق.

مذهبه الفقهي

إذا أردنا أن نقف على مدى نشاط الشافعي في فقهه فلا نستطيع تحديد ذلك; بعد أن وقفنا على نشاط أصحابه وتلامذته الذين نما المذهب بجهودهم واجتهادهم بكثرة

---

(٥٦٦) توالي التأسيس ص ٦١.

التخريج. ولهم آراء كثيرة وأقوال متعددة اجتهدوا فيها، ولم يؤثر عن الشافعي نصّ فيها، ونسبوا الجميع إليه وعُدّت من مذهبه، وهم وإن كانوا لا يقولون إنّها أقوال الشافعي، لكنهم يقولون إنّها أوجه بمذهبه.

وبفضل جهود أصحابه قد اكتسب المذهب من البيئات المختلفة والأحوال الاجتماعية المتباينة والشؤون الاقتصادية المتخالفة الشيء الكثير، ممّا كان يتأثر به المجتهدون عند تخريجهم للمسائل، إذ كانوا بلا ريب متأثرين ببيئاتهم الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية، وأنّك لو درست ذلك المذهب على ضوء هذا، وفحصت الآراء بين المختلفين على ذلك النور، لعلمت أثر البيئات في أقوال المختلفين وآراء المتنازعين، وإنّ الذين يدرسون فروع ذلك المذهب بل فروع المذاهب المختلفة، درسوها منسوبة لأصحابها، وعرفوا البيئات المختلفة; فإنّهم حينئذ يرون تلك الآراء صوراً
صادقة لعصورها، حاملة ألوانها ومنازعها الاجتماعية والاقتصادية وأعراف الناس فيها.(٥٦٧)

وقد نشأ في عصور الاجتهاد وحرية الفكر رجال لهم الأثر العظيم في التخريج وسعة دائرة المذهب كالاسفرائيني الذين قالوا في حقّه: إنّه أنظر وأفقه من الشافعي; ومثل القفّال وأبو العباس، وغيرهم ممّن اشتهر بالاجتهاد المطلق ونسب الى الشافعي، ولهم الفضل في التخريج للمسائل.

ولمّا أُغلق باب الاجتهاد أصبح المذهب مقصوراً على دراسة أقوال المتقدمين، والمحافظة على ماورثوه عنهم، واستخراج الفتاوى والأحكام من بين الأقوال المختلفة والآراء المتنازعة. وبمجموعها قد تكوّن المذهب الشافعي.

وعلى أيّ حال; فإنّا لا نستطيع تحديد فقه الشافعي من أقواله وآرائه بعد ما أصبح المذهب المنسوب إليه، مجموعة أقوال أئمة مختلفين، متباعدة أوطانهم مختلفة آراؤهم، وضمن تلك الأقوال انضمت أقوال الشافعي وآراؤه، ولا سيّما أكثر المؤلفين قد نسبوا ما ألّفوه للشافعي طلباً للقبول ودعاية للرواج.

---

(٥٦٧) الشافعي لمحمد أبو زهرة ص٢٦٤.

نهيه عن مذهبه القديم

إنّ من أهم الظواهر التي لاحظناها عند دراستنا لحياة الشافعي هي نهيه عن الأخذ بمذهبه القديم الذي أفتى فيه ببغداد; فأصبح المعوّل على ما أفتاه في مصر، ومثل هذا التطور يوجد لنا إحجاماً عن تحقيق ذلك التكامل في تلك المدة القصيرة، التي لا تسمح لمثله من البشر ان يبلغ تلك الدرجة التي أدعيت له في بلوغ أعلى منزلة علمية، مع وجود شواغل وموانع تحول بينه وبين استخدام قوّته واستعمال فطنته، لاستنتاج مسائل تكون شاملة لأحكام قرون متوالية.

لقد كان الشافعي في مصر مشغولاً بمرضه الذي اعتوره مدة طويلة، مع وجود مشاحنات ومقابلات بين اصحابه وبين خصومهم من المالكية، بالإضافة إلى ما وصفوه به من طول العبادة والتهجّد. يضاف إلى ذلك ما كان يعلوه من دين لعسر حاله، فيقال: إنّه مات وعليه من الديون ستون ألف دينار، وهذا له أثره في الطبيعة البشرية، إذ هو بحكم الطبع الإنساني شاغل مجهد، مع أنّ الشافعي معروف ببلاغته ومعرفته بلغة العرب وأشعارهم، وكان هو ينظم الشعر الرائق أيضاً ، وقد التفّ حوله كثير من طلاب مصر لمعرفة الآداب واكتسابها منه. إلى آخر الأمور التي وصفوه بها، وبطبيعة الحال أنّ ذلك يوجب التوقف عن اعطاء الحكم بما يدّعونه له، وكان اللازم أن نوفّق بين تلك الروايات الدالة بمنطوقها على تكامله واستعداده وتفوقه الاجتهادي من صغر سنه، وبين نهيه وتحريمه لمذهبه القديم، لأنّ هذا التطور الغريب يستلزم الاستغراب في تحقيق ذلك التكامل. ونظراً لضيق المجال أرجأنا الكلام حول هذا الموضوع إلى محل آخر.

الخصومة المذهبية

لقد أصبح الخلاف في المذاهب ميداناً للنزاع ومحوراً للتخاصم ومثاراً للفتن، وقد تعرضنا لكثير من ذلك، ممّا يوضح للقارئ النبيه أنّ الكثير منهم قد استساغ الوقيعة بمن يخالفه في المذهب، وكانت المعركة الجدلية بين الحنفية والشافعية أكثر منها بين سائر المذاهب، حتى خرج الأمر عن حدود الجدل إلى الحروب الدموية، مما أدّى إلى خراب البلد من جراء هذا الخلاف. يقول ياقوت عند الكلام على اصفهان بعد أن ذكر مجدها القديم : وقد فشا فيها الخراب في هذا الوقت وقبله. وفي نواحيها، لكثرة الفتن والتعصّب بين الشافعية والحنفية، والحروب المتصلة بين الحزبين. فكلّما ظهرت طائفة نهبت محلة الأخرى، واحرقتها وخربتها، لا يأخذهم في ذلك إلٌ ولا ذمّة. ومع

ذلك فقلّ ان تدوم بها دولة سلطان، او يقيم بها فيصلح فاسدها وكذلك الأمر في رساتيقها وقراها التي كلّ واحدة منها كالمدينة.

ويقول عند وصفه للرّي ووقوع العصبية بين الحنفية والشافعية: ووقعت بينهم حروب كان الظفر في جميعها للشافعية: هذا مع قلة عدد الشافعية، إلا أنّ الله نصرهم عليهم. وكان أهل الرستاق - وهم حنفية - يجيئون الى البلد بالسلاح الشاك ويساعدون اهل نحلتهم، فلم يغنهم ذلك شيئاً حتى افنوهم.(٥٦٨)

ولشدّة الخلاف والجدل بينهم ألّفت الكتب في بيان الخلاف بين أبي حنيفة والشافعي، ونشأ من ذلك علم يسمّى: «آداب البحث والمناظرة» يقصدون منه الشروط التي يتبعها المجادل في جدله، إذ اصبح الأمر فوضى، وقد ذكر الغزالي شروطاً ثمانية لا يسع المجال ذكرها.(٥٦٩)

وعلى أيّ حال، فإنّ ذلك التعصّب كان من نتائجه ذلك الاندفاع والاغراق في المدح، بحقّ وبغير حقّ، إذ لم يضعوا الأمور في نصابها بالتجرد عن الأهواء والعاطفة، ممّا شوّه وجه الحقيقة، فأوجد صعوبة كبيرة في تمحيص الأخبار التي اشتملت عليها المناقب، وبالأخص كتب الشافعية والحنفية للأسباب المتقدمة، لأنّها غير متناسقة ولا متماسكة، لذلك اقتصرنا في دراسة حياة الشافعي على العرض التأريخي. ونقف عند هذا الحد من البيان عن تاريخ حياته، وسنعود إن شاء الله تعالى الى استعراض آرائه.

نتائج الخلافات المذهبية

وقبل الختام أودّ الإشارة بإيجاز إلى أنّ تلك الخلافات المذهبية والنعرات الطائفية قد أوجدت الفرقة بين المسلمين وكادت تكتسح صروح مجدهم المؤثل، لولا عناية الله تعالى ولطفه بالإسلام وأهله، ولم يكن منشأها سوى وجود الأيدي العابثة من الفئة الفاسدة أو من الذين دخلوا في الاسلام - لا رغبة - بل للوقيعة بأهله، فإذا بهم وقد فسحت السياسة لهم المجال ليحققوا سوياً الاهداف التي لا تتحقق مع وحدة الكلمة ولا تنال إلاّ بالفرقة، وتحكيم قانون «فرّق تَسد».

فكانت المؤامرات والدسائس تحاك من قبل خصوم الإسلام باتّخاذهم شتّى الأساليب في تفريق صفوف الأمة. وقد أفصح التأريخ عن كثير من تلك الحوادث

---

(٥٦٨) معجم البلدان ج ٤ ص ٣٥٦.

(٥٦٩) مجموعة رسائل للغزالي ص ١١٠ - ١١٤.

المؤلمة والوقائع المفجعة، التي أثارها أعداء الوحدة الإسلامية في شتّى الظروف السابقة.

ولقد مرّت أحقاب من تلك الحياة المضطربة والأدوار المظلمة; والمسلمون في نزاع وتخاصم، كلّ يريد أن يكيل صاع الانتقام للآخر، فكان من ذلك أن أُريقت الدماء، ونهبت الأموال بدون مبرر. وبهذا وجدت الأُمم المغلوبة غايتها المنشودة، فعملوا بكلّ إمكانياتهم في زيادة التوتر بين طوائف المسلمين، ولم يسعد المسلمون بيقظة في زمن ما، فيستقبلوا أمرهم بفكر ثاقب وحرية رأي وتجرّد عن العواطف، ليرفعوا ذلك الستار الأسود ويقطعوا تلك الأيدي العابثة، التي حملت لهم معاول الهدم وأدوات التخريب أحقابا وقروناً.

ولو رفع الستار لزال الخلاف، وأوقف ذلك الصراع الناتج من وراء التعصّب الجنوني، والجهل بالأمر الواقع، ولكان باستطاعة المسلمين ان يوحّدوا صفوفهم ليقفوا في وجه الخصم موقفاً مشرّفاً في سبيل المحافظة على العقيدة والدين، ولهدأت تلك الضوضاء التي ذهبت فيها أصوات المصلحين مع الرياح. ولأصبحنا (**خَيْرَ أُمَّة أُخْرِجَتْ لِلنَّاس**) [٥٧٠] كما وصفنا القرآن الكريم.

قلت لو رفع الستار; لنظر بعضنا الى بعض نظر مودّة وأُخوّة بدلا من نظرة البغض والكراهية. ولزالت تلك الرواسب التي أوجدتها عصور التطاحن والتعصّب لتكون عقبة كؤوداً في طريق وحدة المسلمين.

هذا وقد مرّت العصور وذهبت الأيام بما فيها غير مأسوف عليها، ونحن أبناء اليوم، فهل لنا أن نشعر بوجود تيّارات دولية تعمل في السرّ والعلن، وتتكالب على السيطرة والاستعمار؟! وأنّ خير طريق لمعالجة الوضع هو الشعور بالمسؤولية تجاه الدين والوطن، لندرك الحقيقة الناصعة ونقف على الأمر الواقع، ونكون كما أمر الله تعالى (**وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ**)[٥٧١] أو (**وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَتَفَرَّقُواْ**)[٥٧٢]؟

* * *

(٥٧٠) آل عمران: ١١٠.
(٥٧١) آل عمران: ١٠٤.
(٥٧٢) آل عمران: ١٠٣.

هذا ماتيسر لنا - بعونه تعالى - بيانه، ونسأله تعالى ان يوفّقنا لإكمال بقيّة الأجزاء إنّه سميع مجيب.

وقد أرّخ نخبة من العلماء لكتابنا «الإمام الصادق والمذاهب الأربعة» ننشر منها ما وردنا من سماحة العلامة الشيخ علي السماوي :

تحفتك الغرّاء قد أصبحت *** بمفرق التأريخ إكليلا
ففقت أقرانك فيهابما *** أمليت إجمالا وتفصيلا
سفر به حبلك قد صار في *** حبل رسول الله موصولا
وحزت خيراً فيه والخير ما *** قد كان عند الله مقبولا
فزت بمسعاك لتحقيق ما *** حقّ وابطلت الأباطيلا
ومن سنى الصادق قد أشرقت *** به براهينك تدليلا
لو النصارى قرأته لما *** تلت بدنياها الأناجيلا
يا أسد الفضل ومن لم يزل *** يحلل الأبحاث تحليلا
تاريخك العذب بسلساله *** فاق الفرات العذب والنيلا
أيّدك العلم فدم سالماً *** عضباً بوجه الجهل مسلولا
حسبك من سفرك أني به *** ارتل الإطراء ترتيلا
حيث وجدت فيه ما ابتغي *** (وفوق ما قد كان مأمولا)
حق لك الاطراء فيه بما *** عانيت - ترحيباً وتبجيلا
وحق إعظامك فيه بما *** أحسنت تحليلاً وتأويلا
نال الأماني الغر من قد غدا *** بالعلم والتأريخ (مشغولا)

١٣٧٧هـ

ومن صديقنا الأستاذ الكبيرالمؤرخ السيد محمد الحلي :

هذا كتاب قد حوى كنزه *** مباحثاً نافعة ممتعه
أبحاثه جاءت لمن أنصفوا *** دلائل واضحة مقنعة
نمّقها من أسد مزبر *** لأن مع الخصم لكي يقنعه
ويوضح الحق جلياً كما *** لم يخط في تأليفه موضعه
فهنّه والثم وأرّخ فماً *** «يحكي عن المذاهب الأربعة»

١٣٧٧ هـ

ومن صديقنا الأستاذ الخطيب السيد علي الهاشمي :

خير سفر أظهر الحق لنا *** (أسد) فيه وللزور محقْ

فتصفّحه وبالتاريخ (قل *** مذهب الصادق بالإسلام حقْ)

١٣٧٧ هـ

«انتهى الجزء الثالث بحمده تعالى »

الفهرس التفصيلي

الفهرس التفصيلي

نوعية البحث ... ١١

تفاوت المذاهب في الانتشار ... ١٣

نظرة في التعصب المذهبي... ١٥

الإمام الصادق(عليه السلام) **المدرسة والمذهب والشيعة**

مدرسته وطابعها ... ٢١

مواقفه من ساسة عصره ... ٢٣

الصراع بين المدرسة والدولة... ٢٥

نواة المدرسه وتاريخ نشأتها ... ٢٦

صمود مذهبه أمام الحكّام ... ٣٠

التنبيه الأوّل: التابعون والإمام الصادق(عليه السلام) ... ٣٣

التنبيه الثاني: تلامذة الإمام ومركزية الكوفة ... ٣٧

التنبيه الثالث: مدرسة الإمام ومعنى التشيّع ... ٤٠

أخطاء وأكاذيب

المؤلفون والشيعة ... ٤٧

مع أحمد أمين في كتبه ... ٤٨

أخطاء القصيمي ... ٥٠

مع ابن عبد ربّه ... ٥٢

أحلام ابن العماد ... ٥٧

أسطورة ابن سبأ ... ٥٨

الإمام الصادق(عليه السلام) **أصحابه وحملة فقهه**

مؤهلات الإمام الصادق ومكانته ... ٦٥

أبان بن تغلب ... ٦٩

مؤمن الطّاق ... ٨٥
هشام بن الحكم ... ٩٥

الفِرق الإسلامية في عصر الإمام الصادق(عليه السلام)

تمهيد ... ١٤٧
الخوارج ... ١٤٨
فِرق الخوارج ... ١٥١
المعتزلة ... ١٥٥
فِرق المعتزلة ... ١٥٦
المرجئة وفرقهم ... ١٥٨
الجبرية ... ١٦٠
تقوّلات حول فرق الشيعة ... ١٦٣
حول فِرق الغلاة ... ١٦٧

الإمام الصادق(عليه السلام) **وصاياه وحِكمه**

تمهيد ... ١٧١
وصيّة عامة الى جميع أصحابه ... ١٧٣
وصيّته لعنوان البصري ... ١٧٦
وصيّته لعمرو بن سعيد ... ١٧٧
وصيّته للمفضل بن عمر ... ١٧٧
وصيّته لحمران بن أعين ... ١٧٨
حكمه (عليه السلام) ... ١٧٩

المذاهب الأربعة التزام وآراء

تمهيد ... ١٨٧
الالتزام بالمذاهب الأربعة ... ١٨٨
التطرّف بالتزام المذهب ... ١٩٠

الإمام أبوحنيفة لا يلزم بالرجوع إليه ... ١٩٤
الإمام مالك ينهى عن التقليد ... ١٩٦
الإمام أحمد يحارب التقليد ... ٢٠٠
أسباب التعصب المذهبي وتطور الدعوة ... ٢٠٢

آراء حول الاجتهاد والتقليد

حول الاجتهاد والتقليد ... ٢٠٩
الاجتهاد ... ٢١١
التقليد ... ٢١٣
نسبة المذهب الى أبي حنيفة ... ٢٢٤
طريق الأصول للمذاهب ... ٢٢٥
الشيعة والاجتهاد ... ٢٢٦

الإمام الشافعي

تمهيد ... ٢٣٣
نسبه ونشأته ... ٢٣٥
ولاية الإمام الشافعي... ٢٤٣
الإمام الشافعي وحياته العلمية... ٢٤٩
مناقبه ... ٢٤٩
شيوخه وتلامذته ... ٢٥٣
كتبه وآثاره... ٢٦٢
آراؤه في القرآن ... ٢٧٨
رأيه في الرؤية ... ٢٨٠
رأيه في الصفات ... ٢٨٤
رأيه في الإمامة ... ٢٨٥
رأيه في علم الكلام ... ٢٨٧
عصر الإمام الشافعي وأحداثه... ٢٩٠
اضطهاد الدولة العباسية للعلويين... ٢٩٩
الحسين صاحب فخ ... ٣٠٠

الزندقة في عرف العباسيين ... ٣٠٢
الخلاصة ... ٣٠٧
أخباره ... ٣٠٩
مذهبه الجديد ... ٣١٥
الطعون على الشافعي ... ٣١٨
الإمام الشافعي والتشيّع ... ٣٢٢
نتيجة وحكم ... ٣٢٩
دفاع الشافعية ... ٣٣١
مذهبه وانتشاره ... ٣٣٢
حول تمييز الشافعي ... ٣٣٥
التناقض في التصوير ... ٣٣٧
مذهبه الفقهي ... ٣٣٩
نهيه عن مذهبه القديم ... ٣٤١
الخصومة المذهبية ... ٣٤٢
نتائج الخلافات المذهبية ... ٣٤٣
الفهرس التفصيلي ... ٣٤٧